

رواية

محمود الزواوي

# أرض المُهَاجِرِينَ

"في أرض لا ذرع، إلا بالدم، كان الأمل أول  
الهدايين." -

رواية / أرض الحيتان

الكاتب / محمود مصطفى عبد المجيد الزواوي.

## اهداء

إلى نفسي لأطمئنها أتني ما زلت مرغوباً، وإن خذلني البعض.

((إن أردت قصة دافئة اذهب وابك في حضن سندريلا أما هنا... فأنت في  
أرض الحيتان))

## أتعلمون ما سرُّ شقاء الإنسان؟

إنه ذلك الفراغ الذي لا يمتلكه، والجوع الذي ينهش الروح قبل أن يمس الجسد. جوعٌ يتختفي في صورٍ شتى: شهوة تلهب المخواج، ورغبة عارمة في سلطان، وزرعة عياء إلى نفوذ. يخیل إلى المرأة إن أكل شبع، وإن ملك استراح، وإن استولى على القلوب صار سيداً، غير أنه لا يدرك أنَّ هذا الجوع لا يزورى بالامتلاء، بل يتسع كلما شبع، ويزداد كلما نال.

النفس إذا ثركت بلا رادع تحولت إلى هاوية لا قرار لها، تتبلع ما حولها ولا تقول: كفى. فتستعبد صاحبها، فيأكل أخاه ظلماً، ويشرب من ضعف غيره ليقوى سلطانه، وينهي من دموع الناس عرشاً كاذباً سرعان ما ينهار.

أيها الإنسان... ما قيمة ما تجمعه بين يديك إن كنت أسير خواتك؟ وما نفع سلطان أو ثروة أو جسد مترف، إن كان قلبك خراباً وعقلك شاهد زور على رغباتك؟ أليس الدمار يبدأ من هنا: من قلبٍ امتلاً شهوةً وفرغ رحمة، ومن عقلٍ ينرين الأهواء حتى يغدو عوناً عليها؟

أكل الطعام أهون الجوع، أما جوع الروح فهو الذي يفترس العمر كله. فاسأل نفسك: أي شيء يُشبعك حقًا؟ وبأي زاد تطغى لهيتك؟ أبالذي يزول، أم بالذى يبقى؟

## البداية

كانوا يظلون أن النهاية ستجيء على هيئة صفارة إنذار أخيرة، أو ضوء أحمر يومض في الأفق، أو زلزال يشق الأرض نصفين. لكنهم كانوا - كعادتهم - مخطئين.

عام 2559 لم يكن عاماً عادياً، بل كان المشهد الختامي لتراثي إنسانية طويلة قوامها الغطرسة. حينها تحول الكوكب إلى مصنع هائل ينتاج الموت البطيء. التصق الغلاف الجوي برداء خانق من الميثان وثاني أكسيد الكربون، وتحولت المحيطات إلى مستنقعات سُموم، بينما صارت الغابات رماداً تحت نيران لم تخمد لعقود.

وفي خضم هذا الخراب، لم تكتف الدول العظمى بأن ترك الطبيعة تموت ببطء، بل قررت أن تذبحها ذبحاً. أطلقت أسلحة مناخية خفية، صنعت عواصف مُفعلة وزلازل مُختلقة، وأغرقت مدناً بأكملها بضغطة زر. خرجت التجارب عن السيطرة، فاختلت موازين الأرض، وصارت الفصول كوايس متصلة لا تنتهي.

غير أن الكارثة الكبرى جاءت من مشروع سري عُرف باسم عين الإله: سلاح نووي مداري قادر على إصابة أي نقطة في العالم خلال ثوانٍ معدودة. لم تسر التجربة الأولى كما أريد لها، فانفجر الجهاز في أطراف الغلاف الجوي. وهنا وقع الانضطراب المغناطيسي الذي زعزع توازن حزام الكويكبات القريب، فانجذبت النيازك إلى الأرض انجداباً جنوبياً.

سقط أولها في قلب المحيط الهدى، فارتفع تسونامي عظيم التهم السواحل. تبعه نيزك ثانٍ في آسيا الوسطى، أشعل نيراناً بمساحة دول. ثم جاءت الضربة الأشد، حين احترق نيزكٌ ضخمٌ صحراء شمال أفريقيا، فأطلق سحابة قاتمة غلت نصف الأرض، وأزاحت الكوكب قليلاً عن موقعه، مبتعداً عن شمسه.

في أسابيع قليلة غرق العالم في غرق أبيدي، وانحدرت الحرارة حدّ التجمد، وانكسرت الزراعة، فعمت المجاعة. الناجون لم ينجوا بآنسانيتهم، بل بذبحها.

لكن الدمار المادي لم يكن أسوأ ما حصل. فقد حملت النيازك جسيمات غريبة لم تعرفها الأرض من قبل، فانطلقت الطفرات العشوائية: صارت النباتات بحجم الدببة، وظهرت تفريز سُموماً لم ثرصد قط. وحتى البشر لم يسلموا، إذ شهدوا موئي ينهضون من قبورهم، وعقولاً تهار، وأجساداً تتحول إلى وحوش لا تعرف الرحمة. العدوى تتنقل باللمس، والمأوى الآمن صار محض وهم.

وفي قلب الفوضى انقسم الناجون إلى أربع قبائل، كلٌ منها احتوى بملاذ آخر:

قبيلة النار بين البراكين الخامدة.

قبيلة الرياح في الجبال الشاهقة.

قبيلة الظلال وسط الصحراء السوداء.

قبيلة الماء عند الأنهر المتغيرة.

وفي كل قبيلة ولد قائد حمل لقب الحوت؛ لا بصفته سيّداً فقط، بل حارساً للبقاء في عالم لم يُعد يعترف بالضعفاء.

---

## (( الفصل الأول طعنة من الخلف ))

نأتي في البداية مع قبيلة النار هي قبيلة نائية تطوقها الجبال البركانية الهامنة من كل صوب موثوقة في كتف الرماد منذ دهرٍ طويل يعتليها سورٌ محيب لا يحمل فقط صفة التحصين، بل درعٌ سريٌ يحميها من مؤشرات لا يُسمح بذكرها.

خلف هذا السور، تتنصب مباني شاهقة، بعضها منسق بدقة هندسية صارمة، لأنّ من بناءها كان يحسب الأنفاس، بينما تناهت الأخرى بعشوانية.

في قلب هذه الفوضى المنظمة، تتشعب طرق ملتوية وتنساب المسالك بين الصخور الداجية كأنّها ندوب غائرة في جسد الأرض وفي الأفق يبرز قصر الحوت الأحمر شامخاً فوق هضبة بازلتية.

في هذا القصر العتيق وداخل قاعة العرش اختلط وهج المشاعل الصاعدة بظلّال الأعمدة السامة، فسكن على القاعة مهابةً تcum الهمس وتكسر جرأة الأبصار هناك يتربع الحوت الأحمر ملك قبيلة النار، على عرشه الذي لم يُصنَع من ذهب أو حجر، بل من عظام الكائنات التي فتك بها بيده فلن طقوس هذا الملك أن يحفظ بعظام من يقتله من الوحوش، لا كتذكار، بل كجزء من مجده.

كان في أواسط عقدة الخامس غير أن ملامحه لم تحمل آثار السنين محياء صلدا  
اللامع فلم تعرف ملامحه رخاؤه ولا وهنها، بشرته متينة ثوحي بجلد لا يفل. عيناه  
سوداوان عميقتان، كأنهما بئر مظلمة تستدرج من يحذق فيها. قامته تقارب المترین  
لكن العضمة في شخصه لم تكن بالطول، بل بما يبعشه حضوره من رهبة تح مد الهمس  
وثكم الأفواه. يجلله رداء أسود تخلله خطوط حمراء قانية، ينساب حول جسده  
فيزيده محابة قليل الكلام، غير أن صمته أبلغ من الخطب، وإذا نطق جفت  
الأحاديث، وانطفأت القصص قبل أن تولد على الشفاه.

اقرب أحد الحراس يدعى قديش يرتدي درعاً بلون النحاس، وقناع استنشاق  
تتدلى منه أنايبيب ينساب منها بخار خفيف.

انحنى باحترام، ثم رفع قناعه:

— مولاي الحوت راقت قبيلة الماء عن كعب كما أمرتني، لقد رأيتم يكدون تحت  
حرارة الشمس التي صنعواها يحاولون إعادة الأرض الميتة إلى الحياة. ولقد مررت  
أعوام من العمل الشاق والليوم ..... رفع عينه لينظر إلى الحوت ثم اردف:

اليوم يحصدون ثمار جهدهم لأول مرة.

أنهى حديثه بينما ظل يراقب سيده الذي ابتسم من كلماته رفع قناعه هو الآخر فكشف عن وجهه المتجمد، ثم مد يده إلى الأمام وكأنه يسحق شيئاً لا يراه أحد، بينما كانت عيناه تلمعان بمحقق يكشفه قوله :

— خذ جنداً من التيران وهاجمهم في اللحظة التي ينتهي فيها من حصادهم. لا ترك لهم شيئاً خذ الغلال، الأدوات حتى القنات التي لا قيمة لها.

ثم أردادت نبرته قسوةً :

— لكن قبل أن تشرع في ذلك، اسحقهم حتى تصير عظامهم غباراً، واجعل صرختهم الأخيرة وسماً يعرف به كل من تحدى الحوت الأحمر أن مصيره موٌت لا رحمة فيه.

اخنى الحارس بخضوع، ثم همس بتمجيل وهو يضع يده على صدره:

— أمرك ... وضع قناعه مره أخرى و استدار ليخرج من القاعة. بعد قليل قطعت الصمت خطوات بطئه ارددت دخول أرمغان، رجلٌ هرم لا يبدو أنه ينتهي للحاضر. خطاه مرتجفة، يتکع على عصا من خشب مسوس يطل من عيناه ضوءٌ باهت، كأنها لا ثُبُرَان، بل تتذكّران.

اقترب ... ببطء بينما جسده ينحني أكثر مع كل حركة لكن نظراته ظلت مستقيمة، لا تنزل عن وجهه جلמוד عيناه حملتا شيئاً بين الشك والرجاء... أو ربما بين الخوف والنفور.

وعندما وقف أخيراً على بعد أنفاس، نزع قناع التنفس، وبصوته واهن قال:

—رأيَتْ رجالاً يرُكُون العربات، فأين أمرهم أن يذهبوا.

ضحك الحوت الأحمر ضحكة خافتة، ونظر إلى العجوز نظرة مليئة بالقصوة وقال:

—إلى حيث يجب أن يذهبوا، هناك سيجدون الدماء وينبشوون الموت الذي سيقودهم لسعي وراء الفوضى، فيقتلوا وينهبو كل شيء في طريقهم.

ثم أضاف :

—هذه ستكون طريقتنا من اليوم وهذا سيكون قدر قبيلتنا.

رفع أرمغان رأسه، وترك الهواء البارد يلامس وجهه المتجمد ثم قال وهو ينظر في عيني جلمود:

—ولماذا تفعل ذلك يا بني؟

قطّب جلمود حاجبيه واشتد غضبه وهو يقول:

—لأنه لا شيء سيعطينا القوة سوى الموت، القتل هو مصلحة لنا فكلما قلل العدد زادت الموارد، وكلما زاد العدد كان العكس صحيح .

تهد أرمغان، وهر رأسه بأسف قائلاً:

—أنا وزيرك ومن واجبي أن أمنعك عن هذا.

هز جلمود رأسه ضاحكاً ، ثم ثبت قناعه بسرعة ليأخذ نفساً عميقاً قبل أن يعيده:  
\_ تعلم يا أرمغان، أنا أحبك لكن ليس لأنك وزيري، أحبك لأنك من ربيتي  
وكنت معي عندما كنت تائماً بعد ذهاب أبي إلى "نيورا" ، لكن هذا لا يعني أنك  
ستتحكم بي... فلا تنس أنا الآن الحوت الأحمر ولن يملي علي أحد ما أفعله.

ضغط أرمغان على صدره بألم محاولاً أن يمسك ببقايا قوته:

لكن هذا يجعلني المسؤول حين قبلت منصبي فعلت ذلك لخدمة قبيلة النار،  
وليس لأن أكون مجرد شاهد على الخراب الذي تزرعه. ألا ترى أنك تفعل ما عجز  
عنه أسلافنا، وتكمل مسيرتهم في تدمير البشرية، ألا ترى هذا؟

حدق جلمود في الأرض للحظات ثم رفع رأسه ونظر إلى أرمغان مباشرةً، وهدوء  
غير متوقع قال:

ـ سأطيع أمرك وسأجعل الجنود يعودون ثم سأتحالف مع الحوت الأزرق إن كان  
هذا ما يرضيك.

توقفت أنفاس أرمغان لثواني مصدوماً من استسلام جلمود المفاجع... حتى أضاف  
جلמוד:

ـ هذا ليس شيئاً في سبيل إرضائك ...

وبطريقة غير متوقعة تداني من الوزير، ومد يده نحوه. أرمغان رغم دهشته استجاب له فأعطاه يده ليتفاجأ بتلك القبلة التي وضعها جلمود عليها وبعدها جذبه إلى حضنه، كان المشهد يحمل طيفاً من الحنان لكن في قلب جلمود كان هناك شيء آخر يتختـر.

لم يكن سوى دقيقة وبعدها أخرج جلمود من طيات عباءته خنجرًا حادًا ولاما... وبينما لا يزال أرمغان في غمرة العناق عُرِّزَ الحنجر في قفاه ببطء شديد... شعر أرمغان بشيء بارد يخترق لحمه وسرت قشعريرة قاتلة في جسده. حدقت عيناه في الفراغ ثم اتسعتا من الذهول والخيانة، بدأ الدم يسيل من رقبته دافئاً وثقيلًا ثم خرج من فمه بغزاره حتى انه ملئ قناعه الخاص وحين اوى أن يسقط امسكه بين ذراعيه... وهس في أذنه بينما دموعه الساخنة تنزلق على وجهه:

—أنت من ربتي، لكن هذا لا يعطيك الحق في مخالفـة إرادتي..

ثم بصوت أكثر خفوتاً يحطم به آخر رابط كان يربطه بإنسانيته:

—والآن وداعاً يا أبي.

في لحظة مفاجئة، فقدت ساقاً أرمغان قوتها وسقط على الأرض. الدم أحاط به كبركة قاتمة يصرخ من عذابه لكنه كان يعلم أن لا شيء سيتغير.

أما جلمود فوقه ينظر إليه بنظرة تحمل مزيجاً من الحزن العميق والسعادة المشوهة، كأنه في تلك اللحظة لم يعد بشرًا بل صار شيئاً آخر، شيئاً ابتلع كل ما تبقى فيه من رحمة.

---

لم يكن لأرمغان قبل مصرعه أمنية إلا أن يصعد جلمود عن بسط يده على مزرعة المرح غير أن المرح مزرعة المرح ليست مزرعة بالشكل المألوف إنها تقع تحت قبة زجاجية يتشابك فيها أوتار معدنية متشابكة موصله بإضافة اسموها الشمس الاصطناعية. تعمل من خلال اشعال موقد فحم.

في تلك المزرعة كانت الحياة تسير، فهم يحاولون خلق شمس جديدة في عالم فقد شمسه الحقيقة، الهواء هناك يتحرك بفضل أنايبيب بدائية، والماء يأتي بعد تبخيره وتكريره من المستنقعات العفنة

كل شيء يعتمد على جهود البشر، و العرق الذي يسيل من جماههم. داخل هذا الزجاج كان الهواء تقيناً مما جعل العمال غير مضطرين لوضع أقنعتهم وهم في الداخل... تقتد القبة على مساحة تزيد عن عشرين فداناً، وتنفصل بينها وبين قبيلة الماء مسافة تبلغ ثلاثة متر.

في هذا الوقت وقف صهصام، مسكاً بمنجله يقطع السنابل الجافة واحدة تلو الأخرى، يحارب به الماضي ليصنع مستقبلاً ما. هناك لم يكن العمل خياراً، بل

ضرورة، فلم يكن أحد هناك يحظى بالراحة حتى الآلات البدائية التي تعمل بجهدون لم تُعطِ لحظة هدنة.

رفع أحد العمال رأسه، وقد أتقل ظهره شوال ضخم من المحصول، ثم قال محاولاً تشجيعهم:

ـ هي يا رجال فلم يتبق إلا القليل، يوم آخر يمضي وسيهد ليوم جديد. لكن رجلاً آخر بالكاد يقوى على رفع يده نظر إلى صمصام بتrepid ثم قال:

ـ سيد صمصام لا أريد إهانتك ولكنك عزيز علي العمل معنا، ارجوك ارتع قليلاً ودعنا نكمل عنك .

نظر إليه صمصام ثم التفت إلى البقية:

ـ اعملوا يا رجال ، فإن الأرض لا تميز بين من يحرثها ومن يتغافل عنها، ونحن جميعاً هنا لسبب واحد لأجل هذه الأرض، ولأجل أن نبقى أحياء ولن نرتاح حتى نخصل ما زرعناه.

في النصف الآخر من المزرعة يوجد قطعة أرض يتم إنشاؤها للموسم الجديد. هناك تتبع أصوات الأدوات وهي تضرب الأرض وتتغلغل في الطين صانعةً أخدود عميق في التربة الهزيلة.

كانت الحيوانات الجائعة تشدّ الحرات بتناقل تكافٍ مثل البشر للبقاء بينما البكرات تدور فوق الآبار البدائية تحجب الماء النقي المتكتّف بعد أن صعد كخارٍ من فرن التبخير. لكن بعيداً عن تلك المزرعة في العتمة التي لم يصلها ضوء الشمس الصناعية هناك أعين تترصد كل شيء، فرجال قبيلة النار موهون في الضلال على رأسهم المبعوث من قبل جلمود الذي همس لهم: اخضوا رؤوسكم حتى يتّهون...

---

تتدبر المكائد باسم الحوت الأحمر الذي لم يكن يبالى بأي شيء، يبعث رجاله لنهب والسرقة ، بينما هو في غرفة الطعام، حيث استقر على الطاولة يمسك بملعقة ضخمة، ليخوض بها معركة ضد الجوع.

بدأ يعرف الطعام بشغف يدفعه إلى فمه وكأنه يخشى أن يُنزع منه الطبق في أي لحظة.

بعد فترة قصيرة، دخلت زوجته، امرأة فاتنة وجهها يزدان بملامح ناعمة كأنها صبغت من نسيم الفجر، وشعرها الداكن ينساب على كتفيها انسياب السيل في حضن الوادي. عيناهَا واسعتان تشعلان كبريق الزمرد.

بعد قليل أخرجت من يدها بعض الأعشاب ووضعتها على مبخرة في وسط الطاولة ثم أزالت قناعها عن وجهها واستنشقت هواء الغرفة، وكأن الأعشاب المحتقة قد حررت المكان من التلوث.

ثم جلست بالكرسي الذي بجانبه بينما هو يجلس في المقدمة ،كانت أناملها تقر بخفة على الطاولة، تحاول مقاومة رغبتها في الحديث. نظرتها حملت مزيجاً من الحيرة والانزعاج، حاولت أن تتحكم في مشاعرها فقالت بنبرة لطيفة:

ـ تأني على نفسك يا حبيبي الطعام لن يترك ويرحل ..

ـ أنت زوجة الحوت الأحمر فمن واجبك اعاتي على الاهتمام بجسدي.

دلقت ابنته سمراء هي امرأة في العشرينات من عمرها ذات بشرة قمية وعيينين سوداويتين، بينما شعرها بني داكن طويل يتسلل على جانب وجهها كأنها تخفي نفسها خلفه. ترتدي ثوبًا فضفاضًا يذكر بملابس القرويين في عصور الازدهار، وتتنين بمعطف مصنوع من جلد حيوان تضعه على كتفيها من البرد، وضعفت المعطف بجانها بعد ان خلعته ، ثم اراحت القناع عن وجهها وقالت:

ـ دعي أبي يأكل كما يريد..... أمسك جلمود قطعة من اللحم بيده وقال وهو يبتسم:

ـ استمتعي يا راجحة إلى سمراء عليك تتعلمي منها العطف على زوجك.

ـ ضحكت راجحة وقالت:

ـ الآخر أنا منها وأترك السعيد في سعادته، ولكن تذكر ابنتك لن تبقى لك، ستأتي يوماً وتتزوج وأنا من سأبقى ولنرى حينها من سيدافع عنك مني .

ردت سمراء بابتسمة ساخرة:

— ومن قال إني سأتزوج ؟ أنا سأظل أدفع عن أبي منك ولن أذهب .

قال جلمود:

— كل فتاة يأتي وقتها وتتزوج، صحيح أن هذا قد يؤلمي، ولكنني سأكون سعيداً عندما أرى أطفالكِ.

قطعته رابحة بحدة والقلق يعتلي وجهها:

— أين أبي ؟ لم أره منذ الصباح .

ابتلع جلمود ما في فمه من طعام:

— لقد ذهب لعقد الصلح من جديد، أرمغان لن يصمت حتى يقتله الحوت الأزرق.

(رابحة)

— والدي يريد السلام، أم تريده من تبقى من البشر يقتلوا ويصير العالم في فراغ، أكثر مما يحمله.

ابتسم جلمود ثم قام على كسيه بعد أن مسح يديه، ثم اقترب من سمراء وانحنى ليطبع قبلة على رأسها:

— من قال إن العالم سيقى فارغاً ؟ ... ابنتنا سمراء ستتزوج وتقلوه لنا ..

غضبت سمراء تاركَهَ الطعام من يدها وقالت:

ماذا بك؟

(أرمغان)

ماذا يي ؟؟؟ لماذا كل هذا الغضب؟

تدخلت راجحة:

أنت تعلم أنها لا تطيق، ابن أخيك وأنت لا تمل من إلحاحك عليها، والآن تأتي بالألغاز لتفتح قلبها، هي ليست جاهلة.

(أرمغان)

أنا أعلم دهاء ابنتي جيداً، كما أعلم ما يسعدها وما يسعد أيها وستقبل بقولي في النهاية، فانا أرى في نفيل الصلابة وأرى انه من سيكون الحوت بعدى.

نظرت سمراء إليه بغضب مكبوت:

لكني لا أحبه.

(أرمغان)

لا أطلب أن تحبيه الآن، تزوجيه واحبيه .

(سماء)

ـ وإن لم استطع ؟

(أرغان)

ـ وإن لم تستطعي تزوجيه فقط لا بهم.

لم تتحمل سماء حديثه ، خرجت مندفعه من الغرفة بينما دموعها الدافئة تسيل على وجهها الغاضب.

تفوهت راجحة وهي تتبع ابنتها بنظرات مليئة بالأسى :

ـ لن تتغير أبداً جلمود هو جلمود... ثم ذهبت خلف سماء تاركة جلمود وحده، الذي جلس مرة أخرى، غير مكترث يأكل بشهه وكان شيئاً لم يكن.

وقفت راجحة أمام باب غرفة سماء وطرقت الباب متمتمة بصوت مسموع :

ـ افتحي الباب يا عزيزتي هذه أنا..

ففتحت سماء بتrepid ، وما إن رأت راجحة حتى ارتفت بين ذراعيها تبكي بحرقة.

ريتت راجحة على شعرها بلطف ، بعدها توجهت نحو مبخره موجوده أمام مرآة والقت فيها بعض الاعشاب ، ثم التفت إليها :

لا تكوني هكذا، اهدي، مجرد حديث بسيط بينك وبين والدك يستحق كل هذا البكاء.

رفعت سمراء وجهها الغارق بالدموع وقالت بصوت متهدج:

يفترض أن تعرفيه أكثر مني، عندما يقول شيئاً لا أحد يستطيع أن يرده، وأنا لا أريد أن أتزوج من قليل إنه غليظ القلب أكرهه! هل تسمعيني؟ أكرهه! كيف يرضي أبي أن يجبرني على طريق أسلكه طوال حياتي؟

مسحت رابحة الدموع من وجه سمراء لتكمل:

هذا الزواج لن يتم، ولكن اهدي ولا داعي لكل هذا القلق.

سكتت سمراء لثواني ثم قالت:

أريد الذهاب إلى غابة نيمورا فأنما أريد أن أرى جدتي وأنتحدث معها.

(رابحة)

قد يكون الأمر صعباً في الوضع الحالي ولكن سأحاول التحدث مع جلمود بهذا الشأن.

مسحت سمراء دموعها واستعادت هدوءها قليلاً بينما استمرت رابحة بجانبها تحاول طمأنتها.

---

## ((الفصل الثاني: حصاد الهلاك))

الوضع كان طبيعياً داخل مزرعة المرح، تجمع العمال حول العربات القدية ليدفعوها عبر الأرض الطينية، بينما العرق يتصلب من جيابهم ويترنح بغير الحصاد.

تحرك صهصام وسط العمال، كان يمسح جبينه المترعرق وهو ينادي بحماس: — لم يتبقّ سوى القليل يا رجال... فاحملوا الغلال وأدخلوها إلى العربات ولتتوجه بها إلى قبيلة الماء لنملئ المخازن.

ابتسم أحد العمال وهو يرفع كيساً ممتلئاً فوق كتفه وقال: — أنا لا أصدق هذا، لأول مرة في حياتي سأذوق القمح! لقد تعبت معدتي من دود الرشائق وحلزونات التفل.

قاطعه آخر بحماسة وهو يرثي على كتف زميله: — اليوم يوم عيد الرقص والغناء سيعمم حتى الصباح... السيد صهصام فعل ما ظنناه مستحيل.

ثم التفت واردد بصوت مرتفع  
يعيش السيد صهصام.....

تعالت الهتافات مع صوته وبدأ العمال يهاللون، يرعنون الأكياس وينذكون اسم  
صحاص بفخر، وكأنهم يحتفلون بالنصر بعد سنوات من الجوع والكدر.

في الجانب الآخر جلسن بعض النساء يغرين الغلال، ينقينها من الشوائب وهنّ  
يرددن أغنية قديمة بنغمة متناسقة:

(( الشبع غنم والجوع زعزع... والخالي مخلاه لا صبر يسلام ))

الفرحة ملأت الوجوه، والعيون اغزورقت بدمع لم تكن من حزن بل من سعادة  
خالصة كأنهم وجدوا حياءً بعد انعدامها.

ذلك اليوم كانت الفرحة تنبض كأنها وعدٌ جديد وعد بعهدٍ ينهي هذه الوحشية عهد  
يجمل الأمان والطعام ويعيد لهم إنسانيتهم المسروقة.

لكن أي وعد؟ وأي إنسانية ثرجى والحوت الأحمر يعلم بكل هذا؟

زحف جنود الحوت الأحمر حول مدخل القبة بصمتٍ مرئيٍ مثل الجراد الذي أتى  
لنهاش المحصول.

حين خرجت العربات الحملة بالغلال، والعمال خلفها يخرجون واحداً تلو الآخر  
يضعون الكمامات على وجوههم ويعاقون بعضهم بفتح شديد.

صاح وقتها قنديش، قائد الجنود الحمر بصوتٍ جاف :

اهجموا على هؤلاء الجرذان.

انطلقت أعيرة نارية من الأسلحة البدعية التي يحملونها فانفجرت الرصاصات في كل اتجاه فأردت العمال واحداً تلو الآخر. صرخات الغوث مزقت السماء بينما اختلط الدم بأشولة القمح ليصبح الحلم وليمة للخراب.

حاول العمال الهروب فتراجعوا داخل المزرعة لكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين. فقد تدافع الجنود إلى داخل القبة كالسيل الجارف.

صرخ قنديش بقسوة أشد:

استنزفوا ذخيرتكم بالكامل وبعدها اجعلوا السيوف تعمل في أجسادهم.

تحول المشهد إلى مجردة، الجنود يذبحون الجميع بلا رحمة يقتضون كل من تحرك وحتى من لم يتحرك.

من المشاهد الوحشية امسك الجنود أحد العمال وازالوا كمامته ثم غرسوا سيفاً في حلقه بقوه حتى اخترق أسفل ظهره. آخرون فتحت بطونهم وأخرجت أحشاءهم أمام أعين من تبقى حياً ليشهدوا رعب النهاية.

لم يكفيهم هذا فقاموا بإشعال نار داخل حفرة جُهزت خصيصاً لهذا المشهد كانوا يلقون فيها الأجساد دون أي شفقة أو رحمة.

حتى النساء لم يسلمن فمن حاولن الهرب جُرِّت رؤوسهن بوحشية وسط صرخات العجز.

رغم كل هذا شهد العدو صمصام وقفًا وحده، كالوحش الذي استيقظ من السبات.

ضرب الأرض بيده العارية فأحدث دويًا كالرعد، ثم أمسك منجله وانطلق كالثور الهائج، كل ضربة منه تُسقط رجلاً تمزق لحمة وتسفك دمًا. قطع رقباً، شق صدورًا حتى غمره الدم ولم يعد يميز لون جلده من لون الدماء. ركض جندي من النار محاول التصدي له لكن منجله طار برأسه في الهواء ليسقط جسده بلا حياة. حينها صرخ قنديش وهو يرى رجاله يتلقون:

—قيدوه... فانا لا أريده أن يقتل كل رجالي.

التي جنديان حبلاً سميكة عليه فالتفت حول قدميه وكثيفه لكنه كان كالنهد يضرب الأرض بقوة ولا يتوقف. حاول أحدهم طعنها، لكن قنديش أوقفه بإشارة باردة فُسرت من قوله:

— هذا ليس مجرد عامل، إنه صمصام ابن الحوت الأزرق، وانا لن أضحي به فحين سيكون هدية قيمة للحوت الأخر.

جره الجنود على الأرض بقوه لكن لسانه لم يتوقف عن لعن قنديش وأتباعه.

وَقْهَا اقترب قنديش منه ثم رمّه بنظرة متهكمة و مر أصابعه على وجهه المدمى  
همس بازدراء:

لَا تستعجل الموت أليها الكلب، سأقتلك ولكن بعد أن نأخذ ما نريد منك.

نفض صمّاص رأسه بعنف ليتفاجأ قنديش بعدها بتلك البصقة الملطخة بالدماء  
على وجهه:

إنك كالبقي في الظلام، تهجم على من لا يستطيع الدفاع عن نفسه، هاجمت  
الضعفاء والعزل يا خنزير! أقسم بدماء إخوتي سأقتلك وسأروي يدي بدمك  
الجس!

مسح قنديش وجهه ثم قهقهه قهقهة باردة:

تتحدث عن الشجاعة وأنت مكبل تو تو يا مسكون. تحدث كما تشاء، فالكلمات  
لا تنقذ امثالك... ولكن حان وقت صمتك.

أشار بإصبعه لجنديان فتقدما، وأنقوا يدي صمّاص وقدميه بالسلسل وكأنهم  
يربطون حيوان اصابعه الصغار، بعدها دفعوه بقوة إلى داخل قفص حديدي ضيق  
بالكاد يتسع له وأغلقوا الباب بإحكام ثم ألقوا القفص في عربة صدئة مخصصة لنقل  
البضائع، وسط كل هذا ظل يصرخ:

أحلوا قيودي وواجهوني كرجال.

ثبت قنديش أمام القفص:

لا تستعجل فلن يمر وقت طویل قبل أن نرى جثتك ملقاة في العراء، وحينها لن  
يعرف أحد من تكون يا ابن الحوت..

اقرب فرد من الجنود، وأمسك رأس صهاصم من بين قضبان القفص ووضع على  
وجهه قناع الاستنشاق بعنف حتى يُقيمه على قيد الحياة، إذ لا أحد يستطيع تحمل  
هواء الخارج لأكثر من نصف ساعة وإن زاد الوقت عن ذلك مات المتنفس من  
الاختناق.

ابتسم قنديش بسخرية وهو يرى صهاصم يحاول دفع القناع عنه دون جدوى:

لن أدعك تموت بسهولة.

ثم أدار ظهره وأمر بتحريك العربة:

بينما كانت العربة تبتعد نظر صهاصم حوله بعينين مثقلتين بالدموع يتأمل المزرعة التي  
كانت قبل لحظات مليئة بالفرح والغناء، باتت الآن مجرد ركام من الأجساد المحترقة.

همس بين أقاسه المتقطعة:

لَمْ لَمْ أَمْتْ مَعْهُمْ؟

ولجت راجحة إلى جلمود الذي كان جالساً على كرسي هزار أمام مدفأة قد ألقى فيها بعض الأعشاب لتنقية الهواء، و فيها كان الدخان يتصاعد ببطء، ناسراً رائحة لاذعة لكنها مألوفة في هذا القصر اقتربت منه بحذر، و بنبرة اضطراب مدفونة قالت:

ـ عزيزي أردت أخبرك بشيء هام.

نظر إليها بعينين ضيقتين وقال بشك:

ـ ما هو؟

(راجحة بتوتر)

ـ سمراء تريد الذهاب إلى جدتها زهيرة.

انتفض جلمود من مكانه:

ـ هل جنت يا امرأة؟ تريدين مني أن أرسل ابنتي لتسجيل وسط هذا الخطر مع اناك تعلمين جيداً أن أعدائي يتربصون أي فرصة لإسقاطي.

(راجحة)

ـ أفهم مخاوفك لكن يمكننا إرسال حراس موثوقين لحمايتها فلقد اشتاقت سمراء لجدتها كثيراً وهذه الزيارة ستشخف عنها.

توقفت قليلاً، ثم أكملت بنبرة خبيثة:

— وربما تكون فرصة لإقناعها بفكرة الزواج من نفيل... أملك وحدها تعرف كيف  
تنفعها.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي جلمود:

أحـقـا تظـلـينـ أـنـ أـمـيـ قـادـرـةـ عـلـىـ ذـلـكـ؟

ضـحـكتـ بـخـفـةـ وـهـيـ تـرـرـ يـدـهـاـ عـلـىـ شـعـرـهـاـ بـيـطـءـ:

أـقـنـعـتـنـيـ أـنـاـ بـالـزـوـاجـ مـنـ اـبـنـاـ الـتـورـ فـلـاـ أـظـلـنـ أـنـ إـقـنـاعـ سـمـراءـ سـيـكـونـ أـصـعـبـ  
كـثـيرـاـ.

تـجـهـمـ وـجـهـ وـنـظـرـ إـلـيـهـ بـحـدـةـ:

مـاـ الـذـيـ تـعـنـيـنـهـ بـهـذـاـ الـكـلـامـ؟

أـجـابـتـ:

لـاـ شـيءـ فـقـطـ تـذـكـيرـ بـسـيـطـ بـمـدىـ نـفـوذـ وـالـتـكـ.

صـحتـ لـبـرـهـةـ،ـ ثـمـ جـلـسـ مـنـ جـدـيدـ أـمـامـ النـارـ يـفـكـرـ لـيـقـولـ بـعـدـ وـقـتـ قـلـيلـ:

إـنـاـ مـوـافـقـ أـنـ تـذـهـبـ،ـ عـلـهـاـ تـرـضـيـ الزـوـاجـ مـنـ نـفـيلـ ...

---

يسكن نفيل على بعد امتار في المنزل المجاور للقصر، هناك خرج بجسده الضخم  
وعيونه البنية القاتمة التي يكسوها عروق من الدماء كما يمتد أثر خنجر قديم عبر

ووجهه، يرتدي بنطالة من الجينز الممزق ، يغطي كتفيه قطعة من جلد حيوان مدبوغ بينما وصل طوله الى ١٩٥ سنتيمتر كان يتسلك في خطواته حتى اقترب من القصر بالداخل صادف سمراء التي اصطدم بها عمدًا، ثبتت عينيه في عينيها ثم أزال قناع الاستنشاق عن وجهه، واستنشق رائحة شعرها:

ـ صباح الخير ... ثم اخذ نفس آخر وأردد:

ـ رائحة شعرك تشبه جمالك..

ردت بشمئاز:

ـ وأنت راحتلك تشبه القبح الذي يخرج منك.

ابتسم بغرور:

ـ من الواجب أن تتبعودي على تلك الرائحة لأنها ستكون جزءاً من حياتك... قريباً جداً...لأنني سأصبح زوجك.

نظرت إليه باحتقار وقالت وهي تتقدم خطوة للأمام:

ـ إنه حلم وما أجمل أن أراك تحلم ثم أصدقك بالواقع.

مضت وهي تغلي من الغضب تاركة فليل يحدق فيها بابتسامة ملتوية.

ـ ثم همس لنفسة:

طر يا طير واسقط بين يدي، لو سقطت بيد غيري لقتله بيدي، ثم استدار  
ودلل الى غرفة العرش .

ارتفع بصوتٍ جهوري، حين نظر الى الحوت الأحمر وهو يعتلى العرش في شموخ:  
الحوت الأحمر قائد قبيلة النار، ومعذب الأرواح، الرجل الذي أفتخر به  
وأنشرف بأن أكون ابن أخيه!

ضحك جلمود بصوت عالي وقال:

تعرف كيف تأكل عقل عمك، اجلس يا بني.

جلس نفيل ثم مال بجسده نحو جلمود:

ولكن يا عمي ألم تعدني بالزواج من سمراء، فلما هي تعاملني بتلك الطريقة؟ لقد..

رد جلمود بغضب وهو يرفع يده ليقطع حديثه:

ـ دعك من هذا قلت لك ستتزوجها وستتزوجها، أنا لا أكرر كلامي.. تابع وهو يغير  
الموضوع:

ـ ما أخبار قبيلة الهواء؟

قام نفيل من مكانه ثم تحرك في القاعة واخذ حفنه من الاعشاب الموضوعة في كل  
مكان، ثم القى بها في النار واستنشق رائحتها بعمق:

علمت من جواسيسه أن نساء قبيلة الهواء ينزلن من الجبال ويتجلون في المدن التي ضربتها النيازك واجتاحتها الغابات. إنهم يبحثن بكل الطرق عن مخازن الأسلحة التي تركها أسلافنا، تلك المرأة كارمن الملقبة بالحوت الأبيض لا تترك فرصة لتفوته قبيلتها فهي تريد أن تستعد بكل الوسائل الممكنة.

ثم تابع بصوت منخفض:

ـ هذا لا يمنع انهن يدفعن ثمناً باهظاً، ففي كل رحلة بحث نصف الجنادس المبعوثات او أكثر يلقون حتفهم. بعضهم يئتمن بأنيات الحيوانات البرية، والبعض الآخر ينهش من عناكب الصداح السامة او يلتهمون من قبل نمل البير الجائع ومن سلم منهم كان وجده للأحياء الأموات، ومع ذلك يا عمي لا يمكنني أن أنكر أنتي أخشت شيئاً واحداً...

توقف لحظة وهو ينظر إلى جلمود ثم اردد ...أخشتى أن تعثر كارمن على ما تبحث عنه، لأنها إن وجدت تلك الأسلحة فلن تستطيع اي قبيلة الوقوف في وجه قبيلتها ، حينها ستتصبح الحوت الأبيض تهديداً حقيقياً وربما يكون أصعب ما واجهته قبيلتنا منذ أجيال.

(جلمود)

ولهذا علينا أن تكون دائماً في موقع أقوى، أرسل المزيد من الموجايس فيجب أن تعرف أعيننا كل تحركات كارمن لكي نسبقها دائماً بخطوة .

فجأة استأذن أحد الحراس بسرعة وانحنى باحترام ثم قال بصوت لاهث:

مولاي الحوت وصل قنديش.

استقام جلמוד، ودون كلمة أخرى ثبت قناعه وخرج من القاعة، تبعة نقيل بخطوات سريعة ليتفاجأ لاحقاً بأن امام بوابة القصر، عربات محملة بالغلال مصطفة اسرت ناظريه.

حدق نقيل في العربات مبتسمًا بسخرية وقال بعد ان اراح القناع عن وجهه:

ما هذا يا عمي؟ هل قررت أن تبدأ حياة الزراعة والمحصاد؟

ضحك جلמוד بصوت مرتفع وقال:

امتع عيناك بمحصول قبيلة الماء... كان يظن الحوت الأزرق أن بإمكانه الزراعة والمحصاد دون أن ادنس يدى بما يملكه.

ثم التفت إلى قنديش بابتسامة رضا وقال:

احسنت صنعاً هيا آمّر الجنود بإدخال الغلال إلى الخازن، وسأكافئك على هذا قريباً

لكن قنديش لم يُحب على قول مولاه ، بل وقف ثابتاً يعتليه الفخر:  
\_ سيدى هناك شيء قد يهمك أكثر من الغلال.

رفع جلمود حاجبه وسأله بشك :  
\_ وما هو هذا الشيء ؟

أشار قنديش بيده إلى العريبة المستوره بالقماش فتدنى جلمود منها ثم أزاح الغطاء  
ببطء، اتسعت عيناه من الدهشة عندما وجد صمصم مكبل داخل القفص.  
ابتسم ابتسامة واسعة ثم التفت الى قنديش سالاً :

ما الذي يفعله ابن الحوت الأزرق هنا ؟

اجاب قنديش:

— وجدناه مع العمال في الحقول، الحق يقال لم يكن يحمل سوى منجل، لكن هذا  
لم يمنعه من القتال بشراسة. قتل عشر من رجالنا قبل أن نتمكن من إسقاشه، كان  
أشبه بوحش هائج لكن الأعداد كانت لصالحنا.

ضحك جلمود بصوت عالي من صدمته وقال بسخرية وهو يلتفت الى صمصم:

— عشر رجال هو قتل عشر رجال بمنجل، ومن أجل ماذا من أجل حفنه من  
سنابل قمح ؟ ييدو أن الحوت الأزرق يربى أبناءه على الغباء أو الشجاعة الزائدة !

أمال جلمود رأسه بقديمة الصندوق ليصبح وجهه قريباً من وجه صمصم:

ـ أخبرني يا ابن الحوت الأزرق، هل الحقول تستحق كل هذا الدم ؟

نظر اليه بعينين ضيقتين ليتابع بجثث:

ـ اعذرني لم أزح قناعك.

مد يده من بين الحديد ونزع قناع صمصم:

ـ تحدث الآن.

(صمصم)

ـ الحقول التي دافعت عنها أشرف منك ومن رجالك.... يا سيد الخراب.

ـ أنتزح حقاً ؟ قال جلمود وهو ينظر إلى جنوده ضاحكاً:

ـ لم تستوعبوا المزحة ؟ لقد وصفني بسيد الخراب بدلاً من سيد النار

أدار رأسه تجاهه وأردف:

ـ لكني أجد مزاحك ممتعاً، وسنرى كم سيظل كبرياًوك ثابتاً، أمام سيد الخراب...

اشار بيده :

ـ خزوه إلى السجن، أريد له موئلاً بطيئاً يجد فيه العبر.

أمسك الجنود بالصندوق وابعدوا به، بينما صهصام يثرث بكلمات غير واضحة،  
مشيراً بأن التحدي لم ينته ..

تأمل نفيل صهصام وهو يُجرّ بعيداً ثم قال:

يبدو أن صهصام هذا ليس رجلاً عاديًّا.....النفت إلى جلمود برجاء: عَيْ أريد  
أن أواجه في قتال رجلاً لرجل.

نظر جلمود إليه بدهشة وقال بحزن:

لا.....لا...هل فقدت عقلك؟ ألم تسمع أنه قتل عشراً من الجند ولم يكن يحمل  
 سوى منجل؟ فما بالك إن أعطيته سيفاً؟

(نفيل)

ولهذا... يجب أن اصارعه، أريد اثبات أتي الأفضل، وأنتي أستطيع هزيمته حتى  
 وهو في كامل قوته.

(جلمود)

ليس كافياً ولا مقبولاً، ثم أنا بحاجة إليه لمساومة الحوت الأزرق...هل تعتقد أنه  
 سيصمت بعد ما فعلته؟

لم يستسلم نفيل بسهولة وأجاب بإصرار:

— لن أقتله فقط أريد أنأشعر بقوته، أنا لم أذق طعم مصارعة حقيقيه منذ زمن  
وانت تعلم هذا...رجل بمثيل هذه الشجاعة سيكون تجربة تستحق.

فكر جلمود للحظة ثم ابتسם وقال:

— أنا لست مرحبا بتلك الفكرة، ولكن أريد أن أرى ما ستفعله.... المواجهة غداً،  
عند منتصف النهار حين تكون الشمس في أبد حرارتها.

ابتسم نفيس بارتياح وانصرف في طريقه، بينما وج جلمود الى القصر وجلس على  
الأريكة في القاعة التي في المنتصف، وهو غارق في الظلام والهدوء رفع صوته قائلاً:

يَا سِرَاءَ.

بعد قليل دخلت ابنته:

— نَعَمْ، يَا أَبِي.

(جلמוד)

وافت على ذهابك إلى نيمورا.

(سراء)

— حَقًا يَا أَبِي ؟

(جلמוד)

نعم، ولكن لا تذهبني قبل أن تشاهدني عرض المصارعة.

(سمراء)

متى العرض؟؟

(جلمود)

سيقام غداً بين نفيل وابن الحوت الأزرق.

نظرت سمراء إليه بازدراء وقالت:

ابن الحوت الأزرق؟ أنت بهذا تشغل حرّباً بين القبائل!

رد بصوت صارم:

اصحّتي! لم يجرؤ أحد من سكان القبيلة على معارضتي ثم تأتي، فلنذهب كبدني وتفعل هذا!

قالت بتردد:

ما تراه هو الصحيح يا أبي.

استسمحته ثم غادرت الغرفة لتذهب بعدها إلى الجهة الخارجية من القصر، هناك كانت أمها تجلس بهدوء تحت ظل شجرة من الأشجار اليابسة التي تملئ حدائقهم. وما إن لاحت راجحة ابنتها، حتى أشارت للخدمتين بالانصراف، فانسحبتا في صمت.

حينها جلست سمراء بجوارها، تتنفس بشغل ثم نزعت النقاب عن وجهها ببطء  
وقالت:

لقد وافق أبي على ذهابي إلى جدتي.

قالت راجحة بهدوء بينما مدت يدها ونزعت قناعها هي الأخرى:

— أليس هذا ما أردتني؟

(سمراء)

نعم لكنه طلب بقائي حتى اشاهد عرض المصارعة بين ثقيل وابن الحوت الأزرق.

تغير ملامح راجحة ووقفت بغضب دون أن ترد على سمراء، ثم تحركت بسرعة غير متوقعة وكأنها تخفي سراً جعلها تستشيط عندما علمت بأمر المصارعة.

نظرت سمراء إلى ظهر والدتها وهي تسير متتسائلة:

ماذا حدث؟

دلفت راجحة بغضب إلى غرفة جلمود فوجده نائماً على ظهره يحمل تفاحه في يده  
ويقضم فيها:

تقيم صراغاً بين فقيل وابن الحوت الأزرق؟ ووالدي عندهم يقيم صلحًا للسلام!  
هل تضحي بأبي الذي رباك وزوجك ابنته؟

تم لنفسه: لم اتوقع ان تخبرها سمراء بهذه السرعة ... ثم ارتفع صوته ببرود:  
بل أنتقم لوالدي الذي رباني وزوجني ابنته.

وكان صاعقة ضربت المكان، تجمدت راجحة في مكانها، وكان الهواء اقطع عن رئتها.  
عيناها تلتقطان كل تفاصيل وجه جلمود. وبصوت مرتجف سأله:

ماذا تقول؟

قال جلمود، في جمود يتقن الدور كما لو كان يؤمن به:  
الحوت الأزرق... ذلك الشعلب الماكر، قتل أرمغان غدراً..

بدأت الدموع تتلاألأ في عيني راجحة، لكنها لم تسقط. تقدمت نحوه وهمست:  
ماذا؟ ...

اجاب:

ما سمعته.

تقدمت خطوة أخرى وكان الأرض تسحبها صوتها بدأ ينكسر بين الألم والغضب،  
ثم انفجرت صارخة:

ولماذا كذبت عليّ؟ لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟ لماذا أخفيت الحقيقة؟  
الأسئلة انهمرت كسيل، واحداً تلو الآخر، بلا توقف، وقد تغلغل الشك في  
أعماقها حتى النخاع.

نهض جلمود من مكانه ببطء، وضع التفاحاة جاتباً، ونظر إليها بعينين مملوءتين  
بالكراهية:

لأني كنت أنتظر اللحظة المناسبة. فالصبر هو سلامي، لقد انتظرت طويلاً  
حتى أتمكن من ضرب الحوت الأزرق في قلبه، والآن، الآن أبهه بين يدي. ابن  
قاتل أبيك وأبي الذي رباني ... هل تفهمين؟ هذه ليست حرّباً، إنها انتقام.

قالت في شكٍ:

أي انتقام وأي حرب؟ لقد حاول أبي مرازاً وتكراراً الصلح مع الحوت الأزرق  
وكان الحوت مرحباً بتلك الفكرة، فكيف له أن يقتل أبي؟ كيف يمكن أن أصدق  
 شيئاً كهذا؟

بدت ملامح جلمود متناقضة مزيجاً من الحزن والخبث، لكنه سرعان ما اقترب منها  
واحتضنها ببطء. تابع بصوت منخفض:

كان الخنزير ينصب خفاً وأرمغان صدقه يا حبيبي، ظن أنه يحاول مصادقته  
ويقيم الصلح . لكنه لم يكن يريد سوى أن يصنع من أرمغان جاسوس، ليعلم كل

شيء عن قبيلتنا، وعندما علم أرمغان بنوایاه الحقيقة، رفض ان ينضم له، ولهذا قتله  
الحوت الأزرق دون تردد.

لمعت عينا راجحة بالوحشية وصدر منها صرخة مدوية وهي تدفع جلمود بعيدا عنها:  
ابعد عني ولا تقترب...أنت تلمسني قبل أن تقتل من قتل أبي.

تراجعـت بينما دموعها تنـساب كجمـر مشتعل فوق وجنتـها، لم تـمـنـجـ جـلمـود فـرـصـةـ  
للـردـ، حتى باـغـتها السـعالـ أـمـسـكـتـ بـصـدـرـهـ وـكـانـ الـهـواءـ اـنـقـطـعـ عنـ رـئـيـهـ .

تغيرـتـ مـلامـحـ جـلمـودـ منـ الغـضـبـ إـلـىـ القـلـقـ، فـتـقـدـمـ مـنـهـ سـرـيـعاـ وـهـوـ يـقـولـ:  
هـذـاـ لـأـنـكـ تـتـحـدىـ كـثـيرـاـ دـوـنـ أـنـ تـرـتـديـ القـنـاعـ...ـأـبـيـ تـلـكـ الـأـعـشـابـ؟ـ

أـسـرـعـ نـحـوـ شـيـءـ مـعـلـقـ فيـ زـاوـيـةـ الـغـرـفـةـ ثـمـ مـدـ يـدـهـ وـأـخـرـجـ بـعـضـ الـأـعـشـابـ الـخـضـرـاءـ  
ذـاتـ الـرـائـحةـ النـفـاذـةـ وـوـضـعـهـاـ فيـ مـبـخـرـةـ مـشـتـعـلـةـ.ـ عـادـ إـلـيـهـ بـخـدرـ وـهـوـ يـهـمـسـ:

استـنشـقـهـاـ بـطـءـ...ـسـتـسـاعـدـكـ عـلـىـ التـنـفـسـ.

بـدـأـتـ تـأـخـذـ أـنـفـاسـهـاـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ حـتـىـ هـدـأـ جـسـدـهـاـ المـرـتعـشـ وـمـسـحـتـ دـمـوعـهـاـ بـطـءـ  
لـكـنـهـاـ لـمـ تـنـظـرـ إـلـيـهـ بـعـينـ الرـحـمـةـ:

هـذـاـ لـنـ يـغـفـرـ لـكـ ...ـ مـاـ لـمـ تـأـنـيـ بـرـأسـ مـقـرـعـونـ.

ثـمـ دـفـعـتـ جـلمـودـ بـقـوـةـ، وـخـرـجـتـ بـعـدـهـاـ مـنـ الـغـرـفـةـ دـوـنـ أـنـ تـلـتـشتـ خـلـفـهـاـ.

ظل واقفًا يحذق في أثراها، ثم همس لنفسه بصوت خافت:

ـ هه تطلبين رأس مقرعون؟... سيكون لكِ لكن بثني لن تتوقعيه.

---

### (( الفصل الثالث: أرامل المرح ))

تنقل إلى قبيلة الماء، هي مدينة باهتة على ضفاف نهر إصفر من التلوث، هناك بدا كل شيء غارقاً في كابة لا تخطئها العين. لون المياه العكر الحمّل بسموم يشبه شرياناً ميتاً.

المنازل مشيدة من الطين الصلب تتجهها أسطح من القش المتشابك، تحاول عبيداً محاكاة توجات النهر الذي فقد صفاءه. والجسور الخشبية المعلقة امتدت بين الأوكاخ كخيوط عنكبوت نسجها المؤس، تراقص من شدة الريح وكأنها توشك على السقوط في أي لحظة.

على مشارف القبيلة هناك سور خشبي ضخم شاهق ذو أطراف مسننة كان يحمي القبيلة من غزو الاموات الأحياء والآن يحميها من البشر انفسهم .

الوضع بدا طبيعياً حتى أُسكت الصمت الهادئ وجلب الذعر والفزع فقد خرجت من كوخها امرأة عمياء تمسك في يدها عصا قديمة، ترتدي رداء رمادي باهت يغطي جسدها بالكامل ويغطي فمها كالكمامة. مدلت يدها ورفعت القهاش بيظء عن فمها، ثم بدأت تشم الريح بعمق وكأنها تقرأ شيئاً في الهواء. فجأة بصفت على الأرض بقوة

واقتربت من بصقتها ببطء فوضعت إصبعها فيها ورسمت نجمة معكوسة في قلب الأرض.

ثم صرخت بصوت اخترق القبيلة:

أشتم رائحة تسرى في كل مكان رائحة خاقنة أهلكت بعضًا منا. وهناك من مات، وهناك رزق قد فنى.

وعلى صوت هذه المرأة تجمع الناس في الساحة. كان سكان القبيلة يرتدي معظمهم ملابس قديمة ممزقة من العصور السابقة بعضها مصنوع من قماش الجزر والآخر من القطن تتسلل منها خيوطٌ همزة و النصبت بها طبقات من الغبار العفن.

أما الآخرون فغطّوا أجسادهم بجلود الحيوانات مشدودة ياحكم حول أكتافهم الهزيلة، تحمل رائحة عفن الماء والرطوبة، وتُضفي عليهم مظهراً بدائياً يليق بعالم ثكيب بالحياة.

على وجوه الجميع وُضعت كمامات مصنوعة من القماش السميك مغمض بطبقه من ريم النهر ذلك الطحلب اللزج الذي لطالما استخدموه لتنقية الهواء السام لكن حتى هذا الإجراء البسيط لم يكن كافياً لإخفاء ارتجاف شفاههم أو قلق أنفاسهم المضطربة.

ارتفع صوتٌ من بين الحشود صاح رجلٌ من تحت كمامته:

ما الذي قالته العرافة ندرة وما الذي تنبأ به؟

رفعت ندره رأسها نحو السماء ، وتغيرت نبرتها للأسوء:

أقول لكم... إن موتك على المشارف، والجوع سيأتيكم بالمجادف والهول لن تمنعوه و  
الحزن ستعلموه.

ارتجفت القلوب من حديث العرافة، فالجميع يعلم أن ندرة لا تطق بالهراء. كلماتها  
كانت كالسيف تقطع الأمل وتزرع الرعب، فندرة لم تكن مجرد امرأة عمياء تحمل  
عصا خرتها السنين، لقد كانت عرافة قبيلة الماء منذ عقود، اختيرت من قبل العرافة  
سوراذه التي سبقتها، والتي قيل إنها كانت ترى المستقبل في توجات النهر  
وتعويجات الرياح... لكن ندرة مختلفة قوتها لم تكن في الرؤى وحدها، بل في قدرتها  
على قراءة الفقدان وسماع ارواح الموتى المعذبين التي لا يقدر أحدٌ على سماعها.

فجأة دقت الطبول بصوت مرتفع، داست الأقدام الجسور باندفاع هستيري يتحرك  
الناس ووجوههم شاحبة يتساءلون عن هذا الحدث المفاجع. الهواء امتلأ برائحة  
الخوف والقلق، وعندما وصلت العربية المخطمة إلى ضفاف نهر القبيلة، انطلقت  
صرخات عالية في كل مكان.

الجثث مكدسة فوق بعضها البعض... عشرون رجلاً، أجسادهم ممزقة ومشوهه،  
كان وحشاً قد مرقهم بأنياته، تكسوهم الدماء من الرأس حتى أخمص القدم.

وفي عربة أخرى...

سبع نساء، أجسادهن بلا رؤوس والكارثة الأفظع أن رؤوسهن وُضعت بجانب  
أجسادهن عيونهن مفتوحة وكان الموت باعندهن في لحظة ألم أبدى.

لم يبق سوى رجلين على قيد الحياة بالكاد قادرين على الوقوف أجسادهما ترتعش  
من الخوف وعياناهما غارقتان في صدمة لا رجعة منها.

صرخات النساء ملأت الأرجاء وكل واحدة منهن تنحّب فقيدها بينما الآباء  
يضربون صدورهم بعنف، الفوضى عمّت المكان و الدموع انهرت كالمطر وكل من  
رأى المشهد شعر بأن لعنة قاتلة قد حلّت على القبيلة وجلبت معها رعبًا لا نهاية له.

من غرفة المجلس خرج مقرعون الحوت الأزرق، رجل عظيم الحجم لديه كوش مددود  
وجامد كالصخر، ذقنه طويلة تتخللها شعرات بيضاء ناصعة. عيناه توجان بلون  
البحر العميق تتصحان بالقوة والدهاء. صوته حين تحدث أشبه بصوت الطبول التي  
ثرعت للتو يحمل بين نبراته الغضب والسخط:

ـ ما تلك الفاجعة؟

سار نحو العreibات والجنود يحيطون به بحذر. نظر إلى الرجلين الجرحى، ثم إلى  
الجثث المكشدة حوله، عينيه تبحثان في كل زاوية عن ابنه عن صحمصام، سحب  
كماته لي اسفل:

— أين ابني؟ ومن فعل هذا؟

بصوت متهجد بالكلاد يسمع قال أحد الرجلين:

— يا... يا سيدى كنا نخصد الغلال بسلام وعندما اتيينا وقرنا العودة فجأة  
أمطرت علينا الذخائر من كل مكان... قطعونا بالسيوف..... الجيش تمزقت والنار  
أكلت الباقيين... نحن فقط..... نحن فقط من نجينا أخذنا هؤلاء الجيش معنا أما  
البقية فقد أحرقوهم أحياء.

اقرب مقرعون ثم أمسك ياقه الرجل بشدة:

— من هم؟! من فعل هذا؟

رد الرجل بصوت مرتجل:

— لم نرى وجوههم بوضوح، لكن كانوا يشبهون، رجال قبيلة النار.

دفع الرجل بقوة ثم قبض على سيفه ثم رفعه عاليًا وصاح بصوت غليظ:

— وأين صحاصام؟ أين ولدي؟

أجاب الرجل وهو يحاول الابتعاد:

— لم يمت يا سيدى.... لم يقتلوه.... لقد أخذوه أسيراً.

انزل سيفه و قطع رأس الرجلين بلا تردد، وبينما الدماء تتدفق على الأرض  
كالشلال قال:

ادعيم الموت لتعيشوا وتركتها إخوانكم يقتلون... لا مكان لكم بيننا سوى الموت.

ظهرت زوجته نوهارا من خلفه، وكأنها خرجت من الجدار.

امرأة في أواخر الأربعين، لم يكن في حضورها جمالٌ يهيج بل مراة تسير على  
قدمين، كان الغضب ينعكس في عينيها مثل ضوء مكسور:

- أين ابني يا مقرعون؟ لقد ضيعته... هل هذا هو السلام الذي كنت تسعى إليه؟  
هل هذا هو التجديد والنجاة التي حلمت بها؟ كل حوت يسعى للسيطرة وأنت  
اخترت الاتجاه المخالف، انظر الآن إلى ما حل بك وبنا... أنا أريد

ابني أتسمعني أريددددددد ابني ؟

ضغطت على كلماتها الأخيرة لتأكيد غضبها.

(مقرعون)

سأحضره ولو كان في أعماق الجب... لكن عليك أن تهدئي فيجب أن نفك  
بعقلانية حتى لا يصيبه الأذى.

إستدار ونادي بينما يغمد سيفه:

- راغيث راغيث .

من خلفه ظهر رجل ذو هيبة وقامة طویلة، ازاح كمامته الى اسفل ذقنه:

\_انا هنا يامولي..

أشار مقرعون إليه بحدة:

\_أريد اجتماعاً مع المستشارين الآن..

اخنى راغيث قليلاً وأجاب:

\_كما تأمر..

بعد نصف ساعة أتى راغيث وقال:

\_الجميع بانتظارك في قاعة المجلس.

تحرك مقرعون، رغم الغضب الذي يتلألق في عينيه ودلف إلى قاعة المجلس.

كانت القاعة واسعة، تحتوي على طاولة مستديرة ضخمة من الحجر الأسود مزخرفة بنقوش تحكي قصص أمجاد الحيتان الزرق. في مقدمة الطاولة كان مقعد مقرعون الضخم المزين بالذهب، يعلو كل المقاعد الأخرى في إشارة إلى سلطنته المطلقة.

وفي وسط الطاولة وضع إناء نحاسي معتق يغلي فوق نار هادئة، يتصاعد منه بخار كييف ناتج عن مزيج من الطحالب والمواد الخمرة. هذا البخار يتسلل في أرجاء

القاعة ينقي الهواء من السموم مما يمنع الحاضرين فرصة للتنفس بحرية دون الحاجة إلى ارتداء الكمامات.

جلس مقرعون على عرشه واضعًا يده على مقبض سيفه المغروس بجانبه. وعلى يمينه ويساره المستشارون جالسين على كراسي أقل شأنًا لكنها تبقى أنيقة بلمسات من الفخامة.

ارتفعت الأنظار نحو مقرعون الذي التزم الصمت لبضع ثوانٍ، ثم قال بصوت هادر:

لقد علمتم جميعاً بما حدث للعمال على أيدي جنود جلמוד وما حل ببني صهاصام. دماونا شفوك وأرضنا ثُدنس... انتهى زمن الانتظار ولقد اجتمعنا هنا لنضع خطة لإيقاظ ابني، وإعادة هيبة قبيلة الماء التي دنسها قبيلة النار. والآن أريد أن أسمع اقتراحاتكم... ولكن اذروا فكل كلمة ستقرر مصيرنا.

تقدم فايضون، مستشار الاقتصاد وقال بصوت متهدج:

هي ليست مجرد كارثة بل انهيار لجذور ما زرعناه ضاعت جمود سنوات في إصلاح تلك الأرض، بعد كل ما بذلناه لجعلها خصبة صالحة وهذا أول حصاد كنا ننتظره ولكن... بدل أن نحميه خسرناه، إن الأرواح أُزهقت في الحفاظ على الأرض ولم تجد من يحميها.

انقض زاهرون المستشار الروحي وقال

— ولكن يا مقرعون اعذرني على جرأتي... أنت من تتحمل كل هذا.

صمتت الغرفة لثوانٍ. ثم نظر مقرعون إليه وقال:

— كيف تجرؤ على إلقاء اللوم عليّ؟

لم يرتبك زاهرون بل رد بثبات:

— نعم أقولها وأتحمل عواقبها، هل نسيت يا مقرعون؟ لقد دعوت إلى السلم بينما أعداؤك لم يجتمعوا له. ليس هذا فقط بل أعطيتهم الأمان وثقة بهمودهم ولم تكلف نفسك بتعيين حراس على العمال في المخول لقد اخدعت وهذا الشتات الذي نحن فيه الآن نتيجة لأفكارك المغلوطة، كنت دائمًا أقول من أراد السلم أعطيناه، ولكن من عزم على العداوة وفيناه، فالكأس دائرة والأفواه تطلبها.

ضرب مقرعون يده على الطاولة بقوة، فرتج صوت ارتطامها أرجاء القاعة التفت إلى زاهرون:

— كلماتك وقحة لكنها تحمل الحقيقة، اليوم اتهى زمن الأوهام، لن أجنب للسلم إلا إذا كانوا يسجدون أمامنا طلباً للصفح ومن هذا اليوم لا أمان ولا عهد.

قال سليمون، مستشار الحرب:

— أنا لست كير المستشارين فقط بل مستشارك العسكري أيضاً، ورأيي إلا تتسرع في إعلان الحرب نحن لا نملك أسلحة كافية، بينما جلمود وقبيلته يتلذّتون بنادق من أسلحة الأسلاف.

سأل مقرعون:

— وما هو الرأي المناسب.

أجاب سليمون:

— الأفضل أن نرسل فريقاً من الجنود المهرة لإنقاذ صمّاص خلسة، وعندما يكون ابنك آمناً ، تقرر بعد ذلك خوض القتال أو لا.

الثفت مقرعون إلى جرميد وقال:

— ماذا عن العمل الذي طلبته منك؟ هل أنهيتها؟

أجاب جرميد بارتباك:

— نعمل بجد يا سيدي لكننا بحاجة إلى المزيد من الوقت.

نظر المستشارون إلى بعضهم البعض بغموض، متسائلين عما قد يكون هذا العمل لكن لم يجرؤ أحد على السؤال.

(مقرعون)

حسناً من منكم يوافق على رأي سليمون؟

واحداً تلو الآخر وقف المستشارون وضرموا الطاولة السوداء مرتين وقالوا:

نافق. ثم انحنوا احتراماً للزعيم.

بعد انتهاء الاجتماع وخروج الجميع وقف مقرعون عند مدخل القاعة غارقاً في صمت طويق ينظر إلى السماء الملبدة بالغبار، وهي بثقلها بظلمها الثقيل على وجهه، قاطعته رؤية امرأة تقترب ببطء على جسر خشبي وسط الضباب.

تحمل طفلًا صغيراً بين ذراعيها وطفلة صغيرة تمسك بطرف ثوبها البالي. وجهها متعب وعيناها تخفيان ألمًا دفين. توقفت على مسافة قصيرة منه ثم قالت من تحت كمامتها:

أنا حيندة جئت أشكو حالنا.

(مقرعون)

وماهو حالك؟ ؟ سألهما بفضول.

( حيندة )

زوجي كان مع عمال المزرعة، ولقد دفنته اليوم بيدي وأطلب منك إما أن تنصفنا أو تدفني معه.

نظر إليها مقرعون ببرود ظاهري وقال:

— ما الذي طلبينه مني ؟ لست الأولى التي تفقد زوجاً ولن تكوني الأخيرة نحن جميعاً نعاني، العالم كله يعاني.

رفعت المرأة رأسها والدموع تلمع في عينيها لكنها لم تتهمنا:

— وهل فراق الأحبة شيء يستهان به ؟ زوجي كان عماد حياتي وحياة أطفالي كل لي ماذا فعلوا ليستحقوا أن يصبحوا أيتاماً كل لي ماذا فعلوا ليكونوا جوعاً عطاشاً ؟ ... أجبني.

في هذه اللحظة تركت الطفلة يد أمها وتقدمت بخطوات صغيرة نحو مقرعون. رغم الغبار الذي يغطي وجهها كانت تبتسم ببراءة فجأة بدأت تفني بصوت ناعم وهي لا تبالي ولا تشعر بمن حولها:

— أحلامنا أزهرت بعدليلها الحزين وقلوبنا أجرت مع موج بحر جميل .

ابتسمت بخفة ورفعت يدها الصغيرة وكأنها تداعب شعاع شمس تخيلت وجوده ثم عادت فجأة إلى أمها بخطوات مسرعة محولة ملامحها البريئة إلى حزن طفولي.

همس أحد الواقفين بجانب مقرعون:

— وكأنها تخفي لحظات السعادة من عالمنا الموحش... ثم تعيد نفسها إلى واقعها المُئَر.

اقترب مقرعون من الطفلة ببطء ثم جثا على ركبتيه حتى أصبح في مستواها نظر إليها بنظرة لم يرها أحد من قبل:

ما اسمك يا صغيرة؟

نظرت الفتاة إلى أحما التي ابتسمت لها بحزن ثم أجبت بصوت خافت:  
- طريقة.

ابتسم بحنان وقال:

طريقة وانت فعلاً طريقة... هل تعلمين يا طريقة أنت تشبيهن ابنتي كثيراً.  
ثم سألهما بلطف:

ماذا كنتِ تغنين؟ تذكرين هيا لنغبني معاً.

ابتسمت الصغيرة وكأن ابتسامتها تضيء المكان، ثم بدأ الاثنان يغنين معاً بصوت منخفض مليء بالبهجة:

أحلامنا أزهرت بعد ليلها الحزين، وقلوبنا ابحرت مع موج البحر جميل ....  
وسنملي القلوب انهاراً من الحنان، هسات الأحبة تُشعّل لنا الأمان.

كان صوتها يتنااغم بشكل طبيعي وقلوبهم تهداً مع كل كلمة وكان الأغنية تمثل رغبة في الحياة وفي الأمل وفي المستقبل الأفضل.

ثم التفت إلى المرأة وأخرج من ملابسها زجاجة صغيرة تشبه زجاجة العقاقير:  
— افتحي فم الصغير أولاً.

أزاحت المرأة الكمامه عن وجه طفلها الرضيع بحذر، فاقترب مقرعون وقطّر بعض قطرات من الماء في فم الصغير، تأوه الرضيع بلطف وهو يتذوق الماء النقي ثم ربت على رأسه برفق كأنما يطمئنه.

ثم التفت إلى الطفلة الأكبر سناً وأشار لها بيده:  
— افتحي فمك يا طرفة.

أزاحت الفتاة الكمامه عنها، وبلل مقرعون شفتيها بقطارات من الماء، بينما كانت عيناهما تلمعان بامتنان.

أخيراً نظر إلى المرأة وقال:  
— الآن دورك.

ترددت للحظة ثم نزعت الكمامه بهدوء. فسكب مقرعون بعض قطرات في فمها بعدها اعادت الكمامه إلى مكانها سريعاً تراجع قليلاً وقال:

— سيسالك أسبوعياً لتران من الماء، وستصلك المؤن بانتظام، طفلاك لن يناما جائعين وإن احتجت إلى أي شيء آخر أنا هنا.

انحنى قليلاً وقبل يد الرضيع وريت على رأس طريقة ثم وقف والتفت إلى رجاله:  
رافقوها إلى منزلها وتأكدوا من وصول المؤمن دون تأخير.

ويبينا كان سيعود إلى القاعة ثبت للحظات ينظر إلى الطفلة التي اختبأت خلف أحما  
لتعود في ذهنه صورة ابتسامتها فتسلى دمعة خفية إلى عينيه مسحها بسرعة قبل  
أن يراه أحد وهمس لنفسه:

اطفال مثلها هم ما تبقى من الأمل... لكن هل يكفي الأمل لإنقاذ هذا العالم.

احل الليل ستاره المظلم في الأفق، وتسدل البرد عبر الفجوات ولم يكن هناك  
 سوى صوت الريح الذي يلعب بالخارج، مما جعل الأبواب الخشبية تئن بأذين  
 خافت.

في تلك الأثناء، داخل كوخ خشبي تتزين جدرانه بشرائط ممزقة من الأقمشة الملونة،  
 كانت الشموع تبعث بنور متذبذب على الأركان، و العرافة ندرة جالسه أمام إماء  
 خارجي مملوء بالماء، تتأمل سطحه الهادئ تحاول قراءة ما لا يرى.

اماها رجل يجلس محاطاً بدائرة من الشموع، عينيه مثبتتين عليها، يراقب كل حركة  
 وكل همسة في انتظار ما سيحدث بعد ذلك.

رفعت ندرة إصبعها نحو الرجل، ونفخت في يديها بقوة، ثم ضربت سطح الماء بحركة  
 مفاجئة، ما أدى إلى اهتزاز توجاته تحت أصابعها. بصوت منخفض ومخيف هست:

تعال...اقرب...أكثـر.

تقدم الرجل نحوها، ابتلع ريقه بفعل الذعر وهو يراقبها بعينيه المرتجفتين. وعندما دنى منها، انحنى نحوه وهبـمت في أذنه:

اغسل وجهك بهذا الماء.

تردد الرجل للحظة، ثم مد يده المرتجفة نحو الإناء، أغرف قليلاً من الماء بين راحتيه، وغسل وجهه. وما إن لامست القطرات بشرته حتى اهتز جسد ندرة بشدة، كأنها تلقت صاعقة مفاجئة انقضـت عيناهما العمـياء نحو الأعلى.

تشنجـت أطرافها قبل أن تهمـس بصوت ضعيف يحمل الرعب:

ـأرى كل شيء...نعم كل شيء يتجلـى أمامي...أذني تسمع الصراخ ....و اني يستنشقـ الحريق .

حدقـ الرجل فيها، وقلبه يدقـ دقات سريعة من شدة الخوف ، ثم تجرأـ وسألـها بصوت يعتـريه القلقـ:

ـماذا ترين ؟

لم تردـ على الفور بلـعت ريقـها بصـعوبةـ، تندـوقـ نـكهةـ النـبوـةـ قبلـ أن تـتحدثـ بهاـ ثمـ نـطقـتـ بـيـطـءـ، صـوـتهاـ مـبـحـوحـ كـانـهـ يـأـتـيـ مـنـ بـئـرـ بـعـيدـ:

— بعد سبعة أشهر ستندلع النيران... أستطيع شتمها الآن... الدخان في أذني...  
وأصوات الصراخ تصم أذني.

تصلب جسده، وازدادت ضربات قلبه ، بينما هي أكلت بصوت مخيف:

النار ستلتهم بيت أخيك، ستحو كل شيء... هو... زوجته... رضيعه... أما أنت؟  
فسوف تكون هناك تراقب كل شيء وتبتسم.

انعقد حاجباه في توتر، لكن قبل أن ينبع بكلمة أضافت بصوت خافت مليء  
بالسخرية:

لن تحزن أليس كذلك؟ بل ستكون سعيدا لأنك ستأخذ كل شيء، نصيبه من  
المياه والحبوب والطعام المخزن في خزينته كل ذلك سيظهر بعد موته... ستصبح  
الرجل الأغنى، و بالإرث الشرعي.

بيطء... تحركت زوايا شفتيه إلى الأعلى، حتى تكونت تحت كمامته ابتسامة مختلطة  
بالدهشة والنشوة تظهر اثرها في عينيه، انفجر في ضحكة خافتة لم يستطع كتمانها  
أكثر:

— سأصبح غنيا.

رفعت ندرة رأسها نحوه، كانت عيناها العميا تتلاآن في الظلام كأنهما قادرتان على  
الرؤيا ثم ابتسمت كاشفة عن أسنانها الصفراء الغير منتظمة، وهمست بصوت ناعم:

وأين هو نصيبي من هذا؟

لم يتردد الرجل دش يده في جيب معطفه المترنح، وأخرج منه علبة قدية عليها ملصق باهت يظهر حبات فول معلب، قدّماها لها كأنه يمنحها كنزًا وقال:

عثرت عليها خارج القبيلة... إنها من طعام أسلافنا... طعام مبارك.

حدّقت في العلبة بصمت ثم مررت أصابعها المتعرجة فوق سطحها المعدني البارد وأخيراً أخذتها منه برضاء، وضعتها بجانبها، وربّت عليها برفق كأنها قطعة ذهبية؛

سعّر مُرضٍ.

لم يكدر الرجل يتحرك حتى فتح باب الكوخ فإذا، وتسليلت منه نسّمات هواء باردة أطافت شمعة في الزاوية، انحنى الرجل عند رؤية القادم، ثم هرب من الكوخ دون أن يلتفت.

رفعت ندراً رأسها، اشتمت رائحته ثم مالت بابتسمة باردة وهمسـت:

مرحباً يا سيد مقرعون... لم تأتي لزيارةي منذ سنتين !!

(مقرعون)

وكنت أتمنى ألا أتّي مرة أخرى ولكن أريد أن أعرف امراً..

(ندراً)

وَمَا هُوَ؟؟

(مفرعون)

— هل سيعود ابني إلى حضني أم سيموت؟

(ندرة)

وَهُلْ مَعَ الْحَوْتِ الْأَزْرَقِ الْثَّنْ لِذَلِكَ؟

لم يرد، بل مد يده وألقى أمامها زجاجة تحوي لترين من الماء الصالح للشرب، وكيستا من حبوب الطعام، اخترت ندرة نحو الأشياء، شمت رائحتها العتيقة، كأنها تنتيمها ثم أومأت ببطء وقالت:

هذا ثمن باهظ... يليق بجوت..

رفعت رأسها ناحيته ومدّت يدها نحو قائلة:

أعطي إصبعك.

تقدّم الحوت الأزرق ببطء ومد يده فأخذت ندرة تتحسسها بأطراف أصابعها النحيلة حتى وصلت إلى خنصره، بظفراها الحاد وخرت اصبعه فتدفقت منه قطرات دم داكنة، أمسكت بزجاجة صغيرة جمعت فيها الدم ثم وضعتها جانبًا.

بعدها رفعت شمعة من قرها، قربت الزجاجة منها حتى بدأ الدم يغلي بداخلها بينما يدعا تظل مسكة بها دون أن تتأثر بحرارة اللهب، كأنها فقدت الإحساس تماماً. عيناهما ظلتا شاختين نحو الدم المغلي قبل أن تصبه في إماء الماء أماهما.

ببطء، غمست إصبعها الملطخ بالدم في الماء، وأخذت ترسم به دوائر عشوائية على السطح، وهي تهمهم بكلمات غامضة:

أنا العاشقة العميماء، جلست في الأرض السوداء، قيلت كل ما كان، وناديت على ما سيكون، وعشقت القائل... قبل أن يقول. فيا هامون يا بنت عقاب يا ظلّ السّير في بطن الغياب، أقسم عليك بعتمة الليل حين يُخفى، ويوميض النجم حين يشقى، أخرجني من الصمت، من الحجب، من الغمام، تعالى كما جئت أول مرة، تعالى كما كتب في اللوح أول الزمان.

فجأة انتفض جسدها بقوة واندفع صرخة عميقة من داخلها كأن روحًا أخرى قد استقرت فيها بالقوة. اهتز وشاحما بعنف وسقط عن رأسها، كاشفاً عن شعرها الأبيض المتبعد الذي تراقص مع العاصفة الخفية حين اجتاحت المكان. في تلك اللحظة انبعثت من عينيها العميماء نور غريب كأنها أبصرت ما لا يرى وكان العالم كله تجلّى أماهما بلون آخر، امتلاً الكوخ بهواء ثقيل

خالق يحمل رائحة لا تنتهي إلى هذا العالم وكان بوابة خفية قد فُتحت بين العوالم.

من شدة الهواء أنيطأت الشموع دفعة واحدة وترك المكان في ظلامٍ مضطرب تترافق فيه ظلال غريبة على الجدران ، خرج صوتها لكنه لم يكن صوتها بل صوت آخر ، غريب ، ثقيل ممتنع بالغضب والرهبة كما لو أن امرأة أخرى قد سرقت حنجرتها لتستكمِّل عبرها:

أراه هناك... في مكان ضيق... حيث لا يمر الهواء إلا من بين القضايا... حيث الألم ليس في الجسد وحده بل في الروح التي تبحث عن مخرج ولا تجده، قلبه يحترق مما رأه... وجسده يتلوى مما سيلقاه.. أما روحه فهي مزقة تائهة كعابر في صحراء بلا نجوم... كلما ظن أنه اقترب ارتفع أمامه جدار آخر وكلما حاول أن يقف... سقطت عليه تلك الجدران.

(مقرعون)

وماذا بعد؟

ابتسمت ندرة ثم اردفت:

غداً... سيواجه المصير وهناك سينكشف كل شيء... ابنك سيعود نعم سيعود .. لكن لن يعود كما كان فلماه حين يختلط بالنار لا يعود ماء.. والظل حين ينكسر لا يعود ظلاً... ابنك سيرجع لكن حينها لن يكون صمام الذي تعرفه بل سيكون الحوت الجديد.

ما إن لفظت كلماتها الأخيرة، حتى انتفض جسدها بعنف وارتفع للحظات في الهواء،  
ثم سقطت على مقعدها، فارتجَّ المكان تحتها، وتحطم إثناء الفخار الذي يحمل الماء  
أمامها فتناثرت قطراته على الأرض.

---

#### ((الفصل الرابع: تجاعيد الصراع))

في أحد الزنازين المعتقة داخل سجن رهيدا التابع لقبيلة النار، جلس صمصام  
القرفاء في زاوية الزنزانة، كأنه يحاول أن يذوب في الجدار، أن يختفي من كل  
شيء... حتى من نفسه.

ظهره ملتصق بالحائط البارد، ويداه تطوقان ساقيه كطفل ضائع في عالم لا يعرف  
الرحمة، لم يكن ناماً ولا يقظاً، غارقاً بين حافة العقل ومحوى الذكرى.

عقله لا يصمت فالصور تترافق كأشباح فوق عينيه، وجوهٌ مذعورة، دماءٌ سالت  
بلا إذن، العمال الذين سقطوا... الصرخات سكنت الزنزانة أكثر مما يسكنها هو.

عيناه البندقيتان تغيم كلما تذكر، تتوهجان من الداخل بدموع يأبى أن يتراکها  
تسقط، كأنها ستفضحه إن فعل.

ثم فجأة... في لحظة واحدة وسط صمته المنبهك... ضحك.

ضحك كالجنون ضحكة مفاجئة، حادة، كان شيئاً عبيداً تسلل إلى وعيه المكسور،  
وترك الباب مفتوحاً خلفه وجهه شاحب، بشرته تميل إلى الرماد، وشفاهه متشققة

من الجفاف، عيناه محاطتان بسوايد كأن النوم هجره منذ أيام لا تُعد. شعره منكوشًا، كذا، لحيته نمت بطريقة غير منتظمة، نصفها يدل على التخلّي، والنصف الآخر على الغرق، قميصه ممزق من عند الكتفين وساعداه نحيلان من الجوع... جسده يحمل ذاكرة الجزرة، وأففاسه تخشى أن تتكرر.

الحزن، السخرية، الخوف، الجنون... كلهم يعيشون فيه لكن لا شيء منها يعرف اسمه

تقم مع نفسه:

ـ ماذا حدث؟ هل أنا في حلم؟ أتمنى أن يكون كذلك، أريد أن أنسى وعندما أستيقظ أجد نفسي في القبالة حيث لم يحدث شيء... أريد أن أنسى.

عقله لم يرحمه، في كل مرة يسمع فيها هتافات العمال تتردد في ذاكرته (يعيش السيد صمّاص) يصرخ ثم يضرب رأسه في الجدار يحاول إسكات ذلك الصوت:

ـ توقفوا... توقفوا.... السيد صمّاص لم ينقذكم توقفوا.

لكن الأصوات لم تتوقف فلم يكن هناك سوى صدى عذاباته في الزنزانة الضيقة، وضع قناعه قبل أن ينهار على الأرض، جسده ارتجف، ودموعه تساقطت حتى غلبه الإعياء ونام كطفل مدعور لجأ إلى النوم هرباً من كوابيسه.

في صباح اليوم التالي ومع بزوغ الشمس التي ألقت ضوءها الشاحب على قبيلة النار.

فتح باب الزنزانة تبعه صوت صفير بطيء ثم دخل أحد الحراس خطواته رتيبة وعيناه جامدتان على صمصام.

كان صمصام لا يزال نائمًا أو ربما غارقًا في وهم الهروب من واقعه. لكن مع اقتراب الحراس فتح عينيه ببطء.

رفع الحراس شعلة نارية قرية من وجهه وقال بحدة وهو يزيل قناع الاستنشاق عن وجهه:

استعد يا هذا، ستواجه اليوم ثقيل في قتال دموي.

رفع صمصام رأسه ببطء ونظر إليه بعينيه المتعبتين وبرغم جروحه أزاح قناع الاستنشاق بيده المقيدة:

ثقيل؟ ومن يكون هذا الثقيل؟

ضحك الحراس بسخراء:

يبدو أنك تحمل مصيرك فقليلون جداً من نجوا من تحت سيف ثقيل، حتى وإن نجوا لم يخرجوا سالمين.

صمصام بشغف:

— أنت لم تجني إهلاً لا حمق من هو نفيل.

اردف الحارس بغضب:

— نفيل هو ابن أخي الحوت الأحمر، ومن أقوى شباب قبيلة النار، هو قاتل الوحوش صاحب البأس والقوة نفيل بن خلدون، ويحتمل أن يكون الحوت الأحمر بعد عمّه.

ابتسم صمصام بسخرية وأجاب وهو ينظر إلى الحارس بطرف عينه:

— للأسف قد يكون اليوم يوم مصرعه... ثم اردف بضمكه هستيرية انصدم من سماعها الحارس حينها تجهم وجهه لكنه لم يردد، فك قيوده وألقى إليه بملابس جديدة قائلاً:

— ارتدها لكن لا تظن أنك تستطيع الهرب فالسجن محاط بالآلاف من الحراس وستقتل في اللحظة التي تفكّر فيها بالمحاولة.

تركه بعد أن أغلق الباب خلفه ليهمهم بسخرية:

— من هذا المجنون أقول له نفيل فيضحك.

نادى عليه صمصام مجدداً:

ـ يا هذا أخبرني لماذا هذه الأقعة هكذا ؟ أنا لا أستطيع حتى الحديث من تحتها !

توقف الحارس ثم التفت إليه ببرود، وقال بصوت أجوف :

ـ يفترض أنك على دراية بذلك، إذ أنك ترتدي هذا القناع منذ فترة ولكن سأوضح لك مدى تقدم شعبي بالمقارنة مع شعبك، يتميز القناع بخارجيته المصنوعة من الحديد، بينما يحتوي من الداخل على طبقات كثيفة من القماش تمند لتجاوز ما بعد الشفتين. أما الفتحتان الصغيرتان عند الأذن، فهما مخصصتان للتهوية، حيث نضع فيها عشبة الميرمية المحرقة لتنقية الهواء. هذه التقنية تضمن تصفيه الهواء الداخل من الملوثات والسموم، وقد أثبتت فعاليتها خلال العصر الذي نعيش فيه في هذا الوباء، الوباء الذي أهلك الكثير غيرنا بينما بقينا نحن أحياء.

قطب صمصام حاجييه وقال :

ـ كل هذا لا اريده ، أنا أريد كما ماتي الخاصة قبل أن أصاب بالجنون تحت هذا القناع...لقد علمت الآن أن شعبي قد تخاطي شعبكم بفضل كماماته، فلم يكن بحاجة لكم حديثه من تحتها .

لم يجبه الحارس هذه المرة، بل استدار وغادر.

بعد وقت قليل نهض صمصام ببطء لكي يرتدى الملابس التي احضرها الحارس بدأ بالقميص الأحمر ثم ارتدى البنطال الجلدي الضيق، بعدها شد القناع الذي يساعد على التنفس بإحكام ثم دش قدميه في حذاء مصنوع من الجلد.

بعد انتهاءه رفع القناع قليلاً عن وجهه تأمل نفسه للحظات قبل أن يغمغم:  
\_ تمتلك تلك القبيلة ذوقاً رفيعاً في اختيار الملابس.

تحرك في مكانه ليختبر مرونة البنطال حتى وقعت عيناه على ملابسه القدية الملطخة بالدماء، فالتحققها ببطء وتأمل بقع الدم المتناشرة فيها ليستنشق رائحتها بعمق، ثم همس لنفسه:

\_\_ أنا أعهد بهذا الدم أن أروي الأرض بدماء من تعددى على شعبي.  
مرت ساعة كاملة حتى فتح الحارس الباب مرة أخرى فرفع قناعه عن وجهه وقال:  
\_ اتبعني.

تحرك صمصام خلفه خطواته تتعدد في المرات بلا تردد فجأة وقف امام باب خشبي مطلى بلون فضي، ففتح الحارس الباب لتظهر غرفة الأسلحة.

قاعة واسعة سقفها مفتوح تتسلل منه أشعة الشمس البيضاء تلمع فوق المعادن الصدئة مانحة إياها وهجا زائفاً.

أشار الحارس بلا مبالاة:

ـ اختر سلاحك.

دخل وعيناه تمسحان المكان حتى وقعتا على رف حديدي قديم تصطف عليه مجموعة من السيوف، لكل واحد منها وزن وشكل وتاريخ محفور على نصله.

مرر أصابعه على مقابضها يستشعر بروقتها حتى استقرت يده على سيف لام رفعه بيضاء اختبر ثقله فوجده خفيفاً متوازناً كأنه صنع خصيصاً له.

تأمله للحظة ثم مرر أصابعه على النصل وقت بصوت خافت:

ـ هذا يكفيني.

وبعد وقت ليس بالكثير قاد الحراس صهصام عبر مرات السجن الداخلية ليتم وضعه في عريبة محكمة الاغلاق حتى وصل إلى ساحة المصارعة تلك الساحة بنيت على طراز ساحات المصارعة الرومانية القديمة، كان المكان سوداوي الشكل تغطي أرضيته الرمال الحمراء، ينكسر فيه نور الشمس الداخلة من السقف الشفاف.

ومن الأعلى كانت قبيلة النار قد احتشدت في المدرجات المرتفعة يهللون بحماس ويصفقون بانتظار بدء القتال، البعض منهم يحمل رايات مزينة برموز القبيلة، آخرون يقرعون الطبول.

في زوايا الساحة وقت تسع نساء بملابس رمادية فضفاضة، زين وجههن بمكياج غامق، يحملن في أيديهن مبخرات نخاسية يتتصاعد منها دخان اعشاب مثل المرمية وإكليل الجبل الذي ينثر في الهواء ليبقى الجو نقىًا، فلا يكون هناك حاجة لارتداء الأقنعة.

كان عرش الحوت الأحمر أقرب إلى الساحة من الجميع وأعلى منهم جميعاً العرش ضخم مصنوع من الحديد والخشب المطعم بالعاج، يظهر مزاج بين القوة البدائية والفاخمة الملكية.

جلس الحوت الأحمر عليه بتفاخر، يرتدى رداء قرمزي يحيط بجسمه العريض يتدلّى على كتفيه، على يمينه جلست زوجته التي كانت تردى وشاح أحمر يغطى وجهها.

وعلى يساره جلست سمراء الذي لم يظهر على وجهها سوى الجمود. فهي لا تكترث لكل هذا ولا تريد ان تجلس مع هؤلاء القوم المتعطش لدماء.

أشار الحوت الأحمر بيده فالتفت أحد الجنود وأسرع نحو بوابة من بوابات الساحة الست ففتح الباب ليقتحم المكان مجموعة من الرجال يجرّون وحشًا مجنّاً جسده شبيه بالثور لكن قرونه أكثر صلابة وطولاً، كان يزجر ويضرب الأرض بحوافره بعنف يحاول التحرر من القيود التي تكتبه.

وقف الجميع ينتظرون إشارة البدء في الطقس المقدس الذي يسبق المصارعة عندها  
نهضت زوجة الحوت الأحمر وهي تبتسم ابتسامة غامضة .

ثم رفعت يدها وبعدها ألقـت بمنديل حريري في الهواء.

في اللحظة التي لامس فيها المنديل الأرض اندفع رجل أسود الوجه عاري  
الصدر مسـكاً بسيف ضخم وبحركة خاطفة قطع رأس الوحش بضرية واحدة .  
تدحرج الرأس العملاق على الرمال الحمراء، بينما جسد الوحش ارتعش للحظات  
قبل أن ينهار تماماً.

علـت الطـبول أكثر وبدأ الجميع يـتمـ انشـوـدةـ ليـ أـكـالـ الطـقـسـ

(( تـيـجـنـاـ بـرـطـاقـ فـقـانـاـ عـقـدـرـ فـرـاهـ ... يـاـ دـمـ الـأـرـضـ يـاـ نـارـ السـرـدـ بـارـكـ  
قوـتـنـاـ وـأـقـتـلـ كـالـبـرـدـ ))

تقدـمـ الرـجـلـ نـفـسـهـ الـذـيـ قـطـعـ رـأـسـ الـوـحـشـ وـالتـقـطـ وـعـاءـ كـبـيرـاـ وـمـلـأـهـ منـ الدـمـاءـ  
الـسـاخـنـةـ الـتـيـ نـزـفـتـ مـنـ الجـثـةـ ثـمـ مـشـىـ نـحـوـ الـعـرـشـ وـانـخـنـىـ مـقـدـمـاـ الـوعـاءـ إـلـىـ  
الـحـوتـ الـأـحـمـرـ .

أخذـهـ جـلـمـودـ بـيـطـاءـ تـأـمـلـ اللـوـنـ القـانـيـ لـلـحـظـاتـ ،ـ ثـمـ رـفـعـ الـوعـاءـ إـلـىـ شـفـتـيهـ وـشـرـبـ  
مـنـهـ القـلـيلـ لـيـبـارـكـهـ ،ـ بـعـدـهـ أـخـذـ الـوعـاءـ الرـجـلـ ذـاتـهـ ،ـ مـرـةـ أـخـرىـ .

وإشاره جديدة تم سحب الجثة الضخمة خارج الساحة تاركة وراءها آثار الدماء التي غطت بقعة كبيرة من الأرض الرملية .

ثم فتح الباب الغربي فدخل صمصام مكبلاً من قدميه والسيف الذي اختاره يحمله في يده اليمنى.

أحاط به الحراس حتى وصل إلى قلب الساحة، ثم أطلقوا سراحه وتراجعوا للخلف.

تقدما إليه الرجل الذي قطع رأس الوحش رفع الوعاء المليء بالدماء وسكب بعضه على وجه صمصام، لينحنه بركرة القتال لم يتحرك صمصام ظل ينظر إلى الرجل بدھشة فلم يفهم الهدف من هذا الفعل، ثم بهدوء رفع عينيه إلى المدرجات المكتظة وبصوت عالي اخترق تهليل الحشود نادى بعد أن أزاح القناع عن وجهه:

— أين نفيل؟ ألم انه خائف ان يقتل.

ارتفع صوت التصفيق والتشجيع عندما ظهر نفيل من المدخل الشرقي مظهراً مخيف يحمل سيفاً فضي بينما يتفوق عن صمصام في الحجم والطول.

عند اقترابه تناول الرجل ما تبقى من وعاء الدم ولطخ به وجه نفيل لم يبُدُ على نفيل أي ازعاج ثم امسك الوعاء وارتشف ما فيه الى اخر قطرة وبيده الصلبة القاه بعيداً وقال:

أنا نقيل الذي تبحث عنه، ومن الأفضل أن تُعد نفسك لأن هذه الساحة ستشهد نهايتك.

نادي جلمود:

فليبدأ القتال.

اندفع نقيل نحو خصمه كوحش هائج ملوحا سيفه بضربة عمودية سريعة تفاداها صمصم فأتبعها نقيل بضربيتين إضافيتين. في حين تراجع صمصم بخفة مرة أخرى حيث كان يراوغ بهارة.

صرخ نقيل وهو يلهث:

يكفيك مراوغة وقاتل كرجل!

أجاب صمصم مبتسمًا :

إذا كنت تجيد القتال فلماذا تضيع ضرباتك سدى، يا من تتوهم أنك رجل؟

ركض نقيل بغضب بعد أن سخر منه صمصم، ووجه له ضربة خاطفة أصابت ذراعه اليسرى فبدأ الدم ينزف.

قال نقيل بخبث وهو يحدق في الجرح :

ضرباتي لا تذهب سدى بل تشق طريقها شقاً.

رسمت ابتسامة مأكراً على وجه الحوت الأحمر تظاهر أنه يحتفل بانتصار مبكر. لكن قبل أن يتمكن نقييل من توجيه ضربه أخرى تتمكن صهصام من استعادة توازنه وصدها بحركة سريعة. ثم قفز عالياً وضرب صدر نقييل بكلتا قدميه فسقط على الأرض كالصخرة ناثراً رذاذ الرمال حوله . حينها ظهر قلقاً شديداً في عين الحوت الأحمر فأمسك صدره كأنه يحاول كبح مشاعر الغضب أو الخوف.

وقبل أن يتمكن صهصام من توجيه ضربة جديدة لنقييل ، تدخل الجنود وأمسكوا بالسلسل التي تقيد قدميه، وسحبوها بعنف فسقط على وجهه حاول صهصام الوقوف ثم قال بشمئزاز: وهل هذا هو قتال الرجال؟ ما أراه هو مجرد عبث أطفال.

سرعان ما أثار هذا غضب نقييل ، الذي نهض وهو يتنفس بشدة. التقط رمحاً كان بجانبه ورماه نحو صدر أحد الجنود فاخترق جسده وسقط ميتاً على الفور.

ثم التفت إلى صهصام وقال بصوته مرتفع:

— أنا نقييل ابن خلدون، لا أختيئ ولا أضرب من الخلف.

ثم خلع درعه لاظهر عضلات صدره المفتولة والقى السيف من يده وهو يقول:

— تعالى ولتحسم الأمر كرجلين!

ابتسم صمصام. وزنع سترته بدوره، كاشفاً عن جسده النحيف لكن في نفس الوقت كانت عضلاته منحوتة مثل الصخر ثم رمي سيفه هو الآخر ورد عليه:

ليكن كما تريده مواجهة لا سلاح فيها فقط القوة والمهارة.

اندفع الاثنان نحو بعضهما كأنهما ثوران هائجان.

بدأ نفيل بضربة قوية بقبضته نحو وجه صمصام لكن الأخير تفادها ببراعة، وانحنى ليضرب بركته خصر نفيل مما جعله يتراجع خطوة للخلف.

أمسك نفيل بذراع صمصام وسحبه نحوه بقوة ثم أرسل لكمه هائلة إلى معدته، أوقعت صمصام على ركبتيه للحظة.

لكن صمصام استغل وضعه وأمسك برجل نفيل وسحبها ليسقطه على الأرض. اعترض ظهره سريعاً، وأمسك بذراعيه محاولاً تثبيته، لكن نفيل أطلق زئيراً كوحش بري واستدار بعنف ليرميه جاتباً.

ثم وقف ورفع صمصام عاليًا بكلتا يديه ملقياً إياه بعنف على الرمال.

سقط صمصام بجانب السيف الذي ألقاه سابقاً. نظر إليه للحظة ثم ابتسם وهو يمسكه والتفت بطرف عينه إلى نفيل ثم ألقاه بعيداً مرة أخرى وقال:

إن أردت المواجهة بشرف لن أحتج لهذا السلاح.

اشتعلت الحماستة في قلوب الجمهور. حتى سمراء ابنة الحوت الأحمر ظهر وكأنها اعجبت بهذا القتال ولا سيما ما فعله صمصام.

بدأ نفيل بضرية سريعة بکوعه إلى صدر صمصام، مما جعله يتراجع خطوتين. استغل ذلك وأمسكه من خصره ثم رفعه عاليًا كأنه قطعة أثاث وقدفه إلى الأرض بعنف. لكن صمصام رغم الألم نهض سريعاً وأرسل لکمة مباشرة إلى فك نفيل، تبعتها ركلة خاطفة إلى ركبته مما جعله يهتر.

استجمع قوته وانقض على نفيل بخفة واضعاً قدميه حول عنق خصمه حتى أسقطه أرضاً. ثم تسلق عليه وبدأ يوجه له اللکمات الواحدة تلو الأخرى على وجهه حتى بدأ نفيل بالتعب ولم يستطع النهوض مجدداً.

ساد الصمت في الساحة. الحاضرون في حالة من الذهول بينما الحوت الأحمر بدا محرجاً من خسارة ابن أخيه في هذه المواجهة.

لكن فجأة، وقف نفيل مرة أخرى وهو يلهث بغضب وبدون تفكير، أخرج مسدساً من جيبيه، وجّه فوهته نحو صمصام.

ارتفعت شهقات الناس، كأنهم توقيعوا صوت الرصاصية قبل أن تنطلق.

لكن قبل أن يضغط الزناد، دوى صوت الحوت الأحمر:

– توقف، قلت لك لا أريدك أن تموت.

يد نفيل اهتزت لكنه لم يُسقط المسدس، وقف معلق بين تنفيذ الأوامر وبين رغبته في محو الإهانة، وأخيراً بعصبية ظاهرة رفع المسدس إلى الأعلى وأطلق الرصاصة في الهواء، الجميع ظلوا في أماكنهم، لا حركة لا همس فقط العيون تدور بين نفيل وصمصام والحوت الأحمر، تنتظر ما سيحدث بعد ذلك. رفع الحوت الأحمر يده بيضاء، مشيراً نحو صمصام، ثم قال:

— هذه المعركة لم تنتهي بعد يا ابن مقرعون.

نظر صمصام إلى القناع الملقي على الأرض، التقطه بيضاء، ثم أعاده الجندي إلى زنزانته دون مقاومة.

نزل جلمود إلى الساحة وتوجه نحو نفيل:

— ماذا حدث؟ كيف هُزمت؟ لقد أحرجتني أمام الجميع!

رفع نفيل عينيه بالكاد وقال:

— أعلم يا سيدى لكنني أعدك سأهزمه في المرة القادمة.

ابتسם جلمود ابتسامة ساخرة وهز رأسه قائلاً:

— تحلم ، لم أُكن مرحباً بهذا النزال منذ البداية لكن أنت الذي أصررت على مواجهته! والأسوأ من ذلك عندما أمرتك ألا تقتله، عصيت أمري ورفعت السلاح في وجهه، أتعلم عاقبة من يعصي أوامر الحوت الأحمر؟

نظر نفيل إلى الأرض، وقال بصوت منخفض:

— نعم يا سيدي.

صمت جلمود لبرهة ثم قال :

- اذهب، أنت تعرف ما عليك فعله.

دخل نفيل غرفة العقاب حيث وقف الجنود في انتظار تنفيذ الحكم، ربطوه بالسلالس من معصميه ورفعوا جسده قليلاً عن الأرض.

بدأ أحد الجنود بالجلد، ضرباته تقطع الهواء قبل أن تنغرس على ظهر نفيل بقسوة، كل ضربة كانت تترك أثراً حتى امتلأ قميصه بالدماء.

الجلدة الأولى، تلتها الثانية، ثم العاشرة...

صرخاته خفت تدريجياً كأن جسده استسلم للألم، استمر العقاب حتى وصل إلى 130 جلدة. في النهاية فك الجنود السلالس ليسقط نفيل على الأرض وجسده يرتعش ودماؤه تلطخ قميصه، عاد إلى جلمود وهو يعرج بالكلاد تقوى قدماه على جمله، وقف أمامه بجسده الممزق بالخدمات والجروح

قال جلمود وهو ينظر إليه بازدراء:

— هذا جزاء من يعصي أمرى، أرجو أن تكون قد تعلمت الدرس .

أجاب بصوت مبحوح:

أجل يا سيدي تعلمته جيداً.

اقرب جلمود منه بعد ان ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه، ثم مد يده ورتب  
ملابس نبيل الملطخة بالدماء وقال له:

اذهب الان واسترح وسأرسل لك الطبيب، فأنا لا أريد من سمراء أن تراك في  
هذا الحال.

.....

ذهب جلمود بعدها الى القصر بينما الغضب يعصف به، هدر صوته في أرجاء  
المكان:

راجهة يا راجحة.

أسرعت زوجته نحوه بينما قلبيها ينبض باضطراب:

ماذا هناك؟

نظر إليها بصرامة وقال بحدة:

اجعلي ابنتك تستعد فستذهب إلى جدتها اليوم.

ارتكت راجحة قليلاً، لكنها لم تجادله، بل أسرعت إلى جناح ابنتها.

فوجدت سمراء جالسة أمام المرأة تعبث بخصلات شعرها وعندما لحت والدتها ابتسمت.

قالت راجحة وهي تراقبها بحذر:

والدك أمر أن تذهبي لجذتك اليوم.

أضاءت عينا سمراء بسعادة، لكنها سرعان ما مالت رأسها بفضول:

كيف حاله؟ أراه متورتاً بعد هزيمة ابن أخيه.

شهقت راجحة، واقتربت منها في سرعة ثم همست:

اصمتي يا حمقاء إن سمعك والدك تتحدىين بهذا الشكل، سيجلدك في غرفة العقاب بجوار نفيل.

اتسعت عينا سمراء من الدهشة:

ماذا؟ هل أدخله هناك؟

أومأت راجحة :

نعم لكنه لا يزيد أن يعلم أحد، وإن عرف أنتي أخبرتك فلن يرحمني.

ابتسمت سمراء بخبث:

لا تخافي لن أقول شيئاً لكن هناك مكان أريد الذهاب إليه قبل السفر.

(راجحة)

إلى أين؟

(سمراء)

سأودع صديقتي صهوة ولن أتأخر.

نظرت إليها والدتها بقلق:

وماذا لو لاحظ غيابك.

(سمراء)

أخبريه أنتي أخذت ثوبًا لجفيدة من أجل تصفيقه.

تهجدت راجحة، ثم أشارت إليها ياصبعها:

لا تتأخري.

ضحك سراء وقبلت خد والدتها:

نصف ساعة وسأعود.

كانت معتادة على الذهاب الى صديقتها في الخفاء فإذاها تهاب أن تصاحب ايها بأمر تلك الصدقة، فتحتال بالخروج إلى الخياطة، فهي تخشى غضبه فإذا علم أن الأميرة تهبط من مقامها لتخالط من هم دونه مقاماً، وترتبطها بهم صلة ودّ سيشعل البيت ولن يطفئه.

غير أنها كانت تخطط إلى أمر آخر حيث أنها كانت تخدع والدتها هي الأخرى ....  
خرجت من القصر بخفة، لكن بدلاً من التوجه إلى منزل صديقتها تسللت بحذر نحو سجن رهيدا الملائق للقصر، حين وصلت إلى البوابة، وقف أمامها أحد الحراس، تتأرجح في عينيه نظرة شلّ ثم أزاح قناعه وقال:

إلى أين تذهبين؟

رفعت رأسها بثقة مصطنعة وأجابت بلهجة آمرة:

أرسلني أبي

لماذا؟؟؟

يريدني أن أتعلم القسوة حتى لا يرق قلبي .

تردد الحارس لبرهه، لكن ذكر اسم الحوت الأحمر كان كافياً ليتراجع ملوحاً بيده أن تعبر.

خطت سمراء داخل الممرات الحجرية ثم توقفت لوهلة. نظرت إلى أحد الحراس المازين، واستغلت انشغاله بلحظات شرود فدّت يدها بخفة وانتزعت المفاتيح المعلقة بحزامه، ثم أخذتها سريعاً بين طيات ثوبها وأكملت بحثها بين الزنازين حتى وصلت إلى صمّاص.

كان مقيداً بالسلالس، رأسه منكس، وآثار الجروح تملأ جسده أخذت سمراء وجهها خلف شالها بعد أن رفعت القناع وقالت:

ـ كيف حالك؟

رفع صمّاص رأسه، عينيه متعبة من الألم وقال بسخرية بعد أن نزع قناعه:  
ـ كما ترين أسير خلف القضبان.

نظرت إليه بعينين يملأهما الدمع، وهمست:  
ـ قلبي الآن هو المسجون، وليس أنت.

تهد وقال:

ـ لطالما كان حبنا سراً فلماذا تخاطرين الآن؟ اذهبي قبل أن يراك أحد.

(سمراء)

ـ أبي يريد تزويجي من نفيل.

نظر إليها بحدة وسأل:

— وماذا قلت له؟

قالت هرارة:

— استسمحته أن أذهب إلى جدي في نيورا للتفكير، لكن قراره النهائي.

أشاح صهصام بوجهه بعيداً:

— ولماذا تخبريني الآن؟

أجابت وهي تشد قبضتها فوق قلبه:

— لأن لدي سبعة أيام فقط، إن لم تأتِ لتأخذني سأعود وسأتزوج نيل لـ  
حينها لن أعرض حتى لو اردد ذلك.

النفت إليها سريعاً:

— هل تزحين معى؟ لا ترين ما أنا فيه؟ والدك حطم حلمي، دمر كل ما كنت  
أطلع إليه قتل أناسا أبراءاً أرادوا فقط العيش بسلام والآن تطلبين أن أهرب  
معك؟ وكيف أنسى ما فعله بي؟

اتسعت عينا سمراء:

— ماذا فعل أبي؟

(صمصام)

ـ هاجم المزرعة التي أخبرتني عنها لقد أحرقها بن فيها.

(سمراء)

ولماذا... سأله في ذهول.

أغمض صمصام عينيه للحظة، ثم فتحهما:

- هذا السؤال يجب أن يقال له.

صحت قليلاً ثم تابع:

ـ هل أنتِ من أعلمته بأمر المزرعة.

شعرت سمراء وكأن خنجرًا عُرس في قلبها فتراجع خطوة وهي تهمس:

ـ أنا لا أعلم ما حدث، لكنني أرى انعكاسه في عينيك، ولن أبُرر شيء لم أفعله،  
لكن ما خذلني حقيقةً أنك شُكّكتَ بي، رغم كل الحب الذي وهبتك إياه.

أدانت ظهرها، ثم أخرجت المفتاح من تحت شالها، ومدّت يدها نحوه دون أن  
تنظر إليه:

ـ هذا هو المفتاح خذه وحاول أن تخرج.

صمت صمّاص طويلاً حتى نطق بصوت خافت:

ـ حسناً لماذا تبكين، تعلمين أن دموعك هي نقطة ضعفي، لطالما كانت كذلك.

لم تجده فقط بقيت صامتة، لكن جسدها كان يرتجف.

قال بصوت أكثر ليئاً:

ـ انظري في عيني وستعلمين لماذا قلّت ذلك.

نظرت اليه:

ـ أنا أسامحك فأنا اعلم ما في داخلك جيداً فقط لا تركني.

(صمّاص)

ـ أنا لن أتركك أبداً.

رفعت شالها فظهرت ملامحها التي كانت غارقة في الحزن، مدّ صمّاص يده من بين القضبان، ويرغم السلسل التي كانت تكبّله الا أنه تحمل ليسح دموعها بأطراف أصابعه:

ـ كيف أملك القوة للهرب، وأنا آري تلك الدموع؟

ابتسمت رغم أنها ووضعت المفاتيح في يده قائلة:

— لا تهرب حتى أغادر... وإن كنت تريديني ستجدني.

استدارت لتتركه لكن قبل أن تخطو بعيداً، هست:

— سلاماً الآن.

أغمض صمصام عينيه وقال في المقابل:

— وداعاً يا ندى الصباح..

في عصر نفس اليوم، جهز جلمود عربة مرفقة بسائق وسبعة جنود، كان يقف عند بوابة القصر، متتحفزاً، ينقل بصره بين الطريق الممتد أمامه وبين زوجته راجحة، بينما قال بنبرة صارمة:

— أين سمراء؟ و لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟

رفعت راجحة طرف عباءتها لتغطي توترها:

— لا تقلق لا بد أنها قد انتهت وستأتي في أي لحظة.

وما إن أنهت جملتها حتى لاحت سمراء من بعيد، تسير بخطوات سريعة، والقلق يتراقص في عينيها، ابتسمت راجحة، وربتت على كتف زوجها قائلة:

— ها هي قادمة.

لم ييُد جلمود مرثاحاً، بل استقبلها بسؤال مباشر:

لماذا تأخرت؟

أجابت سمراء، محاولة الحفاظ على هدوئها:

— ألم تخبرك أبي بوجودي عند جفيده، أردث تضييق فستانى.

رمقها جلمود بطرف عينه، وكأنه يلتقط خللاً في حديثها، ثم قال ببرود:

— وأين هو ذاك الفستان؟ لا أراك تحملين شيئاً.

ابتلعت سمراء ريقها بصعوبة، وحاولت إخفاء ارتباكاًها وهي تحرك يدها في الهواء، وقبل أن تجيب سارعت راجحة بالتدخل، محاولة إنقاذ الموقف:

— لابد أنها خشيت أن يتاخر الوقت، فتركت الفستان لتكمله الخياطة لاحقاً.

النفت إليها جلمود بنظرة صارمة:

— لم أطلب منك الحديث عنها.

عاد بصره إلى سمراء، منتظرًا منها إجابة مباشرة فهزت رأسها سريعاً وردت:

— نعم، هذا ما حدث يا أبي.

لم ييدُ مقتنعاً تماماً، لكنه لم ينشأ إطالة الحديث، فزفر قائلاً:

— ولماذا لا تأتي الخياطة إلى القصر؟ أنت ابنة الحوت، تأمررين وهو لا يطيعون.

خفضت سمراء بصرها للحظة، ثم رفعته بشقة وقالت:

ـ يا أبي ما طابت لي حياة في عزلة، إني أحب وجوه الناس، وأجد نفسي في دفء الحديث معهم... فلا تحرمني هذا النبض.

(جلمود)

ـ لن أناقش هذا الموضع الآن، لقد جمعت أمك ما يلزمك، والعربية على أبهة الرحيل تنتظر إشارة وداعك... اتمنى أن ترجعي بكامل عقلك.

تقدمت سمراء، واحتضنت والدتها بقوة، ثم التفتت إلى والدتها وعاشقها .

و قبل أن تصعد العربية، قال جلمود:

ـ ابعثي سلاي لأبي، لتضييف رابحة: ولا تنزعني قناعك إلا في بيت جدتك.

صعدت إلى العربية، وجلست في مقعدها وزفرت طويلاً، كما لو أنها أزاحت حمل ثقيلاً عن كاهلها، وبعد ان ارتدت قناعها، اطلقت القافلة نحو "نيورا" العربية كانت تهتز تحتها برقة، أما هي فكانت تحدق عبر النافذة بصمت، وعقلها يضج بذكريات اللقاء في السجن، بينما ملامح صحاصم العالقة في ذهنها. هل سيلتم بوعده؟ هل ستمضي الأيام السبعة كما تشتئي، أم أن القدر يخبي لها مفاجآت أخرى؟

وقف جلمود متوجه الوجه ينظر إلى العربية التي تحمل سمراء وهي تبتعد ثم التفت إلى حارس كان يقف خلفه في انتظار أمره:

هل أنت جاهز؟

أوما الحارس يأيّحاب، فدّ له جلمود رسالة مختومة، وهو يقول:

هذه هي لا تتأخر.

أخذ الحارس الرسالة، عقدها بحزامه ثم ركب جواده وانطلق خارج أسوار قبيلة النار  
ليتوجه بعدها إلى قبيلة الماء.

---

### ((الفصل الخامس: كرهت فتوأم))

في صباح اليوم التالي كان الجو بارداً، والرياح الباردة تتسلل بين أطراف قبيلة الماء، وفي سط الضباب الكثيف ظهرت هيئة رجل ملفوف بعباءة سوداء، خطواته البطيئة تغطي على السكون، وعبأته ترفف كجناح غراب فوق الطين الرطب.

وقف عند سور القبيلة المكون من اخشاب مسننة، ثم رفع رأسه قليلاً، وعيناه اللامعتان اخترقتا الضباب، قال بصوت غليظ بعد ان ازال قناعه:

أريد رؤية السيد مقرعون.

قبض احد الجنود على رمحه بحدر، وسألته بلهجة متوترة تظهر من تحت كامته:

من تكون؟ ولماذا تريد مقابلة الموت الأزرق؟

تقدم الرجل خطوة واحدة، حتى بات الضباب يغطي نصف وجهه:

أنا رسول الحوت الأحمر ولدي رسالة لا تنتظر فخذني إلى مقرعون أو دعني أرى  
غضب الحوت الأزرق يتجسد عليك أولاً.

ارتبك الجندي فأشار إلى الحراس بالدخول، وهو يحاول إخفاء قلقه. في هذا الوقت  
كان مقرعون يجلس على عرشه، يلتهي معطف ثقيل من الفرو، قطع صوت الجندي  
هدوئه وقال في انحنائه:

مولاي هناك شخص يحمل رسالة من الحوت الأحمر.

مقرعون بلهفة:

أدخله.

دخل الحراس رأسه منخفض قليلاً، وعباته مبللة برذاذ الضباب الصباحي. توقف  
على مسافة محسوبة ليتحدى بخفة، ثم قال بصوت متأنٍ:

كيف حالك، يا سيدي الحوت؟

لم تتحرك ملامح مقرعون، لكنه رد بصوت مشمسٌ:

حالتي ليست من شأنك أين الرسالة؟

مدّ الحراس يده إلى حزامه، وأخرج من جيبيه أسطوانة خشبية محكمة الإغلاق  
مختومة بختم أحمر قاتم. . تناولها مقرعون بهدوء ثم فكَّ الختم بأصابعه الباردة، وفتح

الغلاف ليكشف لفافة ورقية تحمل كلمات كُتبت بحبر داكن أشبه بالدم اليابس.  
ترافق ضوء النيران على ملامحه وهو يقرأ بصوت خافت:

إلى صديقي مقرعون الحوت الأزرق، صاحب السلام والأوهام. من جلمود،  
سيف الليل، مطفع النور، وموقط العدم إلى مقرعون ذا القلب الضعيف والعقل  
الشحيح.

أكتب لك بدماء غاضبة وريشة قُدت من عظام أعدائي. هذا الخبر الذي ترى نزفه  
ليس سوى ظل لما ينتظرك إن تجاهلت رسالتي. لدى الآن شيء يخصك، شيء  
ينبض بالحياة، شيء يدعى صمصام ابنك الذي ورث منك أكثر مما توقعت، وربما  
أقل مما كنت تمني.

توقفت عيناً مقرعون على هذا السطر للحظة ثم أكل القراءة، بينما اشتدت أصابعه  
حول الورقة:

سأكون صريحاً، كما اعتدث دائماً أن أكون. ابنك الآن بين يدي، قيد في رقبته  
وسيقُّ فوق رأسه كل لحظة تمر تنقص من حياته، وكل شهيق يلتقطه قد يكون  
الأخير... لا تفكّر كثيراً أنا سأمنحه الأمان لكن بثمن.

ارتفعت نظرة مقرعون ببطء، ثم زفر زفيرا طويلاً قبل أن يعود بعينيه إلى الرسالة:  
ومطالبي:

ألفا لترٍ من الماء.

- ثمانيّة علبة من الطعام المعلّب الخاص بأسلافنا.

- ستمائة كيلو من الحشرات المجففة.

- مائة من أندر جلود البحوش.

- خمسون رأساً من الماشية المهجنة.

- وبعض الأسماك من الجانب الشرقي من بحيرتك المعونة.

ولأن لم تفعل؟

فلتعلم، يا أخي أتي سأبعث إليك رأس صهاصم، محشوّراً في فك كليب ضارٍ من  
كلاي... لديك يومان لا أكثر.

تذكرة عندما تعتقد أنك في أمان، فاعلم أن ظلي أقرب إليك مما تظن.

صديقك وعدوك، جلمود الحوت الأحمر.

انتهى مقرعون من القراءة، وأغلق الرسالة ببطء لم يتغير وجهه، لم تهتز شفتاه، لكنه  
شعر بشيء يغلي داخله.

ثم التفت نحو الحراس الأسود وسألها بصوت هادئ:

هل رأيت صمصام بعينيك؟

اخنى الحارس برأسه قليلاً وأجاب:

ـ نعم كان مقيداً بالسلسل لكنه لم ينحز.

(مقرعون)

ـ أخبر جلמוד أن مطالبه ستكون عنده في الوقت المحدد.

ابتسم الرسول ابتسامة خبيثة، وكأنه قد انتصر، ثم استدار وغادر القاعة دون أن يلتفت، ومع تلاشى خطواته انجر غضب مقرعون، فضرب الطاولة بقبضته صالحًا:

ـ أحضروا لي صفيدر فوراً.

ثم خرج بعدها ولا شيء يوقفه سوى أفكاره المتصارعة قصد "ناشد" راعي المخازن الرجل الذي يعرف كل شبر في مخازن القبيلة، ويعرف كيف يحسب قوتها، ويقدر مدى احتمالية بقائها على قيد الحياة. حين وصل إليه، لم يقل كلمة، بل رمى إليه رسالة قائلاً:

ـ اقرأها.

أخذ ناشد الرسالة، قرأها بصوت خافت، ثم رفع رأسه بصدمة وقال:

— هذا..... هذا مستحيل! إذا أعددنا كل هذا وأرسلناه للحوت الأحمر، فلن تبقى لنا مؤونة تكفي الشتاء. البحيرات بدأت في التجمد الصيد شحيح حتى قبل الشتاء كان لا يوجد إسماك فالأسماك لم تعد تتحمل تلك المياه الملوثة وتموت، الخازن لن تصمد طويلاً، والقبيلة ستغنى جوغاً.

رد مقرعون:

— فناء القبيلة أهون عندي من أن يموت ابني، جهز المطلوب حالاً، وادفع العمال للعمل ليل نهار. أغروا المياه جهزوا كل شيء، وأظهروا للجميع أن الحوت الأزرق خاضع.

ترك المكان ومضى، تمايلت عباءته الثقيلة مع الريح، وهو يسير عبر الجسور الخشبية التي تفصل بحيرات القبيلة عن بعضها. وقف عند أحد其ها، واستند إلى الحبال المتشابكة، يراقب المياهظلمة أسفل منه كأن يعرف أنه لا خيار أمامه سوى إنقاذ صحمصام، لكنه يعلم أيضاً أن الخضوع لجلمود ليس خياراً.

لم تمر دقائق حتى ظهر قائد جماعة الوريد، "صفيدر" رجل طويل، عريض الكتفين، بشرته قمية تميل إلى السمرة وعيناه سوداوان يحيط بها كحل خفيف يزيد من حدة نظرته شعره جعد أسود، يتذلّى حتى كتفيه، ويتحرك مع خطواته الواقة.

تقدّم نحو مقرعون ثم توقف على مسافة قصيرة وقال بصوت منخفض وواضح:  
\_ أمرك سيدى.

(مقرعون)

\_ كيف حالك يا صفيدر؟

(صفيدر)

\_ بأفضل حال وكيف حال مولاي؟

توقف مقرعون عن الحديث لثوانٍ، ثم نظر إلى صفيدر نظرة لم يسبق أن رأها فيه  
من قبل وقال بصوت حزين:

\_ لست بخier.

اقترب أكثر، ثم أضاف:

\_ أعلم أنك وصمصام أصدقاء.

رد صفيدر دون تردد:

\_ وصمصام ليس صديقاً فقط، إنه أخٌ وأكثر فهو من أنشأ جماعة الوريد، وقدانا  
للقبض على اللصوص ومحاربة الوحوش. من جلب الأمان للقبيلة من زرع الحقول

مع العمال، من حمل السلاح لحماية الجميع الكل يحبه أنا وجماعتي مستعدون للموت من أجله.

ابتسم مقرعون بحزن عميق ثم قال:

— وهذا هو المطلوب.

صمت قليلاً قبل أن يضيف:

— جلمود يريد فدية ضخمة مقابل رأس ابني فدية لو دفعناها، لاتهت القبيلة جوعاً قبل أن ينتهي الشتاء وأنا لا يمكنني السماح بذلك.

نظر إليه صفير بتساؤل وقال:

— إذن لماذا أمرت بتجهيز الفدية؟

ارتسمت ابتسامة مأكراً على وجهه وقال بهدوء:

— لتكون غطاءً دع الجوايس يرون أننا نخضع لمطالب جلمود. أما في الباطن.

تقدّم خطوةً إلى الأمام، قبل أن يضيف بصوّتٍ صارم:

— ستدّهب أنت وجماعة الوريد لتحرير صهاص من محبسه وأي شخص يعترض طريقكم لا ترجموه.

لمعت ابتسامة واثقة على شفتي صفير وهو يقول:

— كَمَا تَأْمُرْ يَا سِيدِي .... سِيَكُونُ السِّيدُ صَمْصَامٌ بَيْنَا قَرِيبًا، وَسَتَدْفَعُ قَبْلَةَ النَّارِ  
ثُمَّ كُلَّ قَطْرَةَ دَمٍ.

مشى صفيدير سريعاً عازماً على تنفيذ المهمة دون تردد، وخلفه وقف مقرعون ينظر  
إلى الأفق البعيد عيناه لا تريان البحر بل حرباً تقترب...

---

عند الطرف الشرقي للقبيلة في غرفة عائمة على سطح الماء ، تجمع بعض  
المستشارين في ظلام الليل يضعون الكمامات على أفواههم ويرتدون الجلود الثقيلة  
على أكتافهم من البرد كانوا يحملون في قلوبهم الغضب والحنق، ويريدون زعزعة  
سيطرة مقرعون.

كان المكان معزولاً عن أعين الفضوليين، لا يسمع فيه سوى صوت الماء المتداوِح حول  
الأخشاب العتيقة التي تحمل الغرفة، كأنها تنفس معهم، تشاركم قلقهم ومخططاتهم.

جلس فيضون عند رأس الطاولة الخشبية، كفه تضغط على سطحها حتى أียضت  
مصالحه، عينيه ضيقتان بحدة وهو يقول بصوت مشحون:

— الوضع خرج عن السيطرة إذا استمعنا لحديث ذلك المغفل مقرعون، سنيوت  
جوعاً جميماً.

زهرون أمال رأسه قليلاً ونظر إلى بقية الرجال بنظرة تحمل مكرراً خبيئاً:

— سنوات ونحن نعمل، أيدينا حفرت الأرض، زرعنا الحقول، وحمينا هذه القبيلة بأجسادنا والآن يريد أن يفرغ المخازن من أجل ابنه؟ إنه يقولنا نحو الهلاك، وأقول لها لكم لن أسير خلف رجلٍ أعمى نحو المخفرة.

همهم بعض الرجال، بينما نظر آخرون لبعضهم بتردد.

رد رجل ذو لحية مشعثة قائلاً بحدور:

— لكن مقرعون لم يخذلنا من قبل، لم يقل نفسي نفسي حتى في أسوأ الأزمات. لماذا الآن تقولون هذا؟

فيضون لم يتنسم، لكنه أمال جسده للأمام، ضاقت عيناه أكثر وهو يقول:

— لأنّه الآن يقولها... لأنّه الان قال نفسي، لأنّه الآن يبيّعنا جميعاً من أجل ابنه!

هنا رفع الرجل صوته:

— ألا يحق له أن يفعلها ولو مرة، أليس ابنه ومن دمه؟

زهرون هز رأسه بيضاء، ثم، بصوتٍ أشبه برياح باردة تهبُ في ليلة ساكنه قال:

— دعوني أخبركم الحقيقة التي نعرفها جميعاً، لكننا نخاف مواجتها، لم تعد في الروح روح تُتجبرُ الجسد على الحياة. لقد نهشنا الزمن ومرقتنا الأخطاء. صرنا كطائيرٍ جريح، لا يستطيع الطيران ولا الهبوط، فقط يرفرف في الفراغ كنا نظن أن الحياة

ثُجبرنا على الاستمرار، لكنها خُدعة نحن من اجبرنا انفسنا على الاستمرار لأننا اردا ذلك. فلن تقود كالاغنام، لن نموت جوعاً وهو يساوم بأرواحنا إن كان يريد أن يفدي ابنه، فليفديه بنفسه أما نحن فلن تُدفن معه أحياء، فمن أجل روح واحدة تزهق الآلاف.

دَوْتُ أصوات التصفيق لكنه لم يكن تصفيق فرح، بل تصفيق غضب.

وقف الرجل الذي اعترض:

أنا لا أرضى بما تقولونه نحن أبناء شعِّب واحد وهو حوتنا!

ابتسم زهرون بسخرية وردد عليه ببرود:

لو كان أخي نفسه هو سبب جوعي، فلا أريد له.

تقديم الرجل الأول خطوة، وحدق فيه بعينين غاضبتين:

هذا لأنك عديم الأصل.

( زهرون ) :

لست عديم الأصل، لكنني متنع بالخوف، الخوف من جوع أطفالى الخوف الذى سيصرخ في أذني، ولن يسمعه أحد سواي، أما أنت، فاذهب إلى صديقك، فنحن اجتمعنا لنتقلب عليه ياخانع الجميع .

رفع الرجل رأسه بفخر، وقال بثبات:

ـ أشرف لي أن أكون خائناً بينكم، لكن وفيّاً لشعبي ولسيدي.

عندها تقدم فيضون بيضاء:

ـ من ليس معنا فهو علينا وأنت تعرف ما يعنيه هذا.

نظر الرجل إليه بارتياح وشعر بقلبه ينقبض، فتتم بقلق:

ـ ماذا تقصد؟

لم يُمنح وقتاً للتفكير، إذ اندفع زهرون من الخلف، وبحركة خاطفة، شق الهواء بسيفه لترهق رقبة الرجل وفي لحظة تدحرج رأسه على الأرض وسط ذهول الجميع.

مسح زهرون نصل سيفه ثم انحنى قليلاً نحو الجثة، وهمس ببرود:

ـ ما أقصد هو ما سمعته... عذرًا نسيت أنك لم تعد تسمع.

ثم التفت زهرون إلى الباقيين ورفع صوته بقوة:

ـ من معنا ومن معه؟

نظر الجميع إلى بعضهم البعض بتrepid، ثم ارتفعت أصواتهم في صوت واحد:

ـ نحن جميعاً معك!

عندما وضع فيضون يديه على كثني زهرون قائلاً:  
\_ أنا وأخي نريد المصلحة العامة فقط.

أوما زهرون مؤكداً:

\_ نعم يا أخي والآن الخطة واضحة سيرتدى الجميع كما ماتهم وسننطلق ليلاً دون أن يشعر بنا أحد سنتحدث مع الناس، وسنجعلهم يدركون الحقيقة فعليهم أن يعلموا أن الجوع سيقتلهم إن لم يتحركوا.

(فيضون)

\_ نعم يا أخي فمن حكم عليه بالموت، عليه أن يعرف سبب الحكم.

تحرك الجميع في صمتٍ عبر الجسور الخشبية، وانتشروا بين الأزقة المظلمة، يدقون الأبواب، يدخلون المنازل، وينشؤون الفتنة بين الناس.. همسوا في الآذان، أشعلوا الشكوك، وثاروا بذور الغضب في كل زاوية..

---

كتن مقرعون يجلس أمام طاولة خشبية، يلتهم الطعام بشرابةه وكأنه يحاول سد جوع لا ينتهي، جوع الخوف، جوع الفكر لم يكن يعلم أليها يلتهمه أولاً، يهرب في طعامه كما يهرب الحزين إلى نومه، جلست نوهاراً أمامه تحدق في الطعام دون أن تلمسه، حتى قالت:

أراك تأكل وكأنك لا تحمل أي هم في هذا العالم، كأنه آخر ما ستأكله.

رفع مقرعون نظره إليها للحظة، ثم رمى قطعة اللحم من يده بعنف على الطاولة،  
وقال بنبرة ثقيلة:

وماذا تريدين مني أن أفعل.

(نوهارا)

لا شيء فقط املأ بطنك الواسع.

(مقرعون)

أنت تعرفيني أكثر من نفسي هل أنا جائع؟

انحدرت دمعة على خدتها:

لا... أنا أعلم أنك عندما تحزن تأكل ، وعندما تتالم لا تستطيع أن تسيطر على نفسك.

(مقرعون)

ولماذا تقولين ذلك؟

(نوهارا)

لأني أخاف على ابني، أخاف أن أفقده كما فقدت طفلتي.

قبض على يده بقوة حتى كاد يكسر أصابعه:

تعلمين أنتي قلتها وسأقولها مجدداً سأعيده، حتى لو اضطررت لأن أجعل شعبي  
كله يصوم لكي يعود، حتى أنا لا أريد هذا الطعام، لا أريد أي شيء من أجل أن  
أستعيده ولكن لا تزددي من تعبي بذكريات فقدان ابنتي.

وضعت يديها على أذنيها وهي تهز رأسها بعنف، صارخة:

أرجوك .

ضاقت عيناه بالألم، وهو يقول بحدة:

ولم لا؟ وأنتِ من ذكرتني أولاً.

خفضت رأسها، وهمست بصوت متهدّج:

لم أقصد... .

نظر إليها نظرة قاتلة وقال:

هل تتذكرين كيف ماتت؟

أغلقت عينيها بقوة، ثم انفجرت الكلمات من شفتها:

نعم لقد ماتت من المرض ولم نستطيع علاجها، الطفيلييات نخرت عظامها، لقد كانت تشعر ببرد قارس فكنت أشعل لها النار وأتركها لأحضر الدواء، وعندما أعود أجدها تحرق أطرافها في اللهب من شدة البرد... أصابها السعال، وكانت تحاول تدفئة نفسها.. لم أعلم ما كان بها، لكن فجأة، انطلق الصراخ من قلبي، وانجرح حلقي من البكاء، وهي تموت بين يدي .

(مقرعون)

:وماذا فعلت حينها؟

غطّت وجهها بكفيها، وقالت بصوتٍ يكاد لا يُسمع:  
لم أكن أتحمل عذابها..

(مقرعون)

.في المقابل قتلتها.

(نوهارا)

ليس بيدي.

(مقرعون)

لقد كان في ذلك الوقت بيديك.

(نوهارا)

لقد كانت تتفقّيَ الدم، المرض نخر عظامها وكلما تحركت انكسرت أطرافها هي لم تعد تتحمل، فطلبت مني أن أخلّصها.

حدّق فيها بعينين جاحظتين، ثم قال بصوت مخنوّق:

ابنثنا كانت أجمل فتاة في القبيلة، كانت نور عيناي وانتِ اطفأْتِ هذا النور.

شهقت وهي تمسك برأسها كأنها تريد أن تقتلع الذاكرة من عقلها:

أرجوك لا تقلّها..

ضرب الطاولة بقبضته وصرخ:

بل سأقولها كنت أريدها، حتى لو لم ييق منها إلا العظام.

انفجرت بالبكاء:

أرجوك لا تذكّرني فانا أموت كل يوم، إني اسمع صراخها وهي تقول خلصيني يا أماه...لا...لا ابنتي لم ترحل، هي هنا اسمعها تنادي من جديد وتطلب الخلاص.

(مقرعون)

لا أريد شيئاً لا طعام لا نوم، لا راحة لا أريد إلا تكوني قوية حتى أرجع إليك ابني.

انفتح الباب فجأة، ودخل جرميد، أحد المستشارين، يلهث من الركض...  
(مقرعون بغضب)

— ما بك؟ وكيف تقتحم عشائني أنا وزوجتي؟  
مسح جرميد عرقه، وقال لاهثاً:  
الوضع سيئ لم أفكر حتى فيها أفعلاه، كان عليّ أن أصل إليك فوراً.  
(مقرعون)

ماذا هناك؟

(جرميد)

فيضون وزهرون.

ارتفع حاجبه، وسأل بصوت متوجس:

ما بهما؟

ابتلع جرميد ريقه قبل أن ينطق بالكلمات الحارقة:

لقد خانوك، يحرضون الشعب ضدك إن الأخوان يقودان اقلاباً، وينادون بعدم  
تجهيز الفدية.

ساد الصمت لثوانٍ ثقيلة، قبل أن يميل مقرعون برأسه قليلاً، ويقول بصوت خالٍ من الدهشة:

لطالما عرفت أن هذين الاثنين سيخوناني لكنني كنت أمنع نفسي من التصديق.  
وضعت نوها رايدا على قلبها وقالت بقلق:  
وماذا ستفعل؟

وقف مقرعون بعدها سحب نفسا طويلاً:  
فقط سأواجه.

تردد جرميد ثم قال محذراً:  
لن ينبعك أحد من المواجهة، ولكن المواجهة دون تخطيط لن تصلح.  
بعدها غادر الغرفة ولم ينضر الرد من مقرعون.

لكن ما إن مضت بضع دقائق حتى عاد، كان وجهه أشدّ شحوباً من ذي قبل،  
وعيناه تشغان بخوفي لامع، كأنهما رأتا ما لا يروى.  
لماذا عدت؟ سأله مقرعون.

أجاب جرميد:

لم أعد يارادتي، الناس يسيرون بأفواج عبر الجسور، يحملون الشعارات.  
الانقلاب نجح.....

وضعت نوهارا يدها على فمها من الصدمة، بينما نهض مقرعون ببطء، ونظر إليه  
نظرة طويلة قبل أن يقول:

تعال معي.

تمسكت نوهارا بكّه، وقالت بتسلّل:

لا تخرج.

سحب يده منها بلطف:

دعني أنا لن أترك كل شيء ينهار من بين يدي.

خرج مقرعون ووقف أمام الجموع التي تتحرك نحوه بينما كانت الهتافات تصاعد في  
القضاء:

لا نريد حوتاً خاصعاً.

لا نريد حاكماً ضعيفاً.

جوع الأمس يعود.

مات حوتنا اليوم، ولا نريده بعد الآن.

ثبت مقرعون بلا حراك، عيناه تجولان بين الوجوه الغاضبة، ثم رسم ابتسامة ساخرة كشفت عن فقد صبره.

رفع صوته فجأة، كي يسمعه الجميع:

ـ ماذا يا قومي؟ ترفضوني الآن؟ حسناً، ابتسموا، اضغطوا على صدوركم.. لم أكن اعلم انكم تأتون وتنهبون بعض الكلمات! لا أصدق ما أراه، أريد أن أقلع عيني من محجرها وأغسلها ثم أعيدها مكانها فقد يكون الذى أمامي الآن وهم.

تقدمت امرأة من الحشد وقالت:

ـ بل صدق.. فكلماتك العظيمة لا تشبع جائعاً ولا تغيث فاجعاً.

أمال مقرعون رأسه قليلاً، وقال بسخرية:

ـ وماذا أيضاً؟

صرخ رجل من بين الجموع:

ـ لن تخرج الفدية إلا على أرواحنا.

رفع حاجبيه، وقال مستفزاً:

ـ وماذا وأيضاً؟ أهروني

وقتها ساد الصمت ولم يتكلم أحد.

ابتسامة واسعة وقال في غضب عارم وهو يلوح بيده:

هل نسيت ما فعلته من أجلكم؟ هل نسيت ما فعلته عائلتي أتم كخنازير تعيش في الوحل، وتنسى أنها أم القذارة! هل نسيت أن جدي هو من حاكم؟ جدي الذي قادكم بعيداً عن المدن التي غزتها الوحش، وملأتها بمخلوقات البشر المتحولين.

نظر إلى الجموع التي بدأت تنصت بصمت متقطع، ثم تابع بصوت عميق، موجهاً كلماته للجميع:

هل نسيت أبي، الذي هزم فيل السرائيل صاحب الخمس رؤوس لواه لما بقيت القبيلة على قيد الحياة، ولتحولت الأرض إلى بركة من الدماء! هل نسيت أباً من زرع الأرض، وأطعمركم بيديّ؟ من صنع المزرعة؟ من ملاً الخازن؟ من جعل لهذه القبيلة عقلاً بعدما كانت تسير بلا هداية؟

تقدم خطوة إلى الأمام، وعيناه تتسعان بقوة، وجسده يزداد تماشكاً:

— ومع كل ما فعلته، ها أتم اليوم ترفضوني، في كل مرة كان يموت فيها الحوت الذي قبلني، كُنا نرضى بما يقرره القانون. ومن أراد القيادة، دخل المصارعة العادلة، وكل من وقف أمام عائلتي.. ففشل لم يستطع أحد هزيمتنا والآن، تظنون أنني سأسقط بسبب بعض الكلمات.

رفع يده مشيراً للجميع، ثم قال بصوت مليء بالثقة والتحدي:

ـ القانون هو من يقرر وأنا الموت الأزرق... لا أقبل بغيره أما عن المخازن، فهي ملكي، وأنا من ملأها بعرق جيبي فلن يعترض فليتقدم الآن ولبي وجهني.

---

### ((الفصل السادس: الذي لم أعرفه))

كانت هذه الليلة عاصفة بالأحداث، فقد واجه مقرعون الثوار بقلب صامد، قاوموا بكل ما أوتوا من قوة، لكن الهجوم كان كاسحاً، ولم يلبثوا أن انتكسوا وتراجعوا تحت وطأة كلماته . غير أن هذه الليلة لم تمر مرور الكرام على صمصام .

كان في زنزاته الضيقة يجلس وحيداً، عيناه تائعتان بين الجدران التي حفظ كل تشققاتها عن ظهر قلب، يرفع قناع الاستنشاق للحظات، يتنفس الهواء الملوث كمن يختبر قدرته على الاحتمال، ثم يعيده مجدداً قبل أن تخونه رئاسته. استمر هكذا لدقائق كثيرة عقله يغوص في دوامة لا نهاية لها، يفكر في سبيل للهرب.

وبحافة كسر صرير الباب الحديدي أفكاره، ودفع جسدّ منهك إلى الداخل، ارتطم الرجل بالأرض ولم يحاول النهوض. كان شاحباً، هزلاً، ثيابه ممزقة، وجسده مخططاً بنذوب حديثة تشبه خرائط من العذاب. انكمش في الزاوية، ضمّ ركبتيه إلى صدره، وتمم بكلمات غير مفهومة.

لم تمر سوى لحظات حتى عاد أحد الحراس، نزع القناع عن وجه وألقى أمامه ريشه ومحبّرة وبعض الاوراق المتائل اطرافها قائلاً ببرود:

طلبك.

ثم استدار عند الباب، وقبل أن يغلقه قال باشمتزار :

لولم تكن ستعدم غداً ما اهتم أخذ بك .

ظل الرجل صامتاً، يحدق في الورق كما لو كان آخر خيط يربطه بالحياة ثم مدد يده المرجفة، أمسك بالريشة، وبدأ يغمضها في الماء ثم بدأ يكتب ودموعه تحطلت بالحبر، ترسم كلمات قد تكون الأخيرة.

لم يكن صمصام معتاداً على هذا النوع من الصمت، فتأمل السجين الجديد حتى قال بصوت خافت:

ما بك، يا هذا؟

لم يرفع الرجل عينيه فوراً. بدا وكأن السؤال نفسه عبء آخر عليه، لكنه في النهاية قال دون أن ينظر:

وما شأنك أنت؟ دعني وشأني.

لم يكن في صوت صمصام استفزاز أو إلحاح، بل شيء من اللين:

رِبَّا أَمْلَكَ حَلَّا رِبَّا أَسْتَطِعُ مُسَاوِدَتَك.

ضحك الرجل بهستيره وكأنه سمع ما لا يعقل عنده، ضحكته تشبه شخص سقط في الماء ومازال يغرق:

— حل غداً سأعدم، والموت يلتف حول عنقي، لقد كتبت بيدي أنتي مجرم، أنتي لا تستحق الحياة، هل تملك حلاً لهذا؟ هل تستطيع تغيير نظر الناس إلّي؟

## هل یکنک تغیر قدری؟

الرجل افاجر ما يخربه وكان الصمت يمنعه من الحديث حتى قطع صاحب هذا الصمت..

نظر صمّام بفضول:

- وماذا فعلت لتصل إلى هذه النهاية؟

هذه المرة، أغضب الرجل عينيه، ابتلع مراته ثم قال:

- وما شأناك أنت دعنى أكمل ما بدأته فالحديث لافائدة منه الآن.

من السجان، دافعاً بصينية الطعام عبر القصبان. توقف لحظة، ثم قال وهو يرمي مقهاها بنظرة ساخرة:

- لا تُضيّع وقتك إنه أحمق، فالناس هنا تكرهه و يتحدثون عنه بالسوء فلن تخني من حديثك معه إلا مضيعة الوقت.

لم يلتفت صمّاص إلى السجان فوراً، أمسك بكلماته قليلاً، ثم رفع عينيه إليه وابتسم بهدوء:

- الحماقة الحقيقة يا صديقي، أن تلغى عقلك وتكره شخصاً فقط لأنك سمعت عنه سوءاً.

لم يقل السجان شيئاً ثبت كأن الكلمات علقت في حلقه، ثم أدار ظهره واختفى في الممر.

أما السجين، فلم يرفع رأسه، ظل يكتب دون كلمة، كأن كل ما تبقى له من العالم هو هذه الكلمات. تطلع إليه صمّاص وقال:

الكلمات يا صديقي كالحجارة إما أن نبني بها جسراً يقرّبنا من الآخرين أو نرجمهم بها دون سبب... أما أنا فأفضل الجسور.

رفع الرجل رأسه بتردد، عيناه متورمتان من البكاء، تنفس بعمق، لكن الكلمات ظلت عالقة في صدره ترفض الخروج وحين نطق خرج صوته متقطعاً، هشّا كأنفاس مختضر:

— اسي حيدر سمير العتيبي من مدينة حف، المدينة التي اطفأ فيها الحياة يوم سقطت النيازك على الأرض. لم يبق منها إلا القليل، وظننا أن النهاية قد حلّت، لكننا كنا مخطئين لقد كانت بداية أخرى، بداية أشد ظلاماً من أي شيء يمكن أن يتخيله عقل.

توقف لحظة ابتلع ريقه بصعوبة، وعيناه شاردتان في فراغ بعيد، كأنه يرى ماضيه يتجسد أمامه ثم تابع:

— حين عمّ الخراب لجأ أجدادي إلى برج قديم أخرجوا الجثث من داخله، حولوه إلى مأوى وعاشوا بين جدرانه الحجرية، يقتاتون على أي شيء حتى الحشرات والكلاب. لقد نجوا، لكنهم كانوا أمواتاً من الداخل. مئة عام مرّت ولدنا في ذلك البرج، حملنا عباء بقائنا وكأننا خطيبة يجب أن تُكفر.

أخذ نفساً مضطرباً، مسح دموعه بيده مرتعشة، ثم همس:

— لكن شيئاً تغير بعد كل تلك السنوات الجثث لم تتحلل فقد بقيت هناك هامدة، حتى بدأت تتغير. لونها تحول إلى أخضر باهت، لأن الحياة المسلوبة عادت إليها بطريقة مشوهة وفي ليلة مطرية، سمعنا الخطوات خطوات ثقيلة زاحفة، في البداية ظنناها أوهاماً، لكن حين نظرنا من النوافذ رأيناهم كانوا يتحركون. الأموات عادوا لكنهم لم يكونوا بشراً بعد الآن كانوا كوايس تمشي على الأرض.

حاصرُونا أغلقنا الأبواب دفعنا الأثاث أمام المدخل، تجمدنا في زوايا الغرف، نحاول الصمود لكننا كنا نعلم أننا نموت ببطء إما من الجوع أو من أنياب تلك الكائنات.

اهتر صوته عند الجملة التالية، اظهرت أنه على وشك الانهيار:

ـ كنت أرى زوجي وطفله يضعفان أمامي كانوا كل يوم يذبلان أكثر.

لم أتحمل ذلك وفي لحظة ضعف فتحت الباب هرعت إلى السطح بحثاً عن طعام لكنني... لكتي نسيت أن أغلق الباب خلفي..

ارتجف فكه، شهد كمن يختنق ثم قُطِّعَ صوت مكسور:

ـ عدت فوجدهم دخلوا.

انحنى إلى الأمام، دفن وجهه بين يديه ثم همس:

ـ رأيتهم ينهشون طفلي.

ارتجف جسده لكنه تابع كمن يعاقب نفسه بالنطق:

ـ كان يصرخ باسمي، لكنه لم يعد يستطيع الكلام.

رأيت زوجي تحاول حمايته بجسدها، لكنها سقطت أمامه.

لم أفعل شيئاً.

أنا السبب.

أنا من ترك الباب مفتوحاً.

أنا من قتلهم.

أخذ صمصام الورقة من يد حيدر، حدق فيها للحظة قبل أن يضعها جاتبا برفق. ثم رفع عينيه إلى حيدر، الذي جلس أمامه كظلي لإنسان، محاصراً بذنبه.

قال بهدوء:

ـ هناك جروح لا تلتئم، لكن هذا لا يعني أنها يجب أن تقتل.

لم يرد حيدر، لكنه نظر إليه نظرة طويلة يحاول بها استيعاب ما سمعه.

تابع صمصام:

ـ لا أحد يستطيع تغيير الماضي، لكن إن ظللت تسجن نفسك داخله، فلن يبقى منك شيء.

اهتركتها حيدر قليلاً يحاول مقاومة شيء ما، لكن مقاومته لم تدم طويلاً.

ارتجفت شفتيه ثم انحني للأمام

لم يتحرك صمصام على الفور. انتظر لحظة، ثم وضع يده على كتف حيدر برفق دون أن يقول شيئاً هو لم يكن بحاجة للكلمات في هذه اللحظة، لأن بعض الأحزان لا

تحتاج إلى نصائح بل إلى شخص يجلس بجانبك، دون أن يطالبك بالتوقف عن البكاء.

مرت ساعات ثقيلة، تكاد تدق على صدر الليل دقًّا، حتى إذا اقتربت عقاربُ الوقت من الثانية والنصف صباحًا، تحركت يدٌ في الظلام، تهُز كثيًّا ساكنا، وتهمس بصوتٍ خافتٍ:

ـ حيدر... استيقظ... حيدررر.

فتح عينيه بتناقلٍ، كمن ينزع من قاع حلم ثقيل، يتنفسه كالغرق، فإذا بوجه صهاص يطفو أمامه، يدق فيه بعينين لا تعرفان النوم.

تحدث صهاص بصوت خافت لكنه واضح:

ـ يا حيدر نحن البشر ضعفاء أحياناً نخطئ، وأحياناً يدفع من نحب ثمن أخطائنا ولكنك لم تخطئ... لم تكن تزيد أن تؤذيهن فكل ما فعلته كان بداعي الحب، بداعي النجاة. العالم الذي دمرته النيازك لم يترك لنا سوى الخيارات الصعبة وربما أنت ترى نفسك مذنبًا، لكنك كنت أباً حاول أن يحمي عائلته بأي ثمن.

رفع حيدر رأسه قليلاً، لا يفهم شيء بكلاد يستطيع ان يفتح عيناه:

ـ لكنني لم أحيمهم، أنا السبب في موتهن كل ليلة أسمع أصواتهم، أراهم يلومونني في أحلامي.

(صمصام)

العيش مع الألم ليس عقاباً بل فرصة... فرصة لأن تفعل شيئاً يجعل ذكراهم تستحق  
هذا الندم إن كان القدر قد سمح لك بالبقاء حياً بعد كل هذا، فربما يريده أن تكفر  
عن هذا الألم بطريقة أخرى.

(حيدر)

— كيف وقد اختار القدر أن أُعدم غداً؟

(صمصام)

— لن تُعدم لأننا سنهرب الآن.

حيدر في عدم مبالاة:

— لا أريد الهرب دعهم يقتلوني، فهذا مصيري ولا أرغب في تغييره.

ضاق صمصام ذرعاً بكلمات حيدر، اقترب منه وصفعه مرتين متتاليتين، حتى سالت  
 قطرة دم من زاوية فمه ثم صاح فيه بغضب:

— كفاك هراء! اسمعني ربما، فقط ربما، لم تكن زوجتك قادرة على الصبر. ربما هي  
من فتحت الباب. وربما كان القدر أقوى منك ومن قراراتك فلماذا تلقي كل هذا

العبء على نفسك؟ أنت لم تقتلهم بل قاتلت من أجلهم وإن كنت تحمل وزراً فهو عدم إنقاذ نفسك الآن.

ابتسم حيدر ثم نهض ببطء وسأل:

— كيف سنهرب؟

صھصاد وكأنه انتظر هذا السؤال. أخرج من جيئه مفتاحاً ورفعه أمام عيني  
حيدر:  
— هكذا.

كان يخفى في بطانة حذائه إبرة صغيرة، مسننة الأطراف، انزعها بخفة، وراح يحرر  
بها قدميه من الأغلال

ثم تحرك نحو الباب ينظر بحذر من بين القصبان الحديدية، متأكداً من خلو المر  
 تماماً من أي حركة. المكان هادئ لكنه لم يكن يثق في هذا الهدوء. أمسك المفتاح  
 وأدخله في الفقل، فأحدث صوتاً خفيفاً فتح الباب بحذر ودفعة ببطء شديد حتى  
 لا يصدر أي ضجيج.

ثم خرج بخطوات محسوبة، قدماه بالكاد تلامسان الأرض، تبعه حيدر يتلفت في  
 خوف كان المر مظلماً، تضيئه بين الحين والآخر مصابيح زيتية معلقة.

وينما هم يتسللون رصد صمصام جنديا يقف متاهبا، فقام بالإشارة لحيدر ليتوارى خلف الجدار.

تقدم هو بخفة حتى اقترب من الجندي من الخلف، وقام بحركة سريعة ليمسك برأس الجندي كما لو كان يكسر غصبا جافا.

(( طق ))

سقط الجندي على الأرض ميتا على الفور، وصوت ارتطامه بالأرض جاء مكتوما. انحنى بسرعة ليأخذ المسدس وخنجرا صغيرا معلقا في حزامه.

أشار لحيدر بالتقدم، وناول له المسدس قائلاً:

- هذا لك استخدمه بعقل فلن ننجو إلا إذا قاتلنا معا.

امسك بالمسدس ثم أحكم قبضته عليه وأكل السير خلف صمصام.

واصل الاثنان تقدهما حتى ظهر جندي آخر عند نهاية الممر. لم ينتظر صمصام، بل انطلق نحوه كذئب جائع، وفي حركة سريعة غرس خنجره في صدره طلق الجندي أينما خافتا وسقط على الأرض، لكن صمصام لم يتوقف، بل أشار لحيدر بسرعة ليسرع قبل أن يكتشف أمرها.

بينما كانا يركضان في مر آخر، بрез جندي ثالث، ورفع بندقيته نحو صمصام صارخا بصوت عالٍ:

- قف في مكانك، ولا سأمزق رأسك!

رفع صهصام يديه بيطء كعلامة استسلام، لكنه فجأة انحنى نحو الأرض، مما مكن حيدر من تسديد ضربة للجندي بمسدسها، فأطلق رصاصة أصابت رأسه مباشرة. سقط الجندي على الأرض بلا حراك، لكن صدى الرصاصة الأخيرة تردد في الممرات.

تسارعت أصوات الأقدام نحوهم من كل الاتجاهات، استولى صهصام على سلاح الجندي القتيل وتداري خلف الجدار، وأومأ لحيدر ليكون في حالة تأهب، اندلعت الأعيرة النارية دون اقطاع.

في خضم هذه الاشتباكات ظل صوت الرصاص يهون على المكان ويسقط العدو دون توقف، لكن مخازن الطلقات بدأت تنفد بشكل مقلق. ضغط صهصام على الزناد، لكن لم يسمع سوى صوت الخواه المرعب. دون تردد ألقى سلاحه جانباً، مركزاً نظره على الجثث المنتشرة حوله.

ثم استل سيفاً كان يحمله أحد الجنود الذين سقطوا، امسك مقبضه بإحكام ثم التفت إلى حيدر الذي يختبئ خلف عمود حجري فرأى مالم يتوقعه ، كان حيدر يتأمل الجثث، وقد فتحت شفتيه بصورة بشعة تم على شهوة ، حينها سمع صهصام هسات تكاد تكون غير واضحة في أذنه تقول:

لا تصدق .

اعتقد صمّاص أنه يتوهم، ثم حاول استعادة تركيزه ليلاحِق أفكاره بعقلانية.

فأشار إلى حيدر بشك وقال :

اترك المسدس الفارغ وخذ سيفاً من الأرض.

بعدها لم يتردد وباندفاعة حاسمة، انحنى واتبع جثة جندي سقط للتو، رفعها أمامه كدرع، ولم يكن في نيته الاحتفاء فقط، بل الهجوم كان الرصاص يخترق الجسد الميت، يخترقه ويُكاد يطال قلب صمّاص، لكنه واصل التقدُّم لأن لا شيء قادر على وقفه.

وحين اقترب بما يكفي من أحد الخصوم، رمى الجثة الثقيلة عليه، فسقط الأخير كان الموت باعته على حين غفلة وقتها لم ينحه حتى صرخة، بل انقض عليه مثل ظلٍّ غاضب، وغرس سيفه في عنقه. كان الدم ساخناً، والرغبة في النجاة أكثر سخونة.

النقط السلاح من يد الجندي القتيل، أفرغ رصاصاته القليلة في صدر آخر كان يحاول التصويب عليه، ثم زفر بصوتٍ مسموع، وقد غلبه اللهاث ثم التفت إلى

حيدر:

- ابحث عن جندي لم تُنسد ملابسه... لن نخرج من هنا إلا متخفين.

لم يضيّعا وقتاً في بين الجثث ظهرت فرصة للبقاء جنديان بدت ملابسها شبه سليمة لم يفكرا صمّاص وحيدر كثيراً خلعاً زيهما الملطخين وارتدياً زيًّا العدو، ثم سحب كلّ منها قناع تنفس ولصقه بوجهه.

بعدها سار الاثنان في الممر الطويل المؤدي إلى الخرج.

كل جندي متراكماً بهما لم يلتفت إليهما القناع والزي العسكري كانوا كافيين لخداع العيون المرهقة.

وحين بلغا بوابة السجن الخارجية، وقف حارس ضخم يعترض طريقهما، رفع يده مشيراً إليهما، صوته جاء حاد حين ينزع قناعه:

ـ عرفاً عن نفسيكما، أهيا الاثنان.

لم ينفعه صمّاص الوقت فلقد أخرج سيفه في ومضة، وبضربة قاطعة شطر الحارس من عنقه.

سقط الرجل قبل أن يكمل كلمته، بعدها مسح صمّاص نصل السيف في سترته: تفضل هذه هويتي. ثم التفت لحيدر بسرعة:

ـ افتح البوابة الآن.

ركض حيدر نحو العارضة الثقيلة، ودفعها بكل قوته، لكن الصرير جذب أنظار الجنود داخل الساحة.

ارتفعت أصوات الصراخ، وأطلقت أولى الطلقات.

لم يتردد صمصام ركض باتجاه الفرس المربوط عند البوابة، امتطاه في قفرة واحدة، ومد يده نحو حيدر.

— أمسك يدي صرخ... بينما الرصاص يتطاير حولها.

قفز حيدر وتمسك بذراع صمصام بكل ما أوتي من قوة، وانطلق الفرس بقوة خاطفة خارج الأسوار، والرصاص خلفهم يلهث دون أن يدركهما.

كان هذا السور الخلفي هو آخر حدود السجن... وآخر حدود قبيلة النار ومع سقوط حوافر الفرس خارج الجدار، لم يكن صمصام قد هرب من سجن فقط... بل نجا من قبيلة كاملة.

وعندما ابتعدا عن قبيلة النار بما يكفي، أبطأ الفرس قليلاً ليلتقط أنفاسه وبعد وقت قليل رفع صمصام القناع وقال وهو يبتسم:

— لم يكن الأمر سهلاً على الإطلاق...

مع بزوغ الفجر وصلا الاثنان إلى تخوم قبيلة النار هناك كان الضباب يزحف على الأرض كأفعى ضخمة والجبال تحيط بالمكان وشمس الصباح الشاحبة بالكلاد تبث

دقها الذي لم يعد له وجود لكنها كانت جميلة بشكل غريب محاولةً استعادة لونها المفقود عبر القرون.

أشار صمّاص نحو كهف عند قاعدة الجبل بالكاد يرى. كانت الرطوبة قد غلّفت مدخله بطبقة سميكة من الطحالب الخضراء. توقف عنده ثم استدار ناظراً إلى الحصان، ومرر يده على عنقه بحنان قبل أن يهمس له:

سامعني يا رفيقي، لكن هذا الطريق ليس لك.

رفع يده وصفع خاصرته بقوة فصهل الجواد وانطلق يركض بعيداً تاركاً أثر حوافره على الأرض المبللة.

راقبه حيدر وهو يستند إلى جدار الكهف، ثم قال متشككاً:

لماذا فعلت ذلك؟

ابتسم صمّاص ابتسامة خفيفة وقال:

إذا أردنا النجاة، فعلى أعدائنا أن يظنوا أننا سلكنا طريقاً آخر.

دخل الاثنين إلى الكهف ثم تتبعاه حتى أوصلهما إلى الجهة الأخرى من الجبل حيث ظهر ضوء خافت انبعث من بعيد.

قال صمّاص:

لنسתר هنا حتى يضيع اثنا .

اجاب حيدر وهو يتاءب:

أنا سأخذ للنوم.

(صمصام)

وأنا كذلك ولكن لا تنسى ان تضع قناعك حتى لا تختنق وانت نائم .

قال حيدر متوترا:

. اشكرك

(صمصام)

لا تشكري ولكن لا تنسى ، فنحن لم نمت هناك ولا اريد ان يموت احدنا هنالا... .

(حيدر)

انا لا اشكرك على القناع .

(صمصام)

عن ماذا تتكلم ..

(حيدر)

عن كل شيء فعلته لي أجل.

لم يرد صهصام بل ابتسם و استلقى على الارض بينما تبعه حيدر واستلقي بجواره ثم أغمسا أعينها، حتى غرقا في النوم وسط سكون الكهف العميق.

---

### ((الفصل السابع: صرخة في فم الهاوية))

في كهف آخر يبعد عن مخبئهم بكميات كبيرة من المترات كان نبيل يقف أمام طاولة خشبية ضخمة تتناثر فوقها أشلاء جثتين ممزقتين بغير الكتف المشاعل المعلقة على الجدران ، ينبعث منها ضوءاً خافقاً يكشف وجوه كائنات مشوهة يتجزأ هم خلف القضبان، تتحقق فيه تلك الكائنات بعيون واسعة بعضها مرتعب، وبعضها يكتم صرخته.

أنسرك نبيل شاطوره الضخم و رفعه عاليًا ثم هوى به على الأشلاء بقوه يقطعها بلا رحمة مما جعل الحمم تبرق أكثر و العظام تتكسر ، والدماء تتطاير لتلتقط وجهه وتغمر يديه حتى التصقت بجسمه كما يلتصق الدهان بالحائط ، لم يكن ينظر إلى ما يفعله، بل كان يهمس بغضب كأن الجثث التي تحت يديه تسمعه، يفرغ غضبه فيها كما لو كانت السبب في كل أوجاعه.

أنتا من جلدتاني ، صحيح لم تأمرنا بذلك لكنكما كنتا السبب أنتا من جعلتني  
أشعر بكل جلدة على جسدي، هل سألتمكم من الألم جعلتني أتذوقه ؟ كم من الصرخات ابتلعتها ؟ 130 جلدة.

رفع قطعة من الجثة بين يديه، نظر إليها ملياً ثم رماها جاتباً وكأنه يتخلص من ذكرى مؤلمة.

سأقطع كل جسد منكما 130 قطعة كل واحدة منها ستكون جزاء لما فعلتموه بي.

توقفت يده لوهلة ثم التفت نحو الجدار حيث الظل المهز بفعل المشاعل، وحدق بعينين تضيقان.

ـ أما أنت يا عمي العزيز..

ابتسم ابتسامة نائمة ثم اردد.

ـ سأعرف كيف أنتقم منك سأجعلك تشعر بما شعرت به حتى لو كان الثمن حياتك.

استمر في تقطيع الأشلاء حتى اندفع أحد رجاله إلى داخل الكهف خطواته المتسرعة تعكس التوتر والخوف من سيده.

وقف متربداً للحظات ثم قال بصوت خافت محاولاً أن يخفي ارتجافه:

ـ سيدني لقد وضعنا حيدر المتحول في زنزانة صمصام كما امرت وعندما يجوع سيعود إلى طبيعته الوحشية وسيهجم عليه.

لم يرفع نشيل عينيه عن اللحم الذي يقطعه، فقط ابتسامة باردة واستمر في عمله وكأنه لم يسمع شيئاً حتى همس بنبرة متلذذة:

— أحسنت صنعاً فعندما يتحول وحشى، سينهش لحم صهصام. يجب هو الآخر أن يشعر بكل شيء، كما شعرت أنا ولنرى كيف سيحميه الحوت الأحمر.

التفت إلى الرجل صاحب الخبر فرأى الذعر المرتسم على ملامحه، فاستمتع للحظة بذلك الخوف الذي يبعثه في قلبه.

بابتسامة مشوهة بين الفرح والحزن ابتسامة لا تخرج إلا من مجنون:

— أطعم وحوشى الآلية.

تسمر الرجل مكانه وتردد، لكن نظرات نشيل الثابتة لم تترك له مجالاً للرفض، تنفس بعمق ثم تقدم نحو الطاولة، عيناه تتنقلان بين اللحم المقطّع وسيده، وكأنه يخشى أن يكون هو الضحية التالية.

مد يده المرتعشة ورفع قطعة لحم لا تزال طرية لزجة بالدماء الدافئة، وببدأ يرمي القطع واحدة تلو الأخرى داخل القفص.

بمجرد أن سقطت القطع أمام المتحولين اندفعوا عليها بجنون، أصوات نهش اللحم وقزيقه ملأت الكهف. أنفاسهم اللاهثة مع أصواتهم المت渥حة جعلت الرجل يقف

متجمداً في مكانه، يراقب المخلوقات الجائعة وهي تلتهم الطعام بشرابة، كأنها لم تأكل منذ سنوات.

بينما في الخلف مكث نفيل يراقب المشهد وعينيه تتلقان بلذة خفية وهو يهمس لنفسه:

— هذه مجرد البداية.

---

نرجع إلى صهصام الذي ظل مستلقياً على الأرض، يبدو من هيئته أنه غارق في نوم عميق، أنفاسه هادئة وجسده مسترخي تماماً يظهر أنه استسلم لسبات طويل لم يكن هناك سوى ضوء خافت يتسلل من الجهة الأخرى وهدوء مطبق يلف المكان فيزيد من سكوته.

صوت اخبطط هدوء، يكتنفه ضوء خافت يجعل الثور ينام لكنه فشل في إخماد حيدره.

فالجوع كان ينهشه من الداخل، يدفعه إلى حافة فقدان السيطرة يدوي في كيائه، يذكره بطبعته الأخرى طبيعته التي لم يعد بإمكانه كبحها.

في البداية وقف يحدق في جسد صهصام المسجى أمامه، نظراته تتحول إلى جر متقد والرغبة تتوجه داخله كحريق جائع فجأة بدأ جسده في التحول.

بشرته تغير لونها تدريجياً إلى أخضر قاتم، كأنها جلد ميت خرج للتو من قبره، أصابعه بدأت تتضخم وأظافره امتدت بسرعة وتحولت إلى مخالب حادة لعابه سال ببطء من بين أنبياء التي طالت، وصدره أخذ يعلو ويهدأ مع أنفاسه اللاهثة.

انحنى على أربع، زاحفاً بهدوء كحيوان سلان لكن صوته كان كحشرجة ذئب جوعان. كلما اقترب، ازداد شوقة للدماء، حتى لم يعد قادرًا على كبح نفسه أكثر.

توقف مكتنه حدق في وجه صهصام الناعس، ثم فجأة أطلق زئيرًا حاداً واندفع نحوه بضم مفتوح مستعد بأنبياه الحادة تمزيق رقبته..

لكن قبل أن يغرس أنبياه في الحم افتحت عينا صهصام فجأة ، وفي لحظة خاطفة تحركت يداه بسرعة وكأنهما كانتا ترقبان هذه اللحظة.

خنجره الذي أخلفه طوال الوقت انطلق في هجوم مباغت ليخترق عين حيدر في هجوم مخطط.

انطلقت صرخة مروعة من فم المتحول فتراجع إلى الخلف وهو يمسك وبوجهه النازف، يتربخ من الألم لكنه لم يسقط بعد.

لم ينفعه صهصام أي فرصة قفز على قدميه وأحكم قبضته على خنجره، ثم بدأ يطعن بلا رحمة.

طعنة في الفخذ ، تلاها صرخة مكتومة.

طعنة أخرى في البطن، تلاها الدماء تنفجر.

طعنة في الصدر، تلاها الرجفة تزداد.

طعنة في الرقبة. العيون تتسع بربع.

ثم أخيراً.

غرس الختجر في الرأس بقوة كافية لجعل الجثة تسقط في سكون أبدى.

مات حيدر أخيراً بينما جسده المتحول بدأ يعود تدريجياً إلى هيئته البشرية، لكنه الآن بلا حياة مجرد قشرة فارغة لما كان عليه.

بصدق على الجثة ثم مسح خنجره بكمه، حدق فيه بعض الوقت قبل أن يخلع قناع الاستنشاق عن وجهه ويقول باحتقار:

—أظنني كنت ناماً؟ كنت أعلم بحقيقةك منذ البداية شراحتك للدماء، نظراتك الجائعة، كل شيء فضحك! حتى أنك بقيت بلا قناع لأكثر من ساعتين ولم تخنق في حين الإنسان العادي لا يتحمل هذا الهواء أكثر من نصف ساعه لقد شكت فيك، لكني كنت شكي بداخلني.

نظر إلى الجثة ببرود، ثم أضاف بصوت مغمور بالازدراء:

—والآن فهمت رسالتك التي كتبتها، حين قرأتها لم افهم المعنى جيداً.

ساحوني لم أستطع السيطرة على نفسي، خرجت لجوعي والجوع من قتلكم..  
لم تكن تتحدث عن وحش جائعة كنت تتكلم عن نفسك أنت من قتل زوجتك  
وأكل أبناءك، لا أحد غيرك.

ثم بصدق عليه مرة أخرى، وجلس بجواره ينتظر زوال الشمس...

---

هروب صمصام كان لبعضهم رحمه، وكان للبعض الآخر ناراً ثمّى  
نعم ناراً لأن الحوت الأحمر حين يعلم، لا يغضب، بل يشتعل، وما فعله صمصام لم  
يكن هروباً، بل شرارة أطلقت في نفق مليء بالديناميت، وقتها كان الحوت الأحمر  
جالساً على عرشه ساكتاً كجبل يغطي بركاناً في جوفه. حتى اندفع أحد الحراس إلى  
الداخل كان وجهه مسلوخ من الذعر، كأن الشياطين تلاحمه.

سقط على ركبتيه، وقناعه يرتجف في يده اليمنى، وصوته يخرج متھشرجاً، مكسوراً  
تحت وطأة الرعب:

ـ سيدى... صمصام... لقد هرب.

تناءب الحوت الأحمر بيظء وكأنه لم يسمع ثم مال برأسه قليلاً، ونظر للحارس كمن  
يتفحص فأراً محشوراً في زاوية من نظرات القط الشرس. وفجأة انقض عليه كالنمر،  
وقبض على رأسه بكل سهولة ثم بضربة واحدة، قطع عنقه بيده العارية.

تهاوى الجسد أرضاً والدم تفجّر كالنبع على الأرض الرخامية. حتى الحراس الآخرون في المشهد، وأجسادهم ترتجف من الرعب، لكن الحوت لم يكتثر. التقط سوطه الجلدي الطويل واندفع خارجاً كالإعصار، جمع كثيراً من الحراس معه وتوجه إلى السجن .

في الأذقة الضيقة بات يضرب كل من يراه في طريقه رجال، نساء، حتى الأطفال لم يسلموا. البعض فر إلى داخل البيوت، والبعض الآخر سقط أرضاً تحت وقع ضرباته الجنونية صار أشبه بكلب أصابه السعار.

ولماً وصل إلى السجن صرخته سبقت خطواته دأب الأبواب بقدمه وانطلق إلى الدهاليز المظلمة حيث احتشد حراس السجن وجعلهم يجتو على ركبهم .

كيف سمحت لهم بالهرب أينما الحمى؟

كيف أوصف لكم صوته في هذا الوقت ، استمعوا معي جيداً ها تسمعون صراخه هل هو صوت بشر، انت أينما القارئ نعم انت هل تحس به؟ إنه ليس مجرد صوت، بل صرخة مدوية كأنها فيضان ضرب صخرة ارتد للحظة ثم هدا الموج كأنه استسلم. لكن هل تستمر السكينة؟ لا يمكن فيعود الموج ليضرب نفس الصخرة من جديد، هل شعرت به لقد كان كذلك يصرخ قليلاً ويصمت قليلاً

لقد ضيّعتم فرصتي للسيطرة على مقرعون.

لُوح بسوطه في الهواء، ثم أشار بعنف إلى الجنود الآخرين:

ـ زيدوا الجلد أريد أن أرى الدماء!

هوى السيطرة على ظهور الحراس صرختهم ملأ المكان لكن هنا لم يكن كافياً لإطفاء غضب سيدهم. تقدم إلى الأمام يحذق فيهم عيون وحشية.

حتى عروق رقبته تنفس من شدة الغضب، ووجهه بزداد احمراراً كطماطم انفجرت بعد استواها.

ـ قولوا لي

ـ صاح أكثر

ـ كيف يهرب اثنان فقط من زنزانة محكمة الإغلاق؟ كيف يقتلان عشرين حراساً ثم يختفيان من بين متني جندي؟ هل كنتم نائمين... لقد ضيغتم هيبة سجن رهيداً.

نظر حوله إلى الوجوه المذعورة لم يكن بينهم من يجرؤ على الرد. اقترب من أحد الحراس المرتعشين، أمسكه من ياقه قميصه ورفعه عن الأرض بسهولة ثم همس في أذنه بصوت منخفض لكنه أشد رعباً من الصراخ:

ـ أخبرني هل كنت تتواتأ معهم؟

ـ لا لا يا سيدي

ثأنا الحارس لكنه لم يكمل كلمته حتى هوى عليه السوط، فشق صدره بجرح عميق جعله يطلق صرخة مدوية:

زيدوا الجلد...صاحت الحوت الأحمر مجدداً، وهو يدفع الجسد النازف بعيداً:

ـ لو لم أكن بحاجة لكم لذبحتكم جميعاً الآن، لكنني أريد كل شخص حي، حتى لو كان ضعيفاً لأننا سنحتاج لكل قوة ممكنة حين يهبط غضب مقرعون علينا.

التفت عاليتا ونظر إلى السماء عبر فتحة صغيرة في سقف السجن. كانت الشمس لم تغرب بعد ، لكنه شعر أن الظلام يقترب.. الظلام الذي سيحمله مقرعون معه حين يأتي.

ـ لا بأس ...تم بصوت خافت وشفتيه تنفرجان عن ابتسامة شرسه.

ـ إن كان يظن أن الهروب يعني النجاة فهو مخطئ ، لن يفر مني لن يفر أبداً.

ـ نفيلي...نادى على ابن أخيه

ـ لم يتأخر نفيلي وخرج من بين الحراس، انحنى قليلاً:

ـ نعم يا سيدي.

(جلمود)

ـ هل أرسلت الرجال؟

(فيل)

فعلت إِنْهُمْ يَفْتَشُونَ كُلَّ شَيْءٍ بِحَثًّا عَنْهُ.

(جلמוד)

— هذا لا يكفي أريده حياً أو جثة لا تهمني الطريقة، لكن لا أريد أن أسمع أعناداً  
اذهب بنفسك، وإن لزم الأمر فاقلب الأرض رأساً على عقب حتى تعثر عليه، فلم  
يولد من يهرب من سجني ولن يولد مجدداً.

انحنى نقيل مرة أخرى:

— أمرك يا سيدي.

استدار نقيل مغادراً بينا الأفكار تتصارع في عقله، لكن السؤال الأكثر إلحاحاً ويشد  
أفاسمه:

— أين ذهب صمصام؟ وكيف اختفى حيدر؟ وماذا حدث بالضبط؟

---

بعد ساعات طويلة من التخفي والهروب حين استقر الليل ولف الأرض بظلمته  
عزم صمصام أخيراً وخرج من الكهف ، كانت الحشرات تئن بين الصخور ويعلو  
العواء من أماكن مجهلة.

سار بجذر متوجباً كل نظرة قد تفضحه وبعد ساعات من السير الطويل سقط أخيراً على ركبتيه من شدة الانتهاك، كان يرتفع صدرة وينخفض ولا يستطيع أخذ افاسه.

رفع يده إلى وجهه ونزع قناعه، تنفس بصعوبة ثم تتم بتعب:

— سُمِّيَّتْ من هذا القناع لا استطيع ان اتنفس به ولا استطيع ان اتنفس بدونه ..

كان يئن من جروح جسده التي لم تندمل ، تجول عيناه في الظلام يبحث عن شيء لا يعرف ماهيته، لكنه كان واقفاً من وجهته.

— لا تخف يا صمّاص أنت ابن الحوت الأزرق.

قالها لنفسه كأنه يقنعها و يذكرها انه ليس كأي أحد فهناك من يعتمد عليه وهناك من يتنتظره.

رفع رأسه الى الاعلى وتأمل سحب صفراء تتخل سماء يزينها كواكب قريبه فجعلت من هذا الليل ميما ، شعر بدوران في رأسه وأحس بأن كل شيء يسحبه الى الجنون ، ثم أغمض عينيه للثانية وزفر زفرا قوية ليقول بعدها:

— سمراء تنتظرني عليّ أن أحتمل من أجلها.

حاول أن ينهض ، لكن ساقيه خانتاه ، فسقط على ركبتيه من جديد وارتطم كفه بالصخور الرطبة ، أغلق عينيه للحظة فعاد به الزمن إلى ذلك اليوم.

كانت الشمس تميل إلى المغيب حين رأى وجهها للمرة الأولى ..

قالت له بيوحنا بابتسامة ساخرة، ويدها على خصرها:

— من تكون يا هذا؟

نظر إليها ببرود، كأنه لم يفهم السؤال ثم رد :

— أنت لا تعرفيني !!! أنا صمصم ابن الحوت الأزرق.

ضحكـتـ لـكـنـ ضـحـكـتـهـاـ لـمـ تـكـنـ خـالـيـةـ مـنـ التـهـكـ،ـ وـكـانـهـ تـنـسـلـيـ بـرـؤـيـةـ ثـبـاتـهـ المصـطـبـعـ:

— لا... لم أسمع عنك من قبل، ولن أود حتى لو كنت وسيئاً.

ثم اقتربـتـ مـنـهـ قـلـيلـاـ رـفـعـتـ حاجـبـهاـ وـقـالـتـ:

— بالـمـنـاسـبـةـ أـنـ سـمـراءـ اـبـنـةـ الحـوتـ الأـحـمـرـ.

كان يمكن لـصـمـصـامـ أـنـ يـرـدـ بـسـخـرـيـةـ مـاـثـلـةـ أـنـ يـشـيـعـ بـوـجـهـهـ،ـ لـكـنهـ لـمـ يـفـعـلـ.ـ شـيـءـ فـيـ عـيـنـيهـاـ نـبـتـهـ فـيـ مـكـانـهـ،ـ كـانـهـ كـانـتـ تـحـمـلـهـ بـيـنـ نـظـرـاتـهـ إـلـىـ عـالـمـ آـخـرـ،ـ عـالـمـ لـمـ يـدـخـلـهـ مـنـ قـبـلـ.

ابتسمـ حـينـ اـفـاقـ مـنـ عـقـلـةـ التـائـهـ مـعـهـاـ وـقـالـ:

— والـآنـ وـبـعـدـ كـلـ هـذـهـ السـنـوـاتـ،ـ ماـ زـالـ اـسـمـهـاـ يـضـرـبـ فـيـ صـدـريـ كـنـبـضـ ثـائـرـ.

وضع يده المرتعشة على قلبه ضاحكاً رغم الألم:

ـ آه يا سمراء، آه يا حبيبي المشاكسة.

ثم همسَ كلامه تتسرب من بين ضلوعه:

((قررث في نفسي ألا ألتقي.

ومع كل بُعدِ زاد اشتياقي

نَفَرَ قلبي كغضنٍ يابسٍ

فأين عقلٌ قبل احتراق ))

ـ أين أنت فقد جعلني حبكِ أقول الشعر... تحامل على نفسك يا صمصام هيا قم ...

قالها وهو يزحف فوق الأرض الوعرة.

زمجرت الرياح من حوله كأنها تحاول إيقافه لكنه واصل رغم أن جسده كان يخذه في كل خطوة.

سقط مرة أخرى فنظر حوله بعينين نصف مغلقتين. لا طعام، لا ماء، لا شيء سوى الصخور الباردة والأرض القاحلة.

دفع نفسه نحو صخرة كبيرة رفعها بيضاء فوجد تحتها ديدانًا صغيرة ، تردد لوهلة لكنه أمسك واحدة، وحدق فيها قبل أن يدفعها إلى فمه ويمضغها بشراهة.

تم و هو يتلعلها بصعوبة:

— سأصل إليك يا سمراء لن أتحمل هذا الاحتراق طويلاً.

وفجأة كما لو أن المدى قد انشق ظهر أمامه خيال غريب، ملامحه ضبابية، لكن حضوره كان طاغياً كانت امرأة أو رعما لم تكن، كظلال متوجة ترتدي شالاً أسود يلف جسدها بالكامل، ينساب كالدخان ويندوب في ظلمة الليل. لم تكن تتحرك لكن الهواء من حولها يرتجف. وقف صمصام مدهوشًا ، جسده يشعر رغم أن الرياح لم تكن باردة حاول أن يتكلم، أن يسأل من تكون لكن الكلمات لم تجد طريقها إلى لسانه.

حتى تمكن منه الفضول، لكن الرهبة أثقل من أن يتبعاها تساؤل بصوت خرج مرتعشاً رغم محاولته إخفاء ارتباكه:

— من هناك؟

لم يجبه سوى الصمت حتى كاد يظن أنه يتخيّل الأمر لكنه لمح تلك الابتسامة الغامضة التي ارتسمت على شفتيها قبل أن تتلاشى في العتمة من جديد.

كأنها كانت جزءاً من الريح، أو سراياً عابراً لم يكن له وجود حقيقي رمش بعينيه وأخذ نفساً عميقاً محاولاً استعادة تمسكه، لكن قبل أن يستدير تماماً، شعر بأنفاس باردة تلامس عنقه، وسع الهمسة تتردد في أذنه خفيفة كنسيم الليل:

ـ أنا ميساس.

ارتعدت أطرافه من هذا الصوت الذي جاءه ، فتساءل وقد تجددت الحيرة في  
صدره:

ـ ماذا تريدين مني ؟

لم ترد عليه بل اختفت مرة أخرى، ثم عادت بشكلٍ مفاجع، محولة على جناح  
الليل وهبطت أمامه، قالت بصوٌتٍ مخيفٍ قد ملأه الشوق :

ـ قلبي من جاء بي، فأنا من الجنيات العاشقات.

غمرت الدهشة قلب صهصام وتلعمت كلماته بينما يحاول استيعاب ما سمعه:

ـ جنتيه؟ هل أتم حًّا موجودون؟

اجابت بسخرية:

ـ وكيف لا وانا الان امامك.

(صهصام)

ـ ولماذا انا؟

(ميساس)

ولماذا ليس أنت ؟

(صمصام)

اقصد لماذا اخترتيني.

(ميساس)

انا لم اخترك بل اجبرت عليك.

سؤال بفضول:

ماذا تقصدين ؟ ؟

اجابت بحزن:

هل البشر يسألون قلوبهم عندما يعشقون لماذا عشقتهم، فقط يشعرون به، ثم يتبعونه ويفعلون ما يستطيعون حتى يحصلون على مراداهم. لكن انا عشيقي مختلف، عشيقي لك لا يتبعه شهوه مجرد من الزوات وكل شيء...

اقررت منه حتى أصبحت أنفاسها تلامس بشرته:

لا ترفض حبي.

تجمد في مكانه كلماتها كانت وكأنها أحجية لا يفهم كنهها ويردد في نفسه:

أنا لا أستوعب ما يحدث، كي أرفض أو أقبل...ولكن أنا أحب..

(ميساس)

ابنة الحوت الأحمر سمراء.

نظر إليها بذهول ثم سألاها :

كيف تعرفين

(ميساس)

ألم أخبرك أنتي جنتيه ؟ لقد أحببتك منذ زمن بعيد وأعرف عنك كل شيء.

(صمصام)

تعرفين عني كل شيء ؟ ؟ ؟

(ميساس)

نعم كل شيء ما تحبه، ما تكرهه، ما تفعله، وحتى مالا تفعله أنا لم أترکك أبداً ولكنك لا تراني، أنا من رفعت يد نفيل فأطلق النار في الهواء. كان يrepid قنالك ونداء الحوت عليه لم يكن ليمنعه، ولكنني من منعت ذلك، وإنما من همست في اذنك وحدرتك من حيدر حين قلت لك لا تصدق..

ولماذا ظهرتى الآن ؟ ؟

— لأنني شعرت أنك بحاجة إلى... لأنك وحيد.

صرخ في وجهها:

— أنا لست بحاجة إلى أحد ابتعد.

ثبتت ميساس لحظة ثم انفجرت دمعة من عينيها فقالت في حزن:

— حين تحتاجني رد اسمي مرة وعكسه مرة أخرى.

قل ميساس ساسمي جنية الأرض والطين الحب يسري، والقلب سليم..... سأكون هناك حين تفتح قلبك ولكن لا تنسى، ميساس ساسمي جنية الأرض والطين الحب يسري والقلب سليم..

ثم تلاشت كالعطر الذي يذوب في الهواء.

تركته في صدمة لا تنتهي عينيه تتسع في النظر حوله بحثاً عن تلك الجنية التي كانت تطوف حوله منذ قليل، لكن لم يجد شيئاً لم يكن هناك أثر لميساس كأنها لم تكن سوى خيال، أو حلم عابر ترك قلبه في حالة من التيه ليظل يسأل نفسه، هل كانت تلك اللحظات حقيقة أم مجرد أصداء واهية؟

---

((الفصل الثامن: احلام الغرق))

وصل صفيدير، قائد جماعة الوريد، إلى منطقة نائية عند أطراف قبيلة النار. لم تكن هذه الأرض تابعة لقبيلة، ولكن السكان هم من كانوا اتباعاً لها، كانت خارج أسوارها والبيوت لم تكن بيوتاً بل كوماتٍ من الحجارة المكشدة بعشوشائية، مغطاة بأقمشة ممزقة بالكاد تحجب الرياح القارسة. في الزوايا وقف الأطفال حفاة، وجوههم مغربة يشربون من برك وحل تجمعت أسفل الجبل، حتى أنهم اعتادوا على الطين وأكله كي يطفئوا نيران الجوع.

قبيلة النار لم تسمح لهم حتى بأخذ أقنعة الاستنشاق، ولهذا كانوا يعطون أنوفهم بقطع قماش رطبة، لكنها لم تكن كافية. الموت هنا ليس حدّاً صادماً، بل زائراً متعدد يأتي على فتراتٍ ليحصد أرواح من ضاقت صدورهم ولم يعد بمقدورهم أخذ نفس آخر.

عيناً صفيدير كانت تتنقل بين المشاهد نساءً يحملن جراراً ممتلئة بالماء الموحّل، رجالٌ يجلسون في صمتٍ مميت كـما لو أنهم ينتظرون شيئاً لن يأتي أبداً. على الجانب الآخر، جثة لرجلٍ طاف عليها النباب، ملقاة على التراب ولم يجد أحدٌ ضرورةً في دفنه.

أطلق صفيدير زفة طويلة وهو يشق طريقه بين الأزقة الضيقة حتى توقف أمام بائع يجلس قرب كومة من الأقمشة البالية. كان رجلاً في منتصف العمر، عيناه غائرتان وملابسه محترئة نظر إليه صفيدير للحظة، ثم قال :

السلام عليك.

رفع الرجل رأسه ببطء يتأمل هيئته للحظات، ثم قال بحذر:

وعليك السلام، ملابسك وكماتك تقول إنك من قبيلة الماء، ما الذي تريده؟

(صفيدر)

أريد خدمة.

ضحك البائع بسخرية ومسح يديه برداءه المهرئ، ثم قال:

وأنا لا أقدم خدماتي لأحد، خصوصاً إن كان من قبيلة الماء.

لم يتغير وجه صفيدر، بل أخرج من جيده كيساً صغيراً، داخله كسرة من الطعام الجفف، رماه في الهواء ثم التقشه مجدداً، كأنه يلعب بطعم في صيد.

الخدمات لا ثرثرض عندما يكون البطن جائعاً، في النهاية الطعام هو من يُملّى الأوامر والجائح ينفذ.

تبعد البائع الكيس بعيداً، وبدت رغبته واضحة رغم ظاهره باللامبالاة، استمر صفيدر في لعبته، يقذف الكيس ويلتقطه، قبل أن يتوقف فجأة وينظر إلى الرجل ويقول:

— لم تقل لي بعد هل ستأخذ الطعام، أم ستمسك بهبدأ نعلم أنا وأنت أنه لا وجود له في كتابك؟

البائع ضحك بصوت خافت وهو يمد يده بسرعة، يلتقط الكيس قبل أن يسقط مرة أخرى في يد صفيدير، فتحه بهم ورفع القماشة عن وجهه ليأكل كالجنون، يزدرد الطعام كأنه لم يذق شيئاً منذ أيام.

وينما كان يضطجع بصوت مسموع، رفع رأسه وقال بين لقمة وأخرى:

— قل ماذا تريدين؟

اقترب صفيدير قليلاً، خافضاً صوته حتى لا يسمعه أحد:

— أبحث عن طريق إلى داخل القبيلة سمعت أنك تعرف أكثر من مجرد البيع.

توقف البائع عن الأكل لوهلة ثم نظر إلى صفيدير بطرف عينه، وابتلع ما في فمه وقال بصوت خافت:

— الطرق إلى القبيلة ليست مجانية والكلام فيها قد يكلفني أكثر مما دفعت.

مسح شفتيه بكم قبيصه، ثم أضاف بنبرة أكثر حدة:

— و لماذا تريدين الدخول؟ فلا أحد يغامر بالاقتراب من سور قبيلة النار إلا إن كان يبحث عن المتعاب، أو كان لديه سبب أقوى من الخوف.

رمقہ صفیدر بن نظرہ جامدة وقال:

— أريد السجن.

قهقهہ الرجل بسخریة، وهو يضخ طعامه دون اکتراث:

— كان يجب أن أعرف ، شخص من قبيلة الماء لا يمكن أن يبحث إلا عن السجن، حيث ابن سيده مسجون.

ضاق بعينيه وسأله:

— كيف عرفت ؟

مسح الرجل فمه بطرف كمه المزق وقال:

— قد تكون منبوذون من قبيلة النار التي تخلت، لكن لا يزال لي عيون هناك  
تخبرني بكل شيء ولهذا أتيت إليك أليس كذلك ؟

(صفیدر)

- لن انكر لو لم أجده فيك رجاء لما أتيت إليك، ولكن ماذا تعلم عن صحمصام ؟

ابتسم الرجل ثم قال:

— أخباره ملأت القبيلة رغم أنه ابن عدوهم ولكنه قد أصبح عندهم رمزاً للشجاعة  
او التهور.

صفيدر وعيناه تلمعان بشوق:

ماذا فعل؟

تابع الرجل:

— هزم نبيل ابن أخي الحوت الأحمر في المصارعة وليس هذا فقط، فبرغم جروحه وتعبه، هرب من السجن الذي لم يخرج منه أحد من قبل لقد فعل المستحيل.

اتسعت عينا صفيدر وقال بذهول:

— تقول إنه هرب؟

(الرجل)

— نعم هرب ولا تسألني عن هرويه فلا أعلم كيف فعلها، لقد صنع ما عجز عنه المئات قبله فجميعهم انتهى بهم الأمر جثةً في ذلك السجن.

ابتسم صفيدر بما سمعه ولكن قبل ان يعبر عن فرحته، قاطعه الرجل بستهزاء قائلاً:  
لا تفرح كثيراً فسيدك اشعل غضب جلمود و اطلق جنوده للبحث عنه في كل مكان.

صمت صفيدر ثم استدار ليغادر.

ضحك الرجل بسخرية وقتم وهو يضفي ما بفمه:

رجال قبيلة الماء ..... بل قبيلة الحمقى.

توقف صفيدير عن السير ثم التفت إليه بيضاء وخطا نحوه بهدوء وفي لحظة، انطلق نصل سيفه بقوة مخترقاً صدر الرجل حتى خرج من الجهة الأخرى.

شhec الرجل بينما ارتعش جسده للحظات.

صفيدير سحب السيف بيضاء ثم انحنى وأخذ كيس الطعام الذي لم يتبق فيه سوى فقات.

تأمله قليلاً ثم نظر إلى الجثة الملقة أمامه وقال:

عندما تذكر فرداً من قبيلة الماء بسوء تأكّد أنه لم يسمعك.

حين استدار مرة أخرى للمغادرة، لمح طفلاً صغيراً يراقبه بعينين متسعتين من الذعر. توقف للحظة، ثم انحنى وربت على رأسه، ومد له كيس الطعام تردد الطفل في البداية لكنه سرعان ما رفع القهاشة المزقة عن فمه وأخذ يأكل ما تبقى من الفتات، بينما ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه.

ألقي صفيدير عليه نظرة أخيرة ثم أكل طريقته حتى خرج من الحي البائس، هناك كان عشر من الجنود ينتظرون، يرکبون على ظهور خيولهم بينما يشبهونه في المظهر عيونهم مكحولة ويرتدون جلود ذئاب سوداء.

**نقدم أحدهم وسؤاله مباشرةً:**

هل علمت كيف ندخل؟

ارتسمت على وجه صفيدر ابتسامة ماكرة وقال بهدوء:

لا بل علمت ما هو أفضل.

تقوس حاجب الجندي بغضول:

وما هو؟

اجاب:

سيدنا محمد هرب من السجن .

حلت السكينة قليلاً وفجأة انفجر الجميع في ضحكات عالية، وكأنهم يحتفلون بمحدث عظيم، هتاً بعضهم بعضاً، يتبادلون النظرات بفخر، إلى أن قاطعهم صفيدر بصوت صارم:

فارس!

أجابه أحدهم فوراً:

نعم سيدى؟

(صفيدر)

— أحضر الطائر سأرسل رسالة للحوت الأزرق أخبره ما حدد.

تحرك فارس سريعاً، وعاد بعد لحظات حاملاً طائراً غريب الشكل، نصفه غراب  
ونصفه بقباء، يُعرف باسم البغار.

تناول صفيدير ورقة صغيرة، كتب عليها الرسالة ، ثم طواها بعناية وربطها في قدم  
الطائر. انحنى قليلاً وهمس في أذنه:

— إلى قبيلة الماء.

أطلق الطائر في الهواء، فرفف بجناحيه ودوى صوته في السماء وهو يحلق بعيداً:

— غالااء.

راقب الجنود الطائر وهو يختفي في الأفق، كسر صفيدير الصمت بصوت صارم:  
— لمهمة لم تنتهي، يجب أن نجد صمماً قبل أن يعثر عليه جنود الحوت الأحمر ...

---

في حين كانت الرسالة في طريقها إلى الحوت الأزرق كان هو جالس على عرشه،  
يضغط بقبضته على مسند الكرسي بقوة، وعيناه تضيقان بتفكير عميق. في الخارج  
كان صدى الهاتف لا يزال يتزداد في أرجاء القبيلة، آثار الترد لم تنطفئ بعد، ولم  
يكن يشق أن النار التي أشعلها فيضون وسمعون قد انطفأت تماماً.

وقف جرميد بجواره، يراقب وجهه المتجمد قبل أن يقول:

— مولاي لقد كانا يخبطان لهذا الانقلاب منذ زمن، وأنت كنت تشك في ولائهم  
فلماذا تبدو مصدوماً الآن؟

(مقرعون)

— لست مصدوماً بهذين الخائنين بل صدمت لأن الناس اطاعوها واقلبوا على  
سيدهم، لقد خذلني شعبي يا جرميد.

(جرميد)

— لكنك واجهتهم بشجاعة، وأجبتهم على التراجع كلماتك كانت قاتلة.

ضحك مقرعون بمرارة ثم قال:

— وهل تظن أن الانقلاب لن يعود؟ لا يا جرميد، الفساد حين يصيب العقول لا  
يُزول بسهولة. هم الآن كالتفاحة التي بدأ العفن ينخرها وإن لم نوقفه، فسينتشر حتى  
يالهمها بالكامل.

(جرميد)

— وماذا سنفعل؟

(مقرعون)

— ماذا يفعل المرء بالتفاحة الفاسدة قبل أن تنتشر العدوى فيها؟

أجاب جرميد دون تردد:

— يقطع الجزء الفاسد.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه مقرعون وهو يقول:

— بالضبط يبدو أنك بدأت تفهمي أخيراً.

همس جرميد:

— تقصد

قاطعه بحزم:

— نعم لقد اختارا مصيرها بنفسها ولن أرفض طلبهما.

خرج مقرعون وخلفة جرميد حتى وقف في منتصف المنصة الخشبية التي تربط بين منازل القبيلة العائمة، بينما اجتمع الناس على أطراف المرات الضيقة التي تفصل الأكواخ عن بعضها البعض، يتهامسون بخوف لكن عند رؤيته اخروا صياحهم.

رفع مقرعون يده عاليًا، فعم الصمت ثم صاح بصوٍت غاضب:

— لا أريد أن أسمع المزيد!

اهترت المنصات الخشبية قليلاً تحت أقدام الواقفين، وتراجع البعض للخلف بحذر، لكن لم يجرؤ أحد على الكلام. استدار نحو جنوده وأمر بحزم:

—ابحثوا عن فيضون وزهرون أريدهما أمامي الآن.

تحرك الجنود بسرعة فوق الجسور الخشبية المتأرجحة، قافزين بين المنصات التي تصل بين المنازل، بينما يقي مقرعون في مكانه، عاقداً ذراعيه، يراقب نظرات قومه الخائفة. لم يكن قلقه فقط من فيضون وزهرون، بل من الذين صدقواها.

كان فيضون وزهرون داخل أحد الأكواخ الكبيرة، بينما يجلس فيضون على أرضية خشبية مبللة، يراقب الماء يتسرّب من بين الفجوات الضيقة في الألواح، ثم قال بقلق:

— أخشى أن يكون الحوت الأزرق قد علم بما فعلنا.

ابتسم زهرون بشدة، وهو يضع يديه خلف رأسه متكتئاً على الحائط الخشبي:  
— لا تخف لقد أخبرتني العرافة ندره أنه لن يعلم انتا وراء ذلك، وحتى لو علم، فقد أكدت لي أتي لن أموت الآن.

(فيضون)

— لكن الأمور خرجت عن السيطرة، أنا لست مرتاحاً.

قطب زهرون حاجبيه وقال بنفاذ صبر:

ما الذي يقلقك؟ العرافة تنبأ لنا بالمجد والناس ينفذون خطتنا، ولدينا كل ما  
نحتاج فلماذا القلق؟

لكن قبل أن يكمل كلماته، اهتز الكوخ بعنف وتحطم الباب بجاء.

اندفع الجنود للداخل وأمسكوا بهما بقوة، وسحبوها إلى الخارج حيث ألقى بهما وسط  
المنصة الكبيرة أمام الجميع.

وقف مقرعون أمامهما، بينما مئات العيون تحدق في المشهد من فوق الأكواخ  
والمرات.

(مقرعون)

أنتا من أشعل الفتنة ثم تخبيتان وكأن شيئاً لم يكن؟!

رفع فيضون رأسه متظاهراً بالثقة:

ـ نحن لسنا من العامة حتى تعاملنا بهذه الطريقة ثم ماذا تقصد بكلامك؟

(مقرعون):

ـ لا تتلوّن مثل الحرباء أخبرني ماذا فعلت، أو سأجبرك على الحديث.

تدخل زهرون:

لم نفعل شيئاً نحن مستشاروك وهبنا أعيارنا لخدمة القبيلة، والآن تلقى علينا الاتهامات.

لم يرد مقرعون لكنه أشار برأسه فاقترب جرميد، وهو يسحب رجلاً من بين الحشد، ودفعه للأمام:

هذا الرجل لديه ما يقوله.

نظر مقرعون للرجل وقال ببرود:

تحدث.

ارتجم الرجل قليلاً لكنه قال بصوت واضح:

كنت من الذين شاركوا في الفتنة البارحة، وكان ذلك بأمر من زهرون وفيضون، ليس هذا فقط لقد قتل زهرون رجلاً دون ذنب. لقد كان خادمك سميح، قتله لأنه رفض الخيانة وقال أنا لا أخون قبيلتي ولا حوفي.

عادت العيون المذعورة إلى مقرعون، الذي لم يتحرك للحظة، قبل أن ينطق أخيراً:

إذن لقد حكمتم على أنفسكم بالموت.

ارتعب فيضون ثم التفت إلى زهرون، صوته بالكاد يخرج من حلقه الجاف:

هل ما زلت تصدق العرافية؟

زهرون عيناه كانتا متسعتين و وجهه الشاحب يلمع بعرق الخوف. تتم لي أخيه من بين أسنانه وهو يتحقق في مقرعون:

— اصمت أهيا الأحق لمن نموت أنا واثق بما قالته ندرة.

لكن صوته خانه فلم يكن يقنع فيضون، بل يحاول أن يقنع نفسه.

(مقرعون)

— ختمن الحكم وهذا ختمن القبيلة، ومن خان الماء فالماء أولى به.

قال فيضون وقلبه يخنق بجنون:

— م..... ماذا تقصد؟

لم يجده مقرعون بل وأشار بيده فتقدم بعض الجنود فوراً، وكبلوا أقدام فيضون وزهرون وربطا أحجارا ثقيلة حول بطونهما، وجذبوا الكمامات القماشية عن وجوههما، ليواجحوا الهواء الملوث.

نظر مقرعون إلى وجه فيضون الذي صار أشبه بوجه ميت قبل أن يوت، ثم قال بصوت خالي من أي شفقة:

— من خان الماء، فالماء هو أول أن تحاسبه.

ثم دون أن ينحه لحظة أخرى ليستوعب، رفع مقرعون قدمه ودفعه بقوة.

سقط فيضون في الماء وهو يصرخ لكنه سرعان ما اختفى تحت السطح بينما صعدت فقاعات وهو يحاول الصراخ تحت الماء، جسده يقاوم الغرق لكنه لم يكن يملك أى فرصة.

أما زهرون فقد انهار بجأة، كل ثقته اختفت، لأن العرافة التي وثق بها لم تكن سوى وهم هش تحطم أمام الواقع.

جثا على ركبتيه عيونه مليئة بالدموع، وهو يتسلل بصوت مرتعش:  
- أرجوك... لا... ليس أخي.

لم يكن يتسلل من أجل نفسه بل من أجل فيضون، لكن الأوان قد فات فالماء لا يعيد من خانه.

تأمل فيه مقرعون ثم ركله هو الآخر.

سقط زهرون في الماء بنفس المصير، صرخ، حاول المقاومة، لكن الحجر الثقيل حول خصره جذبه بسرعة حتى تلاشى صوته.

انتظر دقائق حتى تأكّد أن الماء أدى مماته، ثم أشار للجنود:  
اسحبوا الجبال.

جرّ الجنود الحال ومعها خرجت الجثثان وجوهها متيسّة، أفواهها مفتوحة  
أجسادها ملطخة بذروحة الماء الفاسد، وعيونها الزجاجية تحدق في الا شيء.

النفت مقرعون إلى الجموع التي تتبع المشهد ثم قال بصوت سمعه الجميع:  
علّقوها في وسط القبيلة.

ثم أضاف ببررة أشد قسوة:

ليكونوا عبّرة لكل خائن تُسْوَل له نفسه أن يتحدا في ول يكن نتن جنتيهما علامه لا  
تمحي.

انتشر الهمس بين الناس، والخوف تسلاّل إلى قلوب أكثر من ذي قبل فالجميع قد  
فهموا الرسالة جيّداً.

تلاشت أصوات الترد، وركدت روح الثورة تحت ظلال الخوف عاد الجميع إلى  
منازلهم يدركون أن الفدية ستدفع لجلب موت لا محالة، وهي لن تكون إلا من طعامهم  
ويخزونهم.

كانوا لا يعلمون أنها خدعة وضعها مقرعون لوهن الحوت الأحمر انه سينفذ مطالبة  
ولكن ما اجمل الخداع حين تظهر من معك ومن ضدك.

توجه مقرعون بخطوات ملكعه إلى منزله، وجهه لا يزال يحمل أثر الغضب.

بمجرد أن عبر العتبة، أزال الكلمة التي كانت تغطي نصف وجهه، ثم مال فوق وعاء فاري يتصاعد منه البخار وأخذ نفسا عميقا، كأنه يحاول استنشاق أي شيء آخر غير رائحة الموت.

شعر بيدين ناعمتين تلامسان كتفيه، كانت زوجته نوهارا أزاحت عنه فرو الحيوان الذي كان يغطي كتفيه، ثم همست له بلهف: لقد تغيرت كثيرا.

لم يجدها على الفور، توجه إلى كرسي خشبي قريب وجلس عليه بثقل ثم مد يده وسجّلها ناحيته، جعلها تقف بين ساقيه:

لم اتغير ولن أكون هكذا لكن هناك استثناء لكل شيء.  
تراجعút نوهارا قليلاً:  
لم أكن أريد لهذا أن يحدث.

امسكتها ثم مرر أصابعه على راحة يدها بحنان:  
وأنا كذلك لكن هل ترك ابننا يموت؟

نظرت إليه ثم بحركة خفيفة، أمسكت يده وقبلتها:  
أنا أشكرك.

وقف ببطء ثم رفعها من كثفيها كأنها قطعة ثمينة يخشى أن تنخدش، احتضنها بقوة، مر زمن وهو لم يكن يقول شيئاً وبينما هي بين ذراعيه، اقترب من أذنها:  
\_ أنت وصمصام كل حياتي ولا أتصور أن أفقدكما.

دق الباب فجأة لكنه لم يتحرك على الفور فقط ابتعد عنها ببطء ثم نظر نحو الباب:  
\_ ادخل.

فتح الحارس الباب وبيده طاعر البغار.  
\_ سيدى أتتكم رسالة.

تقدم مقرعون وأخذ الرسالة، فلـك العقدة سريعاً وبدأ يقرأ عيونه اتسعت ببطء ثم دون سابق إنذار انهمرت دموعه.

كان الأمر غير متوقع على الإطلاق، فلم يره أحد يبكي من قبل، أدار وجهه نحو زوجته، ثم تداني منها وكأنه طفل ضائع عاد أخيراً إلى منزله، احتضنها بقوة ولف بها أمام الحارس الذي وقف مذهولاً.

خفض الحارس عينيه بخجل، لكنه لم يستطع كبت ابتسامة صغيرة ظهرت على شفتيه ثم خطى خطوة للخلف ليستعد للمغادرة.

لكن قبل أن يخرج، سمع نوهارا وهي تسأل بصوت ممتوج بين القلق والفضول:

ماذا بك.

(مقرعون)

صمصام قد هرب.

سكت نوهارا لأن عقلها رفض استيعاب الجملة ثم لم تكث أكثر حتى خرجت دموعها واحتللت بضمكتها تعبيراً عن سعادتها.

الفت مقرعون ونادى على الحارس.

تعال إلى هنا.

مشي الحارس بخطوات سريعة انحنى قليلاً احتراماً له، لكن قبل أن ينطق بكلمة كان مقرعون قد خط بالقلم عدة كلمات على ورقة صغيرة، ثم طواها بحركة سريعة وأعطها للحارس.

خذ هذه إلى الخبراني، وقل له أن يعلنها على الشعب فوراً.

انحنى ثانيةً ثم أخذ الورقة وخرج راكضاً لينفذ الأوامر.

بعد نصف ساعة في أرجاء تلك القبيلة ، ارتفع صوت طبلة الخبراني الرجل المسؤول عن نقل أخبار الحكم، كان يطوف بين الممرات يضرب على طبله بإيقاع ثابت، ثم يرفع صوته القوي الذي اعتاد الجميع سماعه عند كل إعلان مهم:

اسمعوا يا أهل القبيلة اسمعوا وعوا.

توقف الجميع الرجال النساء، حتى الأطفال كلهم تجمهروا على أطراف المنازل يطلون من النوافذ يخرجون إلى الممرات، بينما استمر المخبراني في السير و يكرر كلماته بصوت جهوري:

سيدنا الحوت مقرعون لن يدفع الديمة!

ارتفعت الهمسات المتوجسة بين الناس بعضهم حدق في بعض بدهشة، والبعض الآخر بدأ يشعر بالقلق.

لكن قبل أن تبدأ الأسئلة تابع المخبراني بحماس:

لقد كان ثُمَّاً أوقع العدو في الخيبة لا تخافوا على طعامكم ما نقضناه بل سنزيدكم.

ما إن نطق بهذه الجملة، حتى انفجرت القبيلة بالفرح.

النساء أطلقن الزغاريد أصواتهن ملئت المكان كأنهن يعلنُّ يوم عيد، الرجال رفعوا أيديهم نحو السماء وهللو، حتى الأطفال قفزوا في أماكنهم بحماس لا يوصف.

كان المشهد أشبه باحتفال لم يكن متوقعا، وكان الناس قد تحرروا من كابوسِ جثم على صدورهم.

أما المخبراني فلم يتوقف وواصل الطواف في جميع أرجاء القبيلة، يعيد النداء مرة بعد مرة يريد أن يتأكد أن كل شخص في القبيلة قد سمع الخبر.

---

### ((الفصل التاسع: قرية الشجرة))

صهصام كان يتبع السير، يشتعل في داخله لهيب الحب عازماً على الوصول إلى سمراء مهما كلفه الأمر، أما هي فقد سبقته بالفعل ووصلت إلى نيمورا....

لكن ما هي غابة نيمورا ومن يسكنها؟

لم تولد نيمورا كغيرها من الأراضي بل ظهرت بعد سقوط النيازك من السماء. فلم يكن تأثير النيازك قاصراً على إحياء الأموات أو تغيير جينات الكائنات فقط ، بل امتد إلى تربة وجذور أرض غابة قد احترقت قديماً، حيث تسللت تلك المادة الغريبة وأنبتت أشجاراً لم تكن معروفة من قبل. وفي ليلة واحدة استعادت الغابة المحترقة حياتها لكن بشكل جديد. الأشجار التي ماتت استقامت وكأنها استيقظت من سبات طويل، أوراقها أصبحت خضراء وتدخلت مع بعضها كأذرع تعانق نفسها.

حينها وجد ها بعض الناجين ملائداً خاصاً بهم. فلم يبنوا بيوتهم على سطح الأرض، بل احتوتهم الغابة بأحضانها، فصنعوا من أغصانها المتشابكة بيوتاً، ومددوا بيها

جسروا ومرات مضفرا. لم يكونوا هم من استقرّوا في الغابة، بل كانت هي التي  
ضفّتهم إليها كما يسحب البحر الغريق، ومن هنا سميت نيمورا قرية الشجرة.

توقفت العربية التي كانت تقل سمراء ببطء، ودخلت في ظل الأشجار العملاقة،  
نزلت من العربية، فغاصت قدمها في الطين الرخو ثم رفعت يدها ببطء وزاعت  
قداع الاستنشاق بعدها ألقّت نظرة جانبية على الجنود الذين يحيطون بها:  
\_عودوا من حيث أتيتم.

تردد أحد الجنود متعطشاً صهوة فرسه قبل أن يقول بتوجّس:  
\_مولاتي أمرنا الحوت ألا نترك لحظة واحدة.  
(سمراء)

ـ ضع قناعك ولا تتحدث معي مجدداً... محمدتك انتهت عند هذا الحد.  
ـ لا يامولاتي لم تنتهي نحن لن نترك.

ـ ابي هنا إن شئت أو عد إلى قبيلة النار ثم عد بعد سبعة أيام.  
لم ييُدْ مقتنعاً تماماً لكنه لم يجادل شدّ لجام فرسه ببطء ثم قال:

سنتظر هنا.

لم تجده فقط استدارت وتابعت بخطوات ممكعه حتى وجدت أماها شجرة نيورا  
جذعها العريض يضيء بخطوط سوداء تحمل وهجاً خافضاً.

لم يكن هناك سلم منفصل يوصلها الى الأعلى بل كانت هناك درجات منحوتة في جذع الشجرة نفسها تلتف حولها كحليزون صاعد نحو الأعلى، كان الشجرة منتة بهذا الشكل ولم ينتحته احد من البشر.

مدّت سمراء يدها ولمست الخشب الأملس، شعرت بحرارة خفيفة تحت أناملها كأنها تلامس كائناً حيّاً. أخذت شهيقاً طويلاً تبعه زفير ثم بدأت الصعود فوق الدرجات كلما ارتفعت ازدادت العتمة من حولها، الأغصان الكثيفة كانت متشابكة و حجبت السماء إلا من شعاع ضوء متسلل هنا وهناك.

عند نهاية السلم، وجدت نفسها أمام باب خشبي يندمج مع الجذع، يكاد يكون غير مرئي أو هو بالفعل غير مرئي إلا لمن يعرف بوجوده. وضعت راحة يدها عليه فاهتز قليلاً قبل أن ينفتح ببطء كاسفاً عن القرية الخفية.

عند المدخل، وقف رجلان يلتفان أجسادها بأوراق الأشجار وفي أيديهما رماح خشبية. كان أحدهما يدعى بكر، والآخر بكيـر.

(بکر بحزم)

— من أنت؟

(سمراء بثقة)

— أنا.. أنا سمراء ابنة جلمود الحوت الأحمر وقد أخذت موعداً لمقابلة جدتي.

نظر بكر إلى بكر وقال:

— تحقق من الأسماء في دفتر القادمين.

جلس بكر على جذع قريب وسحب دفترًا جلدي الغلاف، وأخذ يتصفح صفحاته  
بطء يقلبه ويقتم بصوت خافت:

— سمراء... سمراء... سمراء... ها هو! الاسم الثالث والعشرون، سمراء جلمود عشنار.

ضحك بكر ساخراً وقال:

— اسم لا يليق حتى بالدجاج.

قطبت سمراء حاجبيها، ونظرت إليه باستياء قائلة:

— ماذا تقصد؟

أسرع بكر ليصلح الموقف، وغمز لأخيه قائلاً:

— اعذرني يا مولاتي إنه أحمق لا يعلم ما يقوله.

ثم تحرك وضرب بكر برفقه وهو يقتم بصوت منخفض:

اصمت أهيا الأحمق إنها ابنة الحوت والدعوة قُبِلت من العدمة نفسه.

رفع صوته:

تفضلي يا مولاتي مرحبا بك في قرية الشجرة.

تأملت سمراء وهي تسير المنازل المعلقة بين الأشجار المتصلة بجسور خشبية متعددة في الهواء. والأسقف المغطاة بأوراق ضخمة، والجدران المصنوعة من الخشب الداكن بينما تضيء بعض النوافذ بنور أزرق خافت.

في كل مكان، انتشرت ورود صفراء فاقع لونها، تسلقت تلك الورود الجذوع والممرات كانت تتفقل وتتشتت بهدوء تتتص الهواء الملوث وتنقيه. لم يكن أحد هنا يرتدي أقنعة استنشاق، فالمكان نقي كما لم تره سمراء من قبل.

تابعت تقدماً تراقب السكان وهم يتحركون برشاقة، يحملون سلال من الثمار البنفسجية التي لا تعلم ماهيتها، بينما البعض منهم يعملون على شدّ الحبال التي تربط البيوت بعضها.

توقفت أمام منزل مرتفع قليلاً عن البقية نوافذه تطل على الغابة وأمامه منصة صغيرة مزينة بتلك الزهار.

طرقت الباب وانتظرت لكن لم يأتي رد فدفعته ببطء ودلفت إلى الداخل.

نادت بصوت خافت:

جدي أين أنت.... ايتها السيدة العجوز صاحبة العين الحولاء؟

لم تكمل جملتها حتى شعرت بذراعين دافعتين تطوقانها من الخلف، التفتت بصدمة، فتفاجأت بها، كانت الجدة زهيرة واقفة، تحمل سلة من الفاكهة الطازجة، زهيرة امرأة في الثمانين، أناملها متشققة من الزمن، وجهها مغطى بخيوط التجاعيد تتوكأ على عصا من الحديد، طويلة ونحيلة كأنها امتداد لهيئتها، ترتدي عباءة من الكتان القليل، بلون الرماد الداكن، تتدلى منها حبال صغيرة معقوفة عند الكتفين، عيناها بلون الشمس قبيل الغروب، يلمع فيها الحنان.

نظرت إلى حفيتها وابتسمت تلك الابتسامة المائلة التي لا تُعرف إن كانت سخرية أم شوق، وقالت بصوت دافئ:

من هي تلك العجوز الحولاء يا مشاكسة؟

ضحك سمراء بخجل وفركت يدها بشعرها محاولة تدارك الموقف:

لا تخطيء فهمي يا جدي.

(زهيرة)

يل أفهمك جيداً يا شقيقة... ضحك بخفقة حينها لم تستطع سمراء أن تقاوم، فاندفعت نحو جدتها وقبلتها على خدتها قائلة:

اشتقت لكِ جدي، واشتقت الى حديثك حتى رأحتك اشتقت الى شهها.

(زهيرة)

وأنا اشتقت لكِ أكثر يا صغيرتي... أخبرني ماذا تفعلين هذا الايام ؟ ؟ ؟

(سمراء)

ابحث عنكِ.

(زهيرة)

هل أنا ضائعة !!

(سمراء)

لا ولكن أنا الضائعة.

ثم تابعت لماذا لا ترضين وتأتين لتسكن معنا ؟ أبي لم يعد يتحمل غيابك كل يوم  
يذكر اسمك ويقتنى لو تعودين .

زفت زهيرة زفة طويلة لثبتت نفسها وقالت:

اترك هذا البيت !! هذا المكان ؟

جلست على كرسي خشبي قريب وهي تحملق في الفراغ تستعيد شريط الذكريات:

أُتذكِّرُنَّ جدك عشنار حين كان في الستين من عمره قال لي زهيره ألا تشبعين من هذا المكان؟ أجبته وكيف أشبع منه وهو بيتنا فقال لي لم أعد أحتمل قبيلة النار والحكم وكل ما فيها...أريد أن أعيش حياة هادئة. تلاؤت عيناها بالدموع ثم أردفت بابتسامة حزينة:

حينها أخبرني أنه طلب من صديقه عمدة نيورا بناء منزل لنا بعيداً عن كل شيء قلت له وترك هذا المكان؟ فأجابني لم لا؟ لقد اتهى عمرنا وأريد أن أعيش بقية أيامي وأنا أستمتع بعيتين الريم هذه، وبالمناسبة يا سمرا عيني التي تسخرين منها الآن، جدك كان يقول لي إنها سبباً في تركه كل شيء والفراغ لها؟

عشنا أجمل أيامنا في هذا المكان، لقد ترك كل شيء من أجلي ولمدة عشرين عاماً عشنا هنا، كأن العالم كله اختفى من حولنا، حتى بعد أن مات لم يتركني أشعر انه بجانبي، ومنذ ذلك الحين وبعد مضي عشر سنوات على موته وأنا لا أستطيع أن أترك هذا البيت، أشعر وكأنه لا يزال معي يملأ المكان بروحه.

نظرت زهيره إلى سمراء ثم أكملت:

هل تفهمين الآن؟ هذا البيت ليس مجرد جدران، إنه حياتي، ذكرياتي، وحيي الوحيد.

(سمراء)

ـ كُم أتمنى أن أعيش مع من يطمئن قلبي إليه، من اختاره أنا لا من يفرض علي.

ابتسمت زهيرة برقة، وضمت يدي حفيتها بين يديها المعدتين :

ـ لا تقلقي صغيرتي ستتزوجين من تحبين أرى في عينيك شارة الحب حتى لو حاولت إنكارها ، فالحب لا يستطيع أن يختبئ يا سمراء، فهو يظهر في الأعين قبل الكلمات.

لكن سمراء أزاحت يديها بحركة يائسة:

ـ كيف يمكنني أن أحب وهناك دائماً من يقف في طريقي؟ كأن العالم كله قرر أن يعني من السعادة، وكأن الحب لعنة كتبت علي.

تأملت زهيرة حفيتها، قبل أن تستطرد سمراء بصوت مكسور:

ـ الحب لا يمنحك إلا خيبات إما أن يلقي بنا في حضن من لا يحبنا فنشعر أنها غريبون في قلوبهم. أو أن يسلب قلوبنا ليغرقها في بحر من الانتظار، دون أن يجib ندائها وإن شاءت الأقدار أن تجمعنا بهن نحب، أبت الحياة إلا أن تفرق بيننا بذروب لا تنتهي، كأن الحب درس دائم في الخسارة لا ملاداً نختي به.

نهضت زهيرة دون أن تقل شيئاً ثم مشت إلى المطبخ الصغير وعادت بعد قليل وهي تحمل صينية عليها كوبان من الشاي الساخن وطبق صغير من تلك الفواكه .

وضعت الصينية على الطاولة وجلست بجانب سمراء:

ـ اشربي الشاي يا صغيرتي لابد ان السفر قد أتعبك.

حدقت في جدتها وابتسمة صغيرة مرسومة على شفتيها ثم أخذت كوب الشاي بين يديها ودفنت شفتيها في البخار المتتصاعد.

بعد قليل استسلمت للنوم وغرقت في سبات عميق، كأنها أخيراً وجدت لحظة راحة وسط كل ما مرت به، وقفت زهيرة للحظة تتأملها، يدها متعددة عند كتفها، لكنها لم تجرؤ على إيقاظها فقد كان التعب واضحًا على ملامحها، لذلك تهدت بصمت ثم استدارت بخفة، ودخلت الغرفة ثم عادت بخطاء ناعم غطّتها به بلطاف قبل أن تبتعد.

القطّت جرة فارية ثم خرجت باتجاه مصدر الماء في القرية.. كانت الشجرة نفسها هي التي تمنحهم المياه، جذورها الضخمة امتدت عميقاً في باطن الأرض، تسحب الماء النقي من الطبقات الجوفية، ثم تدفعه عبر قنوات طبيعية داخل الجذع، حتى يصل إلى بركة في أعلى القرية، يسمونها دموع الكون، حيث يتجمع الماء الصافي بارداً ونقياً.

غمست يديها في الماء، وشعرت ببرودته تلامس جلدتها قبل أن تملأ الجرة حتى حافتها. رفعتها برشاقة، وضعتها على رأسها ثبات، ثم سارت بخطوات خفيفة وهي تستند على عصاها. تلك الحركات الخفيفة لا تشبه عجوزاً تجاوزت الثمانين، بل صبية في الثلاثين .

عادت إلى المنزل وفتحت الباب فوجدت سمراء مستيقظة عيناها تبحثان عنها بقلق.

— أين كنت؟ لقد قلقت عندما لم أجده، قالتها سمراء بصوٍّ ما زال مثقلًا بالنعاس.

ابتسمت زهيرة قليلاً ثم وضعت الجرة جاتباً:  
— كنت أملأ الماء فقط ولم أشأ أن أوقظك.

(سمراء بتردد)

— أريد أن أخبرك شيئاً.

(زهرة باهتمام)

— وما هو؟

(سمراء)

— والدي يريدني أن أتزوج نبيل.

الجدة لم تُظهر الدهشة:

— وما رأيتك في حفيدي؟

(سمراء)

لأحبه و قلبي لا يريده.

رفعت زهيرة حاجبها قليلاً.

لا تخبيني أم تخبين غيره؟

ترددت الكلمات على شفتي سمراء قبل أن تهمس:

نعم أحب.

زاد الفضول في عيني زهيرة، لكنها سالت بهدوء:

ومن يكون؟

(سمراء)

صمصام.

تغير وجه زهيرة للحظة وظهر أثر الصدمة في ملامحها كررت الاسم كأنها لا تصدق:

صمصام!!!! أهو من قبيلة النار؟

هرّت رأسها نقباً:

لا إنه من قبيلة الماء.

(زهيرة بشك)

ابن من هو ؟ ؟

(سمراء)

ابن الحوت الأزرق.

نهضت خجأة وكان كلمات حفيديثها كانت صاعقة ضربتها في الصميم.

كيف ؟ ؟ بين ابني والحوت الأزرق عداوة ممتدة منذ أجيال ... أنت تطلبين المستحيل يا سمراء.

(سمراء)

أي مستحيل ؟ أنا أحبه وهو يحبني فلماذا يجب أن يكون مستحيلًا ؟

(زهيرة)

هذا الحب لا يمكن أن يكتمل ثم إن فتيل يحبك وهو أولى بك.

اقررت ثم وضعت يدها على رأس حفيديثها:

تزوجي من يحبك وليس من تحبين حينها ستعيشين في سعادة.

(سمراء)

وأي سعادة يا جدي؟ لماذا لا أتزوج كما تزوجت أنت؟

صمت زهيرة للحظة كأنها تعيد النظر في كل شيء:

جلمود أرسل لي رسالة مع الحراس الذين أحضروك، يطلب مني إقناعك بالزواج من فقيل. لكنه لا يعلم أنك أغلى عندي من أي شيء، وطالما أنك لا تريدينه لن أجبرك عليه.

لم تستطع سمراء تمالك نفسها، انفجرت بالبكاء ثم ارتمت في حضنها:

أشكرك... أشكرك كثيراً!

ربتت زهيرة على ظهرها:

ـ أحيى لي كيف تعرفت على صحاصام؟

مسحت سمراء دموعها، وابتسمت رغم بقايا الحزن في عينيها:

ـ تعرفت عليه في اليوم الوحيد، الذي اجتمع فيه القبائل للصلح الذي لم ينجح، كان ذلك منذ ست سنوات ومنذ ذلك الوقت ونحن نلتقي سراً، كان يأتي إلى قبيلة النار مرة كل سبعة أشهر في يوم زيادة الشفق.

(رهبة)

ـ وهل هو وسيم؟

تأملت كأنها تستعيد أول لحظة رأته فيها قبل أن تجib بصوت يحمل شغف العشق:

كثيراً للدرجة أتي عندما رأيته لأول مرة، أردت أن أغمض عيني حتى لا أرى غيره.

(زهيرة)

أنت ت شبّيني في شبابي.

(سمراء)

كيف؟

أجابت زهيرة :

نحمل نفس القلب... لكن سرعان ما عاد الجد إلى صوتها:  
لكن ماذا ستفعلين عندما يأتي والدك ليأخذك؟ هو مصمم على زواجك من نفيل، ولن يتراجع أعرفه جيداً.

(سمراء)

سيأتي صحاصح قريباً قبل أن يصل والدي، وستكون معه الأجاية.

## ((الفصل العاشر: قبيلة الظلال))

فلندخل الى القبيلة الثالثة، التي استوطنت الصحراء السوداء قبيلة الظلال... يحوطها سور عريض شاهق الارتفاع، يمتد بلا نهاية كأنه حاجر بين عالمين. أسس ذلك الجدار من حجارة سوداء تحثت بدقة شديدة متراصدة كأنها قطعة واحدة لا يظهر بين ثنياتها فاصل، يعتلي هذا السور كثير من الأعلام التي ترفرف حاملاً شعار قبيلة الظلال، وهي رسمة لنجمه لامعه وسط فرش متسع من السوداء، تذكر من يراها بالنبيتة الحضراء التي خرجت من صحراء جرداء فسرت الناظرين بلونها المخالف لعمدة الاصفار، فهم يرون انفسهم أنهم بمثابة تلك النبيتة في تلك الصحراء السوداء التي يعيشون فيها.

اما البوابة من الداخل يقف حراس ملثمون، أجسادهم مغطاة بفراء داكنة تحميهم من برد الصحراء القاسي. وعلى أفواههم وضعوا كمامات جلدية رقيقة مخيطة بدقة، مبطنة بطبقات من الصوف تحجب الغبار وتحفظ الدفء كما أنها تساعدهم على التنفس دون اختناق.

في داخل الجدران الحياة لا تهدأ.

الأسوق مزدحمة التجار يساومون بصوٍت عالي، الرجال يدفعون عربات محملة بالبضائع، لكن الطعام هنا لم يكن وفيّاً. كانت الأخشاب، الجلد، وأسنان الحيوانات هي ما يسمى عندهم بالبضائع التي تُعرض على الطاولات .

والثمن الذي يتبادلون به هو الطعام والماء، فهذين الشيئين هما العملاة السائدة في تلك القبيلة كما هو حال باقي القبائل.

اما البيوت فقد بنيت من الحجارة والرمال ، والابواب بعضها صنع من الاخشاب والبعض الاخر من العصى كل بابٍ من هذه الابواب نقش عليه حرف من اسم المالك، نعم لم تكن القبيلة تغوص في الثراء، فالفقر كان حاضراً في كل زاوية لكن النظام الذي سادها جعل كل شيء يعمل بانضباط.

وفي هذا اليوم عندما كانت الاجواء تسير كعادتها كالنمل الذي لا يمل من ادخار طعامه لشتاء، فهو يفعل ما يفعله كل يوم دون ملل هكذا كانت تسير القبيلة من التكرار والمواطبة، حتى ظهر الحوت الأسود عدنان، حاكم قبيلة الظلال، كان يركب فرسه على رأس موكب من الجنود الأشداء. ثم هتف بصوت جهوري زلزل الاذان:

- افتحوا البوابة.

فتحت البوابة الضخمة ببطء من الداخل، ودلف الحراس وهم يجررون عربات عظيمة الحجم يسجحها الخيول، بعضها خيول عادية والبعض الاخر خيول متغيرة الجينات، حوافرها سوداء وعيونها بيضاء خالية من نن العين، قفصها الصدرى بارز الى الاعلى، يصل الى مقريه من ذقنه، ولكل فرس مجموعه من الزيول التحيفه بلون الجلد تصل الى ثمان ذيول. تحمل العربات وحوشاً مأسورة. كان

أحداها وحش «ثرين» الأسطوري الذي يجمع بين قوة الثور وجسارة التنين، بينما حملت العريبة الأخرى وحش «الكجراط» الضخم. اصطف سكان القبيلة مرحباً بوصول الحوت وهتفوا بصوت واحد:

- يعيش الحوت عدنان..... يعيش الحوت عدنان!

اخترق صوته الجمهوري الهواء من خلف كمامته:

إخوتي اليوم لن نخشى الجوع فلقد أصطدنا وحش ثرين، والكجراط ولدينا الآن طعام يكفينا لثلاثة أشهر .

تعالت الهمات فيما كان الحراس ينقلون الغنائم إلى المخازن. داخل هذا المشهد الاحتفالي، كانت أعين عدنان تراقب كل شيء، لكنه لم يكن حاضراً بالكامل فهناك شعورٌ غامض يهتلل صدره إحساس لم يتمكن من تفسيره بعد.

عند وصوله إلى منزله وجد ابنه عنبل واقعاً أمام الباب، ذراعاه متشابكتان فوق صدره الصغير، وعيناه تضيقان بحدة طفولية:

— لماذا لم تأخذني معك؟

لم يتالك عدنان ضحكته، ثم انحنى والتقط الصغير بين ذراعيه رافعاً إياه إلى كتفه:

— لأنك ما زلت صغيراً !

اعترض عنبل بشراسة طفولية:

— أنا كبير بالفعل سأتم تسع سنوات بعد أسبوع واحد انا رجلاً الآن، ثم أين هديتي؟

قهقهه عدنان بصوت عالي، وراح عنبل من على كتفه و من جيده اخرج ظفرًا حادًا لوحش الكجراط، وناوله للصغير:

— إذن أنها الرجل هذه هديتي لك ظفر الكجراط.

اتسعت عينا عنبل باندهاش، ولم ينتظر أكثر من لحظة قبل أن يركض داخل المنزل يصرخ بحماس:

— أي حصلت على ظفر الكجراط.....حصلت على ظفر الكجراط.

خرجت فيروز من الداخل، بشرتها البنية تتوجّع بلون القهوة في ضوء الغرفة، وعيناها السوداوان واسعتان كأنهما بركتان من نهر لج صفائه

وقفت قليلاً، تزيح خصلة من شعرها خلف أذنها، ثم نظرت إلى عدنان بنصف ابتسامة وقالت مازحة:

— إذن... تذَكّرت ابنك وتغافلت عنِّي؟

أمسك عدنان يدها برفق، ثم حملق في عينيها يتأملها بضع من اللحظات ثم قال بصوتٍ خفيض:

هل أنسى أن أتنفس؟ لكي أنساك؟

اشار لها بأصبعه الذي لا مس جنفها ان تغمض عينيها.

لم تردد ووضعت كفيها حول وجهها وهي تبتسم بفضول.

مد يده إلى جيبيه وأخرج بأطراف أصابعه ياقوته صغيرة تبرق كدمعة حمراء متجمدة  
ثم همس لها:

انضري الآن..

وضعها في راحة يدها نظرت إليها فiroز ثم رفعت عينها إليه بابتسامة ناعمة:  
جميلة جداً ..

لكنها سرعان ما تحولت ملامحها إلى ملامح قلقة وهي تقول:

سامر خرج مجدداً مع أصدقائه، انا لم أعد أستطيع السيطرة على هذا الولد.

هل تعلم انه خلال هذا الشهر خرج خارج السور أربع مرات، عليك أن تجد حلاً  
قبل أن يتعرض للأذى.

قبل أن يتمكن عدنان من الرد، سمع طرقاً على الباب. فتحه ليجد بهفور أحد رجاله الموثوقين يحمل في يده لفافة مختومة.

ـ سيدى وصلت رسالة من الحوت الأزرق عبر أحد طيور البغار.

مد عدنان يده وأخذ الرسالة ثم فكّ الحتم وبدأ يقرأ الكلمات القليلة التي خطها الحوت الأزرق بنفسه:

ـ أخي أحتج إليك.

ضاقت عيناه وهو يعيد قراءة الكلمات مرة بعد مرة وكأنه لا يصدق المكتوب، كانت ثلاثة كلمات، لكنها تحمل ثقل ثلاثة صفحات، فلم يسبق للحوت الأزرق أن خاطبه بأخي في رسالة من قبل، كان دائماً رسماً مباشراً يحاول أن يمحو العلاقة بينهما لكن الآن؟ الآن هو يتطلب المساعدة بطريقة لم يعتد عليها عدنان.

أشار إلى بهفور بالغادرة ثم ظل واقفاً في مكانه شارداً في تلك الرسالة وعينيه لا تتحركان من فوق تلك الورقة، حتى قاطعه فيروز:

ـ أرى وجهك شاحبًا ماذا قال بهفور؟ وما الذي تحمله تلك الرسالة؟

نظر إليها عدنان، وكأنه لم يسمعها للوهلة الأولى، ثم قال بصوتٍ لم تعلم فيروز فهو صوت خوف أم قلق:

ـ أخي بحاجة إلى.

(فيروز)

—وماذا ستفعل؟

(عدنان)

— ما يجب فعله.

فيروز لم تبدُ مقتنعة وقبل ان تعترض، فتح الباب بعنف، واقتحم سامر المنزل بوحده متتسخ وملابس تحمل آثار الرمال، التي نظره بنظر عدنان فابتسم وقال:

—متى رجعت يا أبي.

لم يتحرك عدنان من مكانه، وقال:

—أين كنت؟

تردد سامر للحظة، لأن عقله يبحث عن إجابة تخفف من وقع غضب والده لكنه قال في النهاية:

—كنت مع أصدقائي.

(عدنان)

— وأين كتم؟

(سامر)

ـ خارج السور كنا نصطاد الطيور.

لم تمض سوى لحظة قبل أن يرفع عدنان يده، ويلطم سامر صفة قوية ارتدى على إثرها للخلف. تجمدت فيروز من الصدمة أما سامر فقد شعر بلهيب الصفة يشعل خده، حدق في والده بذهول قبل أن ينزع كمامته بعنف ثم رفع رأسه لتظهر الدموع وهي تترقرق في عينيه الغاضبتين:

ـ لم تضربني من قبل يا أبي.

(عدنان)

ـ هذا الكف لا تنساه ما حبيت، فهو كتذكار لك لأنك لم تتحمل المسؤلية التي منحتك ليها، لقد خحيت ظني.

قبض سامر بيديه يقاتل إحساساً متناقضاً بين الغضب والخجل:

ـ أردت فقط أن أكون مثلك! لا أريد أن يقدم لي الطعام على طبق من ذهب أريد أن أتحمل المسؤلية.

نظر إليه عدنان طويلاً، ثم أزال كمامته هو الآخر وببطء قال :

— وهل تظن أن المسؤولية تعني المحافظة بحياتك؟ هل تظن أن إثبات ذاتك يكون بتعریض نفسك للهلاك انت لم تتجاوز الرابعة عشر والقانون يمنع الاعمار التي اقل من السبعة عشر بالاصطياد ؟

سامر بغضب ودموعه تتسرب من عينيه:

— هذا القانون انت من وضعته ويمكنك تغييره.

(عدنان)

— نحن من نضع القوانين، ولكن الشعب هو من يغيرها، وحتى إن أراد الشعب انا لن ارضي.

(سامر)

— الرجال يقتلون في رحلات الصيد، والجوع لن نصد امامه إن لم يخرج الصغير قبل الكبير للبحث عن قوته، وإن استمر الوضع هكذا سيمأكل بعضنا البعض كما يفعل المتحولون.

(عدنان)

— ما تقوله قد يكون صحيحاً ولكن لا تخرج مرة أخرى دون اذني...تقول انك لا تحمل المسؤلية.

اقترب خطوة حتى صار وجهاً لوجه مع سامر وحدق في عينيه مباشرة:

— لقد حملتكم مسؤولية أكبر من أي شيء أليس المفاظ على قبيلتكم مسؤولة؟  
أليس رعاية أمك وأخيك مسؤولة؟

ارتجم جفن سامر لكن عناده لم ينكسر تماماً. حاول أن يرفع رأسه لكنه شعر أن  
كلمات والده تضغط عليه أكثر من الصفة.

تابع عدنان بصوت أكثر حدة:

— بعض النظر عن رغبتك في أن تكون مثلي إن استمررت في هذا  
الطريق ستقتل نفسك قبل أن تصبح اي شيء، نصيحة لك العقل يحتاج ان يكبر  
قبل النراع .

لم يكن سامر يتوقع تلك الكلمات خدّق في والده بارتباك.

زفر عدنان زفره طويلة، وتغيرت ملامحه من الحزن الى الخوف، بينما يمسك كتفي  
سامر :

— هل تعلم لماذا أقنا السور؟ ليحمينا من الأموات الأحياء، من الوحش التي  
ترىض بنا بالخارج، فهنا ليس مكاناً لغامرات طائشة، بل مكان للبقاء على قيد  
الحياة.

نظر سامر إلى الأرض وهو يقول:

ـ أنا آسف يا أبي لن أفعلها مجدداً.

(عدنان)

ـ أنا لا أغضب لأنك تريد أن تكون قوياً بل لأنني أخاف أن أفقدك، الناس يقولون إن الأب هو ظهر أبنائه، لكنني أرى أولادي هم ظهري.

تأثير سامر بكلمات والده ثم اندفع واحتضنه بقوة لستحول دموعه من الغضب إلى دموع الندم :

ـ أحبك يا أبي، أنا لن اعصي أوامرك مرة ثانية.

ربت عدنان على رأسه وقال:

ـ وأنا سأنتظر أن تفي بهذا .

في المساء اجتمعت عائلة الحوت الأسود حول الطاولة في ضوء المصايبع الزيتية المتبدلة من السقف بينما كانت تلقي بوهبا الذهبي على الأطباق الخشبية. في زوايا الغرفة تصاعد دخان خفيف من المبخرات المليئة بالأعشاب العطرية مقلدين قبيلة النار مما جعل الهواء أنقى، وأتاح لهم نزع الكمامات التي اعتادوا ارتداءها خارجاً، كان الهدوء يملئ المكان، لا يقطعه سوى صوت الملاعق وهي تضرب الصحنون بين الحين والآخر.

فيروز بابتسامتها الدافئة، مترت الطعام لأفراد العائلة، بينما كان عدنان يقول:

سأغادر الليلة .

رفع سامر نظره عن الطبق:

إلى أين؟ بالكاد عدت اليوم من رحلة الصيد.

لمعت عيناً عذناً تحت وهج الصباح، وظهرت على شفتيه ابتسامة يائسة:

الأمر يتعلق بالقبائل، وانا لا أريد ما حدث أبناء غيابي يتكرر مسؤولية العائلة بين يديك .

لات...قبل أن يتمكن سامر من الرد، قفز عنبل الصغير مقاطعاً في حماس:

لا تقلق يا أبي سأحمي أمي وأخي.

انفجرا عدنان ضاحكاً.

أعلم يا بطلي أعلم أنك ستفعل.

لكن فيروز، التي كانت تتبع زوجها لم تستطع إخفاء القلق هي الأخرى:

## رچیک الآن هل هو ضروري؟

(عدنان)

ـ نعم فلقد انقبض قلبي ولن ينفرج حتى اعلم ماذا يحدث... سأرحل مع ظهور  
ضباب الفجر.

(فيروز)

ـ ربما كان مقرعون يهول الامر وربما انت من تهوله.

(عدنان)

ـ انت تعلمين أنّ مقرعون لم يكن ليضحي ويكتب لي اخي وهو يعلم جيداً ان  
احفاء علاقتنا امراً ضروري، اشعر به هو يحتاجني بحق.

في غفر ذلك اليوم.. تحرك عدنان مع البزوع يقود سرباً ضخماً من الجنود، متوجهًا نحو  
قبيلة الماء. امتدت رحلته ليوم كامل، لم يتوقف خلاه إلا للضرورة، حتى لاحت  
أخيراً امامه مشارف القبيلة العائمة.

توقف الجنود، بينما واصل هو السير بمفرده حتى وصل الى الجدار الخشبي  
وهناك استقبله حارس صامت، ألقى عليه نظرة حذرة، ثم أشار له بالدخول.

و بينما كان يعبر الممر، وقعت عيناه على العراقة ندرة كانت جالسة على الأرض  
ساقها متربعتان، ويديها فوق رأس طفل صغير تتحسس ججمته بحركات بطيئة،  
قبل أن تنفس في أذنه ثلاث مرات.

ال طفل كان يصرخ ويلتوى من الألم...اقرب عدنان قليلاً، ثم همس للحارس المراقب له:

ماذا تفعل؟

أجابه الحارس دون أن يرفع نظره عنها:

ـ شخّر من داخله الأرواح الشريرة.

رفى عدنان ساخراً:

ـ لم يكن مفرعون يسمح لها بنشر شرّها هكذا ما الذي تغير؟

ـ خجأة دوت الطبول في أنحاء القبيلة، الهمسات تصاعدت بين الناس، الوجوه تطلّ من خلف النوافذ.

ـ الحوت الأسود هنا ما الذي جاء به، استلأة همهم بها الجميع..

ـ خرج مفرعون من منزله، جسده الضخم يتحرّك ببطءٍ و حين اقترب أمسك بيدي عدنان وقال:

ـ لقد شرّفتنا بحضورك.

ـ لكن عدنان لم يرد التحية، وأكتفى بالقول:

ـ اعلم خضوري شرف للي اي احد.

أشار له مقرعون بالدخول، فتحّرّكا معاً نحو المنزل وما إن أغلقت الأبواب خلفهما، حتى ألقى كل منها كمامته جاتياً واحتضنا بعضها البعض في اشتياق.

قال عدنان بصوت منخفض:

كيف حالك يا أخي؟

أجابه مقرعون دون أن ينظر إليه:

لست بخير.

رفع عينيه إليه مباشرة، وسأله:

لماذا؟ ماذا حدث؟

ردّ بعد لحظة صمت:

جلمود.

قطّب عدنان حاجبيه.

ماذا به؟

اقرب مقرعون، وقال بصوت لم يكن خاليًا من الغضب:

ـ اخطف ابني ولكن صمصام كان قويا فاستطاع الهرب من قضبان سجنه، ليس  
هذا فقط، بل دمر المزرعة، وأخذ المحصول وأعلن الحرب علينا صراحة.

نظر إليه عدنان للحظات، ثم قال بهدوء:  
ـ طلب الحرب؟ إذن فليحصل عليها.

(مقرعون)

ـ لم أشك أبداً أنك ستدعني.

(عدنان)

ـ كيف لا أدعمك يا ابن الظلال؟ عندما وصلتني رسالتك لم أتردد فقد قالت  
الورقة كل شيء، حتى وإن لم تقل سوى ثلات كلمات لهذا جهزت جمع من الجنود  
وهم الآن معسكون خارج القبيلة.

قبل أن يكمل دخلت نوهارا بخطوات واثقة:

ـ مرحبًا بالحوت الأسود، قد تكون حوت الظلال لكنك أضأه منزلنا.

ردّ عدنان بضمكه خافته.

ـ مرحبًا يا سيدة نوهارا، لم أكن أعلم أنك تجدين المزاح.

(نوهارا)

ليس المزاح فقط بل التفكير أيضاً.

ابتلع مقرعون ريقه ثم قال بحدر:

أين الطعام يا عزيزي.

(نوهارا)

الطعام جاهز.

(عدنان)

فلنأكل ثم تذكر لاحقاً.

دلفت نوهارا برفقة خادمتها إلى قاعة الطعام، حيث جلس عدنان الحوت الأسود ومقرعون الحوت الأزرق يتحدىان بصوت خافت. وضعوا الخادمة الطعام أمامهما وانسحبت بصمت، بينما بقيت نوهارا واقفة، تنظر إلى عدنان بعينين تملؤها التساؤلات كانت تضع الأعشاب البحرية في قدر الماء المغلى لتنقية الهواء ثم قالت:

لقد استقبلك زوجي بحفاوة غريبة، بينما اظهرتم للعامة عدم القبول بينكم. وسمعتم پناديوك أخي عند وصولك، لكنه لم يخبرني شيئاً عن قصتكم، وكيف اتحدتم، بل رفض أن يشرح لي اي شيء، فهلا تكرمت وأخبرتني أنت؟

نظر عدنان إلى مقرعون، فتبادلا نظرة صامتة قبل أن يتسنم مقرعون قليلاً ويقول:  
— أخبرها يا عدنان أريدها ان تسمع منك.

تهد عدنان ثم اعتدل في جلسته وأسند مرفقيه إلى الطاولة:  
— حين تشتعل النيران، لا تنقذها إلا الظلال التي تخفيها، وحين يجف الماء، لا يجد  
ملجاً إلا في الظلام..

لطلما كانت قبيلة النار أشد القبائل بطشاً، تومن بأن القوة وحدها تحكم الأرض،  
وكان ترى في قبيلة الماء هدفاً ضعيفاً وسهلاً. حاولت قبيلة الماء الدفاع عن نفسها،  
لكنها لم تكن تملك القوة الكافية لصد هجمات النار المتكررة لكن ما لم يكن أحد يعلمه  
هو أن قبيلة الظلال كانت الدرع الخفي لقبيلة الماء لأكثر من سبعين عاماً، كان  
رجال الظلال يحمون الماء من بعيد، دون أن يدرى أحد. ففي كل مرة كانت قبيلة  
النار تخطط لهجوم، كانوا أفراد قبيلة الظلال يتسللون، يسرقون أسلحتهم يغتالون  
قادتهم في العتمة، ويتثون الرعب في قلوبهم. كانوا سلاحاً غير مرئي، يداً خفية تروع  
العدو قبل أن يصل إلى الماء.

لكن هذا التحالف لم يكن أحادي الجانب...

في المقابل، كانت قبيلة الماء تدّ قبيلة الظلال بالمؤن والإمدادات، تمنحهم الطعام  
والدواء، وتتضمن بقاءهم في الحفاء، حيث لم يكن وقتها للظلال أرض ثابتة أو موارد

وفيرة كاليلوم كان الاتفاق بين القبيلتين واضحًا تحمي الظلال الماء، والماء يُعيق  
الظلال على قيد الحياة.

غير أن الأمر لم يكن مجرد تحالف قائم على المنفعة المتبادلة، بل كان هناك شيء  
أعمق... صداقة حقيقة ربطت بين زعيمي القبيلتين.

فقد كان هناك سرّ أعظم من مجرد تحالف خفي، سرّ لم يكن يعلمه سوى  
الصديقين وحدهما.

قبل نصف قرن، ولد للأمير الحاكم للي قبيلة الماء ابنٌ وحيد، لكن والده أدرك أنه  
مما دربه، فلن يستطيع الصمود أمام قبيلة النار. كان الأمير ضعيفاً آنذاك، ينشأ في  
بيئة من السلم، بينما أعداؤه في النار لا يعرفون إلا القتال منذ الطفولة.

في المقابل، ولد لزعيم قبيلة الظلال ابنٌ وحيد، لكن الحياة في الظلام لم تكن ترحم،  
ولم تكن تناسب من كتب له أن يكون ملكاً.

وعندها، اتخذ الزعيمان قراراً لم يسبق له مثيل...

أُرسل أمير الماء إلى قبيلة الظلال، ليعيش في العتمة، ويتعلم كيف يكون قاتلاً قبل  
أن يكون ملكاً.

وأُرسل ابن زعيم الظلال إلى الماء، لينشأ في النور، ويتعلم الحكمة والعدل بدلاً من  
القتل والخداع.

وهكذا، كُبِرَ كل واحد منها في عالم الآخر، دون أن يعرف الحقيقة. حتى جاء ذلك اليوم.

بعد عشرين عاماً، أصبح كُلُّ منها زعيمًا لقوم ليس قومه.

عدنان ابن قبيلة الماء، الذي تربى في قبيلة الظلال، صار محاربًا لا يقهرون، يتحرك كالشبح، لكنه لم يفهم يوماً لماذا كان قلبه يميل إلى قبيلة الماء أكثر مما يميل إلى قبيلة الظلال.

مقرعون ابن قبيلة الظلال ، الذي نشأ في قبيلة الماء، أصبح ملكًا حكيمًا، لكنه لم يكن يشبه أهل الماء، فقد كان يشعر أنه أقرب إلى الظلال مما هو إلى النور.

لكن الحقيقة ظلت مدفونة حتى وجد عدنان رسالة مخفية في غرفة والده، تركها زعيم الظلال قبل موته.

عندما قرأها، وقف للحظات لا يتنفس...

لقد كان هو ابن الماء الامير والوريث الشرعي لقبيلة الماء الذي لم يعرف عن أصله شيئاً.

وكان مقرعون هو ابن الظلال، الذي عاش في النور دون أن يدرك إلى أين ينتهي حقًا.

حين التقى بعد ذلك، لم يكن اللقاء كأي لقاء آخر...

نظر عدنان الحوت الأسود إلى مقرعون باتسامة خفيفة وقال:

— أتذكر أنت أيضًا كيف علمت الحقيقة؟ لقد كشف لك والدك الأمر، أليس كذلك؟

ضحك مقرعون قليلاً وهز رأسه قائلاً:

— تقصد والدك أنت وليس والدى ..

بدت الدهشة على وجه نوهارا وهي تستمع إليهما، ثم قالت بحيرة:

— أنا لا أفهم شيئاً! تقصدان أن والد مقرعون تبّنى عدنان وربّاه في قبيلة الظلال، وجعله الحوت الأسود، وفي المقابل، والد عدنان هو من ربّى مقرعون في قبيلة الماء، ليصبح الحوت الأزرق؟

نظر الأخوان إلى بعضهما لثوانٍ وقالا بصوت واحد:

نعم.

وضعت نوهارا يدها على رأسها:

— هذه صدمات لا أتحملها ولكن مهلا ..... ما هذا الهراء؟ كيف يقبل والدي كما بهذا الوضع الغريب؟ ما افهمه من هذا الكلام ان الاتفاق بينهما أن يأخذ

كلا منها ابنه عند وصولكما سن البلوغ، بعد أن تشتت عزيمتكما وتكتسبا الخبرة؟ لا  
أن تظلا إلى الأبد تحكمان قبائل لا تنفيان إليها!

(عدنان)

ـ حوت الظلال تعلق بي كما تعلقت به فلم يملك قلبه أن يكسرني، ولا امتلك  
الشجاعة ليقولها.

ثم أشار برأسه نحو مقرعون الذي أُمِّلَ:

اما انا فأي قالها لي بنفسه وهو يختضر، أمسكتني بيده المترجفة وهمس:

ـ كنت أريد أن أقولها منذ زمن لكن قلبي لم يطاوعني، أنت ابن الظلال، يا  
مقرعون. كنت لي كل شيء، لكنك لست من دمي.

(نوهارا)

ـ كلامكا نشا في غير أرضه وعاش عمره كله في وهم؟

(عدنان)

ـ لكن هل كان وهذا حقاً؟ لقد أحبونا ولكن كلّ بطيقته ..... كلّ بطيقته.....

أُمِّلَ مقرعون:

وكلّ مات وهو يقني لو امتلك الشجاعة أن يقولها ... لا برسالة... ولا وهو يختضر.

(عدنان)

أتذكر أول لقاء لنا بعد أن علمنا الحقيقة؟ يومها لم أستطع الانتظار فبعثت إليك برسالة عبر البغار.

(مقرعون)

وبالمناسبة وجدت الرسالة منك وبعثت لك رساله اخري في نفس الطاير ..

(عدنان)

أتذكر ما قلته لك حين التقينا؟ لقد نظرت إليك وقلت، كل شيء كان كذبة أنت ابن الظلام، وأنا ابن الماء ومع ذلك نحن نعيش حياتنا كأعداء!  
ضحك مقرعون وأكمل:

ـ أنا ردت عليك حينها ... وهل يعني ذلك أننا لا نملك الحق في اختيار مصيرنا؟

(عدنان)

ـ قلت لك وقتها .... إنها لعنة أن تكون من مكان ولا تنتمي إليه.  
اردف مقرعون:

أو ربما هي هدية أن تمتلك ما لا يمتلكه أحد غيرك، أن تكون ظلًا في النور، ونوراً في الظل.

(نوهارا)

قصة لا يستوعبها عقل ولكن ماذا ستفعلان الآن؟ ابني لم يأتني لقد هرب ولكن من المؤكد ان الحوت الأحمر يلاحظه أنا أريده يا مفرعون أنسمعني؟ قلبي يخترق فلماذا لا ترى النار التي في داخلي؟

(مفرعون)

أعلم ما ترين به يا عزيزتي لكن بعد هروب صمصام لم أعد أخاف عليه إنه ابن الماء والظلال معاً، وسيجد طريقه أما أنا فسأنتقم من الحوت الأحمر أشد انتقام.

وقف عدنان من على كرسيه، تاركاً طاولة الطعام:

وأنا معك، جنودي جاهزون ينتظرون فقط إشارتي.

(مفرعون بغضب)

وأنا مستعد للخروج بجيش الماء، لن اترك هذه الفرصة تمر و لن أغفر للحوت الأحمر ما فعله.....

((الفصل الحادي عشر: قبيلة الهواء))

تنصب المكائد وتندلع الحروب وتخرج الأرض ما فيها من شرور فن القاتل ومن المقتول؟ الأرض التي صارت تنفس غضباً؟ أم البشر الذين فقدوا عقولهم فتاهوا في الجنون، الأموات الأحياء لم يعودوا هم الخطر، بل البشر هم أصل كل حرب وبداية كل نهاية.

في نيمورا كانت سمراء تقطف ثمار البترفان، تلك الفاكهة البنفسجية ذات اللب الأصفر، التي تنمو فقط على أشجار نيمورا لم تكن تفكر في شيء سوى جمع الثمار، حتى تجمدت يدها في الهواء، وسرت قشعريرة باردة في جسدها رفعت رأسها ببطء، فوجدت نغيل يقف أمامها يراقبها كعومه صباء.

التسعت عينها وارتجفت أصابعها فسقطت السلة من يدها، وتبعرت الثمار على الأرض تراجعت خطوة إلى الوراء وكان المسافة بينهما قد تقلصت رغم ثباته.

## شہقت ثم صرخت فی فزع:

. ۲۷

استدارت وركضت بجهون ولم تتوقف حتى وصلت إلى بيت جدتها زهيرة، اقتحمت الباب وهي تلهمث ثم صاحت بذعر بعد ان اقفلت الباب:

انه هنا

سأڭت زهيرە في تعجب:

من؟؟

(سمراء)

ـ نفيل جاء ليأخذني.

لكن زهيرة لم تتفاجأ حتى انها لم تتحرك كما كانت تمنى سمراء، ولم تهرب لطمئنتها كما ظنت، بل تحركت ببطء نحو الباب، بخطوات تشبه خطوات الوقت وهو يخون الملهوفين.

تراجعت سمراء خطوة للخلف أمسكت ذراعها بيديها المرتعشتين.

ـ لا تفعلي أرجوك لا تفتحي الباب.

لكن الجدة لم ترد رفعت يدها وأدارت المقبض فوجدت نفيل امام الباب ابتسمت ثم احتضنته لتضع تلك القبلة على خده الايسر كما تقبل الأم انها، كأنها لم تسمع توسّلات حفيدتها، كأنها لم ترى الدموع العالقة في عينيها.

ـ كيف حالك يا بنى؟

(نفيل)

ـ بخير يا جدتي وأنت؟

(زهرة)

ـ بخير..... بخير.

ـ ثم أضاف نبيل:

ـ أتيت لأخذ سمراء فقد تحدد موعد زفافنا.

احتقرت الكلمات في أذن سمراء كالنار، فوقة صارخة بصوت عالي:

ـ لن أقبل بزواجه هل تسمعني لماذا لا تفهم؟ قلبي لا يشعر بك، ودموعي تسيل من رأحتك، قد يظهر من حديثي الخوف لكنه ليس سوى كره بحت.

رغم كلماتها، لم يتراجع لم يبدُ عليه أي انفعال بل رفع ذقنه ببرود أثار الشعيرات.  
وأضاف:

ـ أنت لا تملكون رفاهية الرفض.

ـ ثم بصوت يعبر عن حزن غير مألوف أضاف:

ـ لماذا تفعلين بي هذا أنا أحبك.

(سمراء)

ـ لقد قلتها سابقاً وساكرها بدون ملل.....اقرأ شفتني جيدا أنا... أكرهك... يا نبيل... وماذا كنت تقول؟ أنت تحبني؟ نعم تحبني حب الجлад للسياط، لا بل هو حب السيف للجروح وسكب الدماء.

(فيل)

لماذا يا ابنة عمي ؟

(سمراء)

ألا تعلم السبب ؟ لقد رأيتك ... شاهدتك تعتمدي على صديقتي المقربة ورأيت النساء اللواتي اختفين من القبيلة ثم عدن محظيات وصامتات، ولم أكن غافلة عن السبب.

شحب وجهه لكنه سرعان ما استعاد رباطة جأشه وضحك بصوت عالٍ.

لكن هذا ليس السبب صحيح ؟

تقدّم منها أكثر، وانخفض صوته حتى صار همساً:

السبب هو صمصاد أليس كذلك ؟

التفت نحو جدتها في صدمة، لكنه أمسك وجهها بسرعة، مجبراً إياها على النظر إليه فقط:

لا... لا تنظري إلى أحد أنا من أكلمك.

امتدت أصابعه إلى عنقها، وضغط بقوة عليها شهقت محاولة التقاط أنفاسها، لكن قبضته اشتدت أكثر.

أنت لي أفهمت؟ حتى لو اضطررت لقتلك.

اندفعت زهيرة نحوه، فدفعته بعيداً عنها بعنف.

هل جئت إليها الأحمق؟

تراجع خطوة بينما تجمدت سمراء في مكانها، تسعل بعنف تحاول استنشاق الهواء.

صرخ نقيل حتى الرذاذ تطاير من فمه لكثرة غضبه:

هي من جئت وليس أنا.

وضعت زهيرة يدها برقق على شعر سمراء لتهديها:

اهدائي يا حبيبي تذكررين حين قلت لك إنك تشبهيني؟ كنت أجرت على الزواج من يحبني وترك من أحببت ورغم ذلك، عشت أياماً سعيدة واحببت زوجي بعد الزواج وصار...

قطعتها سمراء صارخة، وهي تضرب يد جدتها بعيداً:

كيف علم نقيل بأمر صمصم؟

صمتت زهيرة خافضة نظرها إلى الأرض.

اقتربت منها سمراء واحتست لتهمس في أذنها بصوت مرتجل:

أنا أُكْرِهُكِ يا جدتي.

أم سك نفيل معصمهما بقوه.

لن أسمع مزيداً من هذا الهراء.

جزّها خارج المنزل بعنف بينما كانت تصرخ بحرقة:

أُكْرِهُكِ يا زهيره... أُكْرِهُكِ يا زهيره.

بقيت زهيره غالسة على الأرض، تئن بنحيب خافت:

ماذا فعلت...؟

استمر نفيل في سحب سمراء وهي تصرخ، محاولةً تحرير يدها وضرره بعنف حتى وقف عند المصعد الخشبي الذي يربط بيوت الأشجار بالأرض، ثم أشار إلى أحد رجاله قائلاً:

حرك الترس.

توالت أصوات الحبال وهي تنسحب ببطء، وببدأ المصعد يهبط تدريجياً نحو الأرض.

كانت سمراء لاتزال تصرخ:

لا يا نفيل اتركي.

عندما لامس المصعد الأرض، استدار نفيل بنظرات متقدة، ثم خاطب رجاله بجزم  
ومن بينهم قنديش:

ـ جهّزوا الفخ كما أمرتكم وعندما يظهر صمّاص لا تأخذوه أسيّراً اقتلوه فوراً.

صرخت سمراء بكل ما أوتيت من قوة:

ـ لا يا نفيل لا تفعل ذلك.

اقرب منها أكثر:

ـ يل سأ فعل.

ـ زجّرت محاولة الفكاك من قبضته:

ـ سأقتلوك بنفسك إن مسه سوء أنسعني.

لكن نفيل تجاهلها تماماً ثم أمر بصرامة:

ـ لقد سمعتوني أفعلوا ما قلته.

رد قنديش بخضوع وهو يبتسم:

ـ أمرك يا سيدي.

شدّ سمراء بقسوة، ودفعها داخل العربية فيها لم يتوقف صراخها لحظة واحدة.

صعد بجوارها وسرعان ما وضع قناع الاستنشاق على وجهها. حاولت دفعه والخلاص منه، لكن قبضته كانت أقوى. أمسك يديها بحزم:

لا أريدك أن تموتي الآن فأنا أحتجلك.

ثم ابتسم ببرود، قبل أن يثبت القناع على وجهها، وقبل أن يضع قناعه هو الآخر،  
الغفت إلى السائق وأمره بجفاء:  
انطلق.

هوى السوط على ظهور الخيول، فانطلقت العربة تهدر عبر الطرق الوعرة والغارب  
يتصادع خلفها.

---

في ذلك الوقت كانت نساء قبيلة الهواء يتدرّبن بلا توقف تتحرّك أجسادهن بخففة،  
كأن الريح تسري في عروقهن بدل الدم.

فوق القمم الشاهقة لجبل توبيقال في المغرب، حيث الهواء لم يعد نقى كما كان ولكنه  
أقوى مما كان ، وحيث لا يصل إلا من استطاع مجازاة قسوة الطبيعة، تربع مدينة  
الهواء. ليست مدينة بالمعنى التقليدي، بل مستوطنة معلقة على سفوح الصخور  
الوعرة حيث بنيت البيوت بخشب الصنوبر والحجارة متكيّفة مع الطبيعة القاسية.  
أسطحها مناسبة بانحناءات تقلل مقاومة الريح، ونواذها ضيقة، تحمي سكانها من  
الرّوايـع العاتـية التي تهب بلا إنذار.

المرات هنا ضيقه محفورة في الجبل نفسه، تتد كعروق تتثبت بالحياة وسط هذا العلو الشاهق بات السير فيها ليس مجرد تنقل بل اختبار للتوازن إذ يكفي زلة قدم واحدة ليجد المرء نفسه في هاوية لا قاع لها. المنحدرات من حولهم شاهقة، تطل على وديان بعيدة يملؤها الضباب في الصباح، وكأنها محيط من الغيم يمتد تحتها.

في هذه الأرض الهواء ليس مجرد نسمة عابرة، بل قوة حية، أحياناً يكون حليقاً يدفع الطيور نحو أعشاشها، وأحياناً يكون عدواً هائلاً يزج في الليل كوحش يبحث عن فريسة. ولهذا، يعلق سكان المدينة أجراستا صغيرة على أبوابهم، فإذا هبت الرياح ملأت المكان بأصوات متباينة كأنها تحاول ترويض العاصفة بالموسيقى.

قبيلة الهواء هي قبيلة من النساء ليست قبيلة عادية، بل نسلٌ عاشق للسماء، أقدامهم نادراً ما تنقل على الأرض وأرواحهم مربوطة بهذا العلو، حيث لا قيود ولا حدود، سوى تلك التي تفرضها الجبال نفسها.

وقت كارمن الحوت الأبيض في ساحة التدريب شاخته وكأنها أسطورة خرجت من رحم العدم لتعيد تشكيل العالم من جديد.

لم تتحرك من مكانها لكن حضورها وحده جعل الساحة تتجمد في لحظة انتظار خاسعة. خلفها كان معطفها المصنوع من جلد النمرinos يرفرف مع الريح، كأنه راية انتصار معلقة في الأفق قبل اندلاع الحرب.

أماها، اصطفت نساء قبيلة الهواء، تلك المحاربات اللواتي ولدن من رماد العصور القديمة. ارتدن ملابس الأجداد التي استخرجت من المدن المسيحية، وأقنعة استنشاق صنعتها أيادي خبيرة من بقايا معامل مدمرة. الأقنعة كانت زجاجية مريحة تظهر ملامح الوجه وتحذّن من تحتها بكل سهولة كانت ملامحهن تشي بأنهن لسن مجرد ناجيات، بل فاتحات لعصر لا ينفع فيه أحدٌ لغير قوته.

رفعت كارمن رأسها، وصوتها اخترق الفضاء كالبرق:

ـ نساء قبيلة الهواء اليوم سنعلن أنفسنا كما لم نفعل من قبل اليوم سُرِّي العالم أن العاصفة التي ظنواها مجرد ريح ستقتلع جذورهم من الأرض

رفعت النساء قبضاهن إلى السماء، واشتعلت صيحاتهن كجمرات تذكي الحماسة في الأجواء.

تابعت كارمن:

ـ نحن بنات هذه الأرض نحن من حملتنا أهمنا في أحشائهن وهربن بنا من الجحيم! نحن من رفضن الخضوع من حطّمن الأغلال غير المرئية، من ولدن من الألم لنصنع من رماده مجدًا جديدًا نحن من هربنا من الوحش التي دمرت هذا العالم، من العدوى التي التهمت البشر، لكن العدو الحقيقى لم يكن المرض كان الرجال! كانوا أسيادًا في عالمهم القديم، عالم اتهى ومع ذلك حاولوا جرنا إلى عبوديتهم من جديد.

لَكُنَا قَلْنَا لَا .. قَلْنَا هَا بِالدَّم .. قَلْنَا هَا بِالنَّار ... وَ الْيَوْم سَنْجَعُهُمْ يَتَذَكَّرُونَ مَلَأُوا لَا يَمْكُنْ  
لَأَحَدٍ أَنْ يُخْضِعَنَا سَنَاهُمْ مِنْ نَحْنُ.

تعالَتِ الْهَتَافَاتِ وَارْتَفَعَتِ السَّيُوفِ وَالرَّماحِ، وَخَلَفَ تِلْكَ الْحَشُودِ، كَانَتِ جَقْرَاءُ  
تَرَاقِبُ بِصَمَتِ عَيْنَاهَا تَسْفَحُصَانِ كَارِمَةَ وَكَانَهَا تَرَاهَا لِأَوْلَ مَرَةِ.

بِخَطْوَاتِ ثَابِتَةِ، اقْتَرَبَتِ الْعَجُوزُ الَّتِي حَفَرَتِ السَّنَوَاتِ التَّضَارِيسِ عَلَى وَجْهَهَا وَقَالَتِ  
بِصَوْتِ هَادِئِ مَحْلِ بَجْرُوتِ:

— أَرَاكِ تَجْدِينِ إِدَارَةَ أَمْوَالِكَ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَتِ الْحَوْتِ.

ابْتَسَمَتِ كَارِمَةَ وَقَالَتِ:

— وَإِنْ كُنْتَ كَذَلِكَ فَأَنْتِ السَّبِبُ يَا أُمِّي.

(جَقْرَاءُ)

— النَّسَاءُ جَمِيعُهُنَّ يَجْبُونَكِ، وَالْحُبُّ لَا يُمْنَحُ بِفَضْلِ أَحَدٍ.

(كَارِمَةَ)

— جَمِيعُهُنَّ وَأَنْتِ يَا أُمِّي؟

(جَقْرَاءُ)

— وَهُلْ تَشَكَّيْنِ فِي حَبِّي؟

(كارمن)

لَا أشَكْ لِكُنْ كُنْتُ أَتَنْتَيْ أَنْ أَسْعَهَا مِنْكَ.

(جقراء بصرامة)

لَنْ تَسْمِعِيهَا وَلَنْ أَقُولَهَا لِأَنَّ الْعَاطِفَةَ لَا مَكَانَ لَهَا هُنَا ... لِأَنَّ الْحُبَّ ضَعْفٌ وَالْزَعْمَةُ  
لَا يَحْبُبُ أَنْ تَضَعُفَ.

ثُمَّ نَظَرَتْ جَقْرَاءَ إِلَى الْحَشَدِ الْمُتَحَمِّسِ وَقَالَتْ:

هَلْ تَذَكَّرِينَ جَدْتِكِي صَهْبَاءَ؟

سَادَ الصَّمْتُ فَأَرْدَفَتْ:

سَأَخْبُرُكَ الْآنَ عَنْ لَيْلَةٍ لَا تَنْسِي لَيْلَةً وُلِدْتَ فِيهَا قَبْلَتَنَا مِنْ دَمٍ وَنَارٍ لَيْلَةً كَانَتْ فِيهَا  
صَهْبَاءُ الْمَرْأَةُ الَّتِي كَسَرَتِ الْقِيدَ... بِحَمْدِ السَّيْفِ.

قَبْلَ أَنْ نَصْبِحَ كَمَا نَحْنُ كُنَّا نَعِيشُ تَحْتَ ظَلِ الرِّجَالِ أَوْ بِالْأُخْرَى تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، كُنَّا  
نَحْنُ مِنْ نَخْرَجُ لِلصَّيْدِ، نَحْنُ مِنْ نَمْضِي الْأَيَّامَ نَطَارِدُ الْغَرَلَانَ وَالْوَحْشَ فِي الْبَرَارِي  
نَحْمَلُ الْلَّحْمَ عَلَى ظَهُورِنَا الْمُتَبَعَّةِ، نَعُودُ مِنْهَكُاتٍ لِنَجْدِهِمْ يَنْتَظِرُونَا جَالِسِينَ فِي  
خَيَّاهُمْ أَفْوَاهُهُمْ مَفْتُوحَةٌ، بَطْوَنُهُمْ خَاوِيَّةٌ وَعَيْوَنُهُمْ لَا تَرَى إِلَّا الْلَّحْمَ.

لم يكن لنا مكان على المائدة، كنا ننتظر حتى يفرغوا، وبعدهم يأكل الصغار ثم الفئات  
لنا، وإن لم يبق شيء، فليأكل الجميع من أجسادنا حتى يهلكها. أي امرأة تعترض  
ثُصرب حتى الموت أي صوت يعلو يُسكت بمحنة السوط.

كانوا يظنون أنفسهم أسوداً، وكانوا يعاملوننا كاللبوّات. حتى أتت تلك الليلة لم يعد  
في بطون النساء ما يُسكت الجوع ولا في قلوبهن ما يُسكت الغضب.

رأيتها بأم عيني رأيت جدتك صهباء وهي تقف وسط المعسكر، لم تتكلم ولم تبكي  
من الجوع كالأخريات فقط كانت تنظر إلى النساء وهن يتسلطن من الإنهاك  
لم تكن صهباء الأقوى بيننا ولا الأشد بأسا لكنها كانت الأخطر لأنها فهمت.

دخلت كوخها ثم خرجت بعدها تحمل سكينها، رفعتها تحت القمر الباهت، وعندما  
انعكس ضوء النصل في عيون النساء فهمن.

لم تقل كلمة فلم تحتاج إلى ذلك.

في تلك الليلة بدلاً من أن تذهب النساء للصيد، دخلن إلى خيام أزواجهن وبدون  
صراخ أو جلبة سمعت بعدها أصوات السكاكين وهي تشق اللحم، والأنفاس  
الأخيرة وهي تخرج مع الدماء.

رأيُتْ أمِي، التي لم تجُرُ يوماً على رفع نظرها أمامِ أمِي، ثُدَخَ النصل في عنقه دون أن ترمِشْ رأيُتْ النساء اللواتي عشَنَ سنيَّنَ في الظل، يُجلِّنَ الليل إلى جحيم من الدم.

وعندما بزغ الفجر لم يبقَ في المعسَكِرِ رجلٌ واحدٌ على قيدِ الحياة، حينها فقط تكلمت صهباء كانت واقفةً وسطِ الجثث، عيناهَا لم تُرغِّبْ ودم الرجال يقطر من أصابعها قالت:

إلى الجبال.

ومنذ ذلك اليوم لم يعد لنا سيد، لم يعد لنا قيد، ولم يعد لنا مكانٌ للحب لأنَّه هو من جعلنا ضعيفات، هو من جعلنا ننتظِر من جعلنا نرضخ، من جعلنا نجوع حتى التأْرُ. ومنذ ذلك اليوم كانت تحينا بندر اسم المقتول الأول من الرجال الذي هو والدِي حتى لا ننسى من أينْ جئنا وحَقَّ لَا نعود لما كُنَّا عليه أبداً.

قالت كارمن:

اعلم تاريَخنا فلماذا تذكرني.

اجابت جقراء:

حتى لا تطليبي مني المستحيل.

قبل أن تتبادل الأم وابنته كلمات أخرى انفتحت امرأة ترتدي زي المحاربات وقالت:

— بن بن بندر

أحابت كارمن بحزن:

— بن بن بندر.

أكملت المرأة:

— سيدتي لم نعثر على أسلحة جديدة في مدينة مراكش لم نجد سوى المصاين، وقد قتلوا سبعين محاربة من جنودنا، وانتقلت العدوى إلى عشر أخرىات تركناهن هناك يجوبن دون أمل.

تلبد وجه كارمن بغضب مزوج بحزن قاتم:

— لا يعقل هذا لا يمكن أن نخسر المزيد.

تدخلت جراء :

— لماذا لا نكتفي بالسيوف والسهام؟ أسلحتنا اليدوية مصنوعة من أدق المعادن ونكتفي لحمايتنا.

هَزَّتْ كارمن رأسها برفض:

— هذا لا يكفي الحوت الأحمر يملك أسلحة نارية، ويدرك جيداً أنه الأقوى ولن يتزدد في بسط سيطرته على القبائل كلها، ونحن لن نسمح للرجال بأن يستعبدوا

النساء مجدداً حتى لو كان الثمن أرواح الجميع... كما أن الوحش يمكن قتلها بالنار  
أسرع من السيوف.

تساؤلت جقراء بنبرة مريبة:

وكانك متأنكة من وجود مخازن لتلك الأسلحة؟

نظرت كارمن نحو الأفق وكأنها ترى شيء لم يراه الجميع.

لقد قرأت في الكتب أكثر مما تتوقعني يا أبي نعم... المخازن كثيرة، ممتلئة بأسلحة  
الأسلاف الذين حولوا العالم إلى خراب... لقد كانوا يقتلون بعضهم ببعض بلا رحمة  
فللت اللعنة على هذه الأرض.

(جقراء)

إن كان هذا قرار الحوت الأبيض فلن أعارض.

ثم التفتت إلى المحاربة الواقفة:

شلعونه خذى فرقة أخرى وادهبي هذه المرة إلى مدينة طنجة.

انحنى شلعونه بوقار:

أمرك يا سيدتي... بن بندر.

اتت امرأة شابة وانحنى قليلاً أمام كارمن:

بن بن بندر.

سأله كارمن:

ماذا؟

قالت المرأة بصوت يملؤه الرجاء:

ـ سيدتي أريد أن يكون لي بنت أريد أن أصبح أمًا.

حدقت بها كارمن طويلاً، وكأنها تقيس رغبتها بميزان خفي ثم سألتها:

ـ هل تزوجت من قبل؟

هزت المرأة رأسها نفياً وقالت دون تردد:

ـ لا لم أفعل.

сад صمت قصير قبل أن تجيب كارمن بجهاء مدروس:

ـ إذن اذهبي إلى قبيلة الماء ابجثي عن رجل هناك وتزوجي منه.

بدت المرأة وكأنها لم تتوقع تلك الإجابة و لكنها لم تتفوه بكلمة، أكملت كارمن بنبرة صارمة كأنها تردد قاعدة قديمة:

— بعد عام عودي إلينا، وإن كان المولود صبياً فاتركه وإن كانت بنتاً فأحضرها معاكِ... خذى المؤن والهدايا التي ستُغوي الرجل لكي يتزوجك أجعليه يصدق أنك له أجعليه يثق بكِ ثم خذى ما جئت لأجله وعدى إلينا.

لم يكن هذا مجرد قرار عابر بل كان التقليد المقدس لقبيلة الهواء، الطريقة الوحيدة لاستمرار نسلهم دون كسر القانون الأساسي (( لا مكان للرجال بيننا ))

---

### ((الفصل الثاني عشر: وصية النعجة))

نساء خالفن الفطرة، ورجال لم يعملا بها كل<sup>٩</sup> قال:

( نفسى..... نفسى )

نبتة شيطانية نمت في صدورهم، ثم تشبّرت، وتفرعت جذورها في كل قلب فأين الطيب؟ وأين الخبيث؟

كان الجميع قد تساووا في أرض انهارت من تحتهم، فلم يعد هناك فرق.

الشر أصبح قاعدة، والخير استثناء، والاستثناء يوت إذا لم يوجد أرضاً ينبت فيها.....

صهـام بعد أن قضى وقتاً طويلاً في السير، يقرب من أربعة أيام ذاق فيهم ما لم يتنـوق في حياته وصل أخيراً إلى غابة نيمورا، حينها لم يكن هذا وصولاً حقيقـياً بل كان أشبهـ بـأنهـيارـ رـجـلـ خـارـتـ قـواـهـ عـنـدـ العـتـبةـ الـأـخـيـرـةـ.

جسده تأثر من كل ما مر به فقد أصبحت عظامه بارزة تحت جلده ووجه فقد لونه، وشفاهه تشقت من شدة العطش . أما قدماه فقد تورمتا من السير بالكاد تحملانه.

المميز في الأمر عينيه التي لم تتغيرا ، فإنها ما زالتا تحملان ذلك الشيء الذي يجعل الإنسان يقفز من أعلى التل دون أن يفكر ، نعم تحملان الحب . الحب الذي نظن اننا نطارده حتى نكتشف في نهاية المطاف انه من يطاردنا .

رفع القناع الاستنشاق عن وجهه وجّب أن يلأ رئتيه لكن الرائحة كانت مقرفة، مالوفة إلى حد الاشتياز أعاد القناع فوراً على وجهه، ثم تردد في هذا القرار واذاله مرة أخرى، حك رأسه وهو يهمس لنفسه:

لقد قالت سمراء إن هواء نيمورا نقى لكنى لا أشعر بذلك.

**ضحك ضحكة قصيرة خاوية، كأنها انزلقت منه رغمًا عنه:**

هواء نيمورا نقى؟ لا لقد قالت إن الهواء النقى في القرية وليس هنا.

توقف مرة واحدة واتسعت عيناه فقد كان هناك شيء غير منطقي، استنشق الهواء  
مرة أخرى وانحنى ليجلس التربة بأصابعه فنطخت يداه بطين أصفر رفعها إلى أنفه  
بحذر ثم شتمها:

— هل هذا براز نمل البرير؟

تراجع خطوتين ومسح يده بسرعة في جذع الشجرة حينها بدأ يرتجف لا إرادياً.  
و قبل أن يدرك ما يحدث، انسابت عليه شباك من بين الأشجار ، التفت حول  
جسمه فأسقطته أرضاً.

ومن فوق الأغصان ظهروا واحداً تلو الآخر كشتات الأمطار، ثلاثة عشر من  
الرجال، ملثمون بأقنعة التنفس، كانوا يعلقون البنادق على الأكتاف وعيونهم قاسية  
تنامله كما يتأمل صياد طريدة وقعت في المصيدة .

أزال قدسيش قناعه فكان وجهه مألوفاً على صمصاص قال له وهو يدنس منه:  
— لم أتوقع أن نلتقي هكذا ولكن يبدو أنك تعشق شباكنا حتى تسقط بين أيدينا  
مرتين..

لم يرد صمصاص ولم يرمش حتى، بل نظر إليه كمن يحدق في ماضيه، كمن يرى كل  
شيء مرة أخرى ، الأرض المحروقة والدخان الأسود، والجثث المبعثرة بين حقول  
المزرعة كل شيء.

(صمصام)

أنت تجسيد لكل خيبة حملتها، فإن وجهك لا يفارق أحلامي يأتيني مع صرخات العمال، مع وجوه الأطفال الذي ينادونني في سباتي، أين طعامنا؟ أين ما وعدتنا؟ مع الأمهات اللواتي بكين حتى جفت دموعهن... أنت من حرق الأرض، وسرق القوت، وأحرق القلوب قبل الحقول.

(فنديش)

ذكريتك قوية هل أنا فعلت كل هذا... أجل ولكنه قليل جدا، سرقة الحصول وقتل العمال بداية جيدة فلنضف، عليهم حرق قلب أمك وجعل دموع الحوت الأزرق تجف للأبد.

لم يتغير وجه صمصام و بدلاً من الذعر، انحنى زاوية فمه بابتسامة جانبية وقال:

سأحكي لك قصة قد لا تعجبك.

(فنديش)

لا تقل شيئاً فأنا لا أريد أن أسمع سوى صراخك حين انزع الروح من جسدك. وأشار برأسه، فاندفع أحد الجنود بثبات، يده على مقبض بندقيته عازماً على اطلاق النار في جسد صمصام.

لكن قبل أن يتحرك خطوة أخرى، دوى صوت قنديش فجأة، قاطعاً المشهد:  
توقف.

تجمد الجندي مكانه.  
أمال قنديش رأسه نحو صهصام ثم نظر إليه بنصف ابتسامة جامدة وقال:  
سأكون رحيمًا لمرة أخيرة، قُل ما تريده فهذا آخر ما سنتقوله.  
(صهصام)

كان هناك رجلٌ امتلكَ ما يكفيه، ومع ذلك مدد يده إلى نعاج أخيه، لم يكن  
بجاجة إلى صوف أو لبن، بل إلى ذلك الإحساس الطاغي بالهيمنة أن يكون "أغنى"  
لأنه افتقر، بل لأن أخيه امتلك.

وحين وقف الأخ المظلوم أمامه طالباً ما سرق منه لم ينكِ السارق السرقة  
فحسب بل أنكر الحق نفسه وقال له بعين ثابتة وصوتٍ ميت:  
هذه النعاج لي، أنا لم أسرقك يا ابن أمي.

هنا بدأت المأساة الحقيقة ليست في السرقة، بل في زرع الشك في الذاكرة. حين  
يقال للمظلوم إنه ليس مظلوماً، وحين يعاد سرد الحكاية أمامه كل يوم حتى ينسى  
نسخته الأصلية.

في البداية فعل المسرور كل ما بوسعه صياغ و صالح، احتجاج و احتاج حتى انه قاوم لرمق الأخير.

لكن الكلمات كانت تهار كالرمال في كف مبتلة، شيئاً فشيئاً بدأ يصدق أن أخي لم يسرقه لأن أنه اقتلع بل لأن الزيف حين يكرر يصبح واقعاً.

حتى النعاج نسها خضعت. آمنت للذى يضرها ويطعمها، لأنه ببساطة الواقع المستمر.

كلها إلا واحدة نعجة وحيدة، بقى في عينيها بريء سؤال: من أنتي؟  
كل يوم تهرب، ترکض، تقف عند تخوم الذاكرة، لكنهم يعيدونها، يضربونها،  
ويقولون لها: مكانك هنا.

و مع ذلك لم تتوقف كان بداخلها شيء لا يصفع شيء يُسقى الكرامة التي لم تُربَّ على الطاعة.

حتى جاء اليوم الذي وصلت فيه إلى صاحبها الحقيقي لكن الكارثة كانت هناك.  
لقد أنكرها.

ربما لم يتعرف عليها.

ربما خاف من الاعتراف.

ربما كان قد نسيها مثلاً نسي نفسه.

وهناك في تلك اللحظة فهمت النعجة أن الحقيقة لا تكفي إن لم يؤمن بها أحد.

فلم تعد ترکض بل ذهبت برجليها إلى وكر الذئاب لم تكن تبحث عن الإنصاف بل عن خاتمة بلا إدلال. أن تفترسها الوحوش، أهون عندها من أن ثرثت على ظهرها يد الكذب وقتها لحق بها الراعي السارق، لم تفهم الذئاب الفرق فالوحوش لا تقرأ النوايا، ولا تحفظ للجلاد اسمه.

قفزت عليه كما قفزت عليها التهمت لحمه، كما التهمت لحمها. سقط هو يصرخ، وسقطت وهي تبتسم.

هو مات طاغية أذكر الحقيقة.

أما هي... فماتت حرة.

ضاقت عينا قنديش:

ما هذا الهراء

اجاب صمّاص :

لن تأسري مرة أخرى ولن ارضي ان اقتل بيديك.

ثم اردف بصفير حاد متقطع.

فجأةً دوى صوت قوى واختفت رأس أحد الجنود، لم يفهم قنديش ماذا حدث، ففي لحظةً الجسد سقط مفرغاً نافورةً من الدماء، فتراجع الجنود في ذعر واحاطوا بقنديش مكونين دائرةً ضيقة، بنا دقهم ترتجف في الأيدي، والعرق يتصلب على وجوه فقدت لونها، لم يكن أحدهم يعرف من أين تأتي الضربة التالية، وكانوا يسجبون بعضهم بعضاً للخلف، يطلقون النار في غير موضعه، الرصاص كان ينهال من خوفهم على لا شيء، إلى أن خرج من لم ترءَ عينيه من بين الجنود ومن تحت الأرض ومن فوق الأغصان، كأن الغابة قد لفظتهم دفعَةً واحدةً كانوا نمل البرير، أجسادهم صلبة وأنياتهم ضخمة، وأجسامهم تساوي عشرة أضعاف الإنسان العادي. هم لم يركضوا نحوهم بل قفزوا مباشرةً واقتضوا على الفرائس كالجراد المنتشر.

كان كل من يسقط يلتهم فوراً، بعضهم نُهش حياً وبعضهم قطع إلى أشلاء، والبعض الآخر ابتلع كاملاً في لفحة واحدة.

كان صحماصم يحاول مدد يده المترنجة إلى خنجره المعلق في قصبة رجلة حتى امسكه أخيراً وأخذ يقطع الشباك التفت قنديش بجنون ببحث عن مخرج رأى الفوضى رأى كيف تُسحب الأجساد وتُطعن تحت أنبياب النمل، وعرف أنه إن بقي هنا لن يكون مصيره مختلفاً. فاستدار وركض بكل ما تبقى فيه من حياة لكنه لم يذهب بعيداً.

وقف أمامه صمصام عينيه بارداً و قال بهدوء يتناقض مع العاصفة التي تحيط بهما:

قلت لك موتك سيكون بيدي.

لهث قنديش ثم نظر خلفه فرأى النمل يقترب، ارتجف صوته وهو يقول:

إن لم نذهب الآن ستموت معي.

(صمصام)

هل نسيت قصة النعجة؟

(صرخ قنديش)

هذه قصة لا تجعل الخيال يأخذنا إلى الهلاك!

(صمصام)

أوافقك الرأي.

مد يده إلى الأرض وحمل بنديمة كانت بيد أحد الجنود الاموات أدارها بسرعة، وأطلق رصاصتين لم تكن على النمل.

كانت في قدمي قنديش.

صرخ الأخير وهو ينهر أرضاً ينظر إلى صمصام بذهولٍ متوجّبٍ بخوفٍ خوفٍ لم يشعر به في حياته قط.

قال صمصام بصوتٍ خافتٍ حمل طنين الانتقام:

— لماذا نموت نحن الاثنين فلم تفتأت وحدك.

ثم استدار وركض إلى الظلال حتى اختفى في منخفضٍ بين الأشجار تاركاً قنديش يصرخ ويقول:

— لا تترکني لهم، اقتلني ارجووك أطلق النار علىّ قبل أن تذهب.

لكن صمصام لم يلتفت.

ظل قنديش يزحف على الأرض ويصرخ في استجداء لم يعد ينفع، حتى قفزت عليه نملة ضخمة أمسكته من رأسه ثم رفعته عاليًا حتى رمته في الهواء. ارتفع جسده للحظة كأنه طائر مكسور الجناح، ثم هوى إلى الأسفل مباشرةً داخل فليٍ مفتوح كان ينتظره.

انغلق الفم وفي ثوانٍ بدأ القضم، وقنديش لم يملك حتى فرصة ليصرخ مرة أخرى.

بعد أن هدأ الوضع واتهى كل شيء ، خرج صمصام من مخبأه ببطء، كان يخاف من أن يظهر شيء له من جديد، حتى وقف في مكانه ودارت عينيه بين الدماء المنتشرة وأشلاء الجثث المتبقية من أسنان النمل، تراجعت عيناه في محجريها،

وغرق في الدموع، ثم سقط على ركبتيه غامساً يديه في الدماء الدافئة وبعد رفعها إلى السماء، بينما كان الغبار الرمادي يلف الأفق كفرين معلق صرخ:

ـ دماؤكم لم تخفف ما بداخلي !!!

لم يسمح للحزن أن يشلّ خطاه مسح دموعه واستجتمع أنقاسه ثم نهض بثقل على قدميه متوجهًا نحو الشجرة التي وصفتها له سمراء.

وقف أمام جذعها العتيق حيث انساب تحت أنامله الخشنة ملمس لحاءها العجوز. تحسس الأخاديد حتى لامس السلم المنحوت بخفاء داخل الجذع زفر ثم بدأ بالصعود ببطء متسللاً كما يفعل البحر حين يحتل اليابسة، زحف بحذر على أصابعه وأطرافه الأربع فوّق الدرجات الخشبية، إلى أن بلغ الباب المدمع بجسد الشجرة.

رفع يده ووضع راحته فوق الخشب، ثم دفعه بهدوء فنفتح الباب بلا صوت. في الداخل كان الحارسان بكر ويكيير يقان بوجوه صارمة رفع بكيير رأسه وسأل بصوت أجمش:

ـ من أنت؟

(صمصام)

ـ أنا صمصام ابن الحوت الأزرق.

ضحك بـكير بصوت مرتفع ثم التفت إلى أخيه ورمت على كشفه مستمتعًا بال موقف:

- انظر يا بـكـر! متشرد يـدـعـي أنه الورـيـث الشـرـعي لـقـبـيلـة المـاء، لم نـرـى يومـاً طـموـحـاً كـهـذا.

لكن بـكـر لم يـضـحـك رـاحـ يـتأـمـلـه وـيـزنـ كـلـيـاتـه حـتـى تـحـركـتـ شـفـتـاهـ:

ـ من يـدـخـلـ هـذـهـ الأـرـضـ يـجـبـ أنـ يـحـمـلـ دـعـوـةـ، أوـ يـكـونـ مـدـعـواـ منـ أـحـدـ سـكـانـهاـ.

(صمـاصـامـ)

ـ أـعـرـفـ شـخـصـاـ هـنـاـ، خـذـونـيـ إـلـيـهـ.

(بـكـرـ)

ـ وـمـنـ يـكـونـ؟

(صمـاصـامـ)

ـ زـهـيـرـةـ جـرـجـيلـ زـوـجـةـ عـشـنـارـ وـأـمـ الحـوتـ الأـحـمرـ.

تجـمـدـتـ اـبـسـامـةـ بـكـيرـ وـتـقـابـلـتـ عـيـنـاهـ معـ بـكـرـ ثـمـ قـالـ بـخـفـةـ لـمـ تـخـفـ توـرـتـهـ:

ـ لـمـ تـذـكـرـ لـنـاـ الجـدـةـ قـدـومـكـ، ثـمـ إـنـكـ اـنـكـتـ اـبـنـ الحـوتـ الـأـزـرـقـ، فـأـبـاكـ عـدـوـاـ  
لـابـنـهاـ، فـكـيفـ نـصـدـقـكـ؟

(صمصام)

— خذوني إلها!

(بكر)

— هل تعلم كم شخصاً يأتي لاجئاً إلينا كل يوم؟ لو سمحنا للجميع بالدخول، لمنا جوغاً عد من حيث أتيت.

لم يتحرك وزجر بصوت يملأه العناد:

— لن أعود سأدخل.

تحرك الأخوان لمنعه، لكنه دفعهما بقوة، جسده كان أقوى مما يبدو، ويداه ضربتا صدر بكر بوحشية غير متوقعة.

تأرجح بكر للخلف، لكنه سرعان ما استعاد توازنه، صمصام قبضته انزلقت نحو سيفه، لكن بكر كان أسرع رفع عصاه الحديدية وهو يضربة مباشرة فوق رأس صمصام.

ارتطم جسده بالأرض، وبدأت دماءه تسيل.

تراجع بكر خطوة، ونظر إلى شقيقه بعينين متسعتين ثم قال:

— ماذا فعلت أليها الأحق؟

(بكر ببرود)

ماذا لقد منعته من الدخول.

لكن بكير لم يكن مقتنعا اقترب وركع بجانب الجسد الغارق في الدم ثم مد يده  
ليتأكد و همس بخوف:

ـ بل قتلته.

التفت إلى شقيقه ثم تابع :

ـ إن كان ابن الحوت الأزرق حقاً فإن مقرعون لن يهدأ حتى يقتل هذه الشجرة من  
جذورها.

(بكر)

ـ محنتنا منع المتطلفين مما كان الثمن.

زفر بكير وهو يضغط على جبينه، كأن صداعاً حاداً ضرب رأسه:

ـ نعمهم لا قتلهم خاصة إن ادعى أحدهم أنه ابن الحوت الأزرق...احمله معى.

تردد بكر للحظة ثم أطاع أخيه.

حملوه بعيداً، متوجهين إلى أبعد بيت في القبيلة كان ذلك بيت الطبيب شدلي .  
وصلا عند باب بيته الذي يحمل رمز جمجمة اعلاه.

طرق بكيـر الـباب فـجأـهم صـوت هـادـئ من الدـاخـل:  
\_ اـدخلـوا.

دـفـعـت يـد بـكـير الـباب، فـانـفـتح لـيـكـشـف عـن غـرـفـة مشـبـعة برـائـحة الأـعـشـاب، وـعـلـى مـقـعـد خـشـبي يـجـلس شـدـلي الرـجـل الحـسـينـي، ذـو شـعـر أـيـضـ بالـكـامـل بلا شـعـرة وـاحـدة سـوـدـاء رـغـم أـن مـلـامـحـه لمـ تـكـن بـهـذا الـكـبـر إـلـى أـن شـعـره قـال عـكـس ذـلـك.  
رفع الطـبـيب عـيـنـيه إـلـيـها ثـم نـظـر إـلـى صـحـصـام الـوـاقـع مـنـهـا عـلـى الـأـرـض، وـقـال بـهـدوـء زـانـفـ:

\_ أـرـى أـنـكـما تـرـيدـان مـنـي إـلـقـاذ هـذـا الشـخـص .

اجـاب بـكـيرـ:

\_ مـازـال عـقـلـك يـعـمل...  
(شدـلي)

\_ هل يـحـمـل دـعـوة بـالـزـيـارـة؟

اجـاب الـاثـنـان فـي نـفـس وـاحـدـ:

لا....

(شدـلي)

— هل أنتَ أحقان؟ لو علم العدة، سأقتل على الفور.

ابتسِم بـكِر ابتسامة جانبيّة وقال:

— بل سـتعالـجـهـ.

رد شـدـليـ بلاـ مـبـالـاـةـ:

— وهـلـ سـتـجـبـرـنـيـ؟ـ

اقـرـبـ بـكـرـ مـنـهـ وـخـفـضـ صـوـتـهـ :

— لا...لكني أـرـيدـ فـقـطـ أـذـكـرـكـ بـشـيءـ صـغـيرـ،ـ العمـلـيـاتـ السـرـيـةـ الـتـيـ تـقـومـ بـهـاـ،ـ  
وـالـطـعـامـ الـذـيـ تـأـخـذـهـ مـنـ الـمـرـضـىـ،ـ وـعـلـمـيـاتـ الإـجـهاـضـ،ـ وـالـسـمـومـ الـتـيـ تـبـيعـهـاـ دـوـنـ أـنـ  
تـنـظـرـ لـنـ يـشـتـرـهـاـ.

جـحـظـتـ عـيـنـاـ شـدـليـ بـسـرـعـةـ ثـمـ تـحـركـ وـوـضـعـ يـدـهـ عـلـىـ فـمـ بـكـرـ وـهـمـسـ بـأـرـبـاكـ:

— اـصـمـتـ يـاـ اـحـقـ الـجـدـرانـ لـهـ آـذـانـ..ـ

ابتسِم بـكِر ابتسامة سـخـرـيـةـ وقال:

— إـذـنـ سـتـعـالـجـهـ،ـ اـمـ تـرـيدـ لـجـدـرانـ اـنـ تـسـمـعـ ..ـ

زـفـ شـدـليـ وـهـوـ يـسـحـ عـرـقـهـ،ـ ثـمـ انـخـنـيـ لـيـتـفـحـصـ الجـسـدـ المـلـقـيـ أـمـامـهـ وـتـمـ سـاخـطاـ:

— سأعالجه لكن لما تهتان بهذا الغريب إلى هذه الدرجة؟ من هو؟ وكيف دخل وهو بلا دعوة؟

شعر بكير بالضيق فقال:

— كفاك أسئلة، لا تكون كالعجبائز، تتحدث دون أن تفكـر! افعل ما عليك قبل أن يفوت الأوان.

(شدي)

— سأحاول تجاوز هذه الإهانة والآن اخرجا دعاني أرى ما يمكنني فعله لهذا المسكين.

امثل بكر وبكير ثم خرجا وأغلقا الباب خلفهما، ثاركين الطبيب وحده مع صمصام الذي كان يخترف بأسماء غير مفهومة لكن بين الكلمات المتقطعة التقط شدي إسمًا واحدًا بوضوح:

— سمراء.....

رفع حاجبه وهو يبتسم لنفسه:

— اسم جميل.

اقترب من الطاولة، و جرد صمصام من ثيابه ثم مدد يده إلى الأرضية حيث نمت شجرة صغيرة وسط الحجرة، جذعها مائل أمسك بأحد فروعها، وسحب خنجره، ثم نفر الفرع بطرف الشفرة.

على الفور سال منها سائل أسود كثيف، سقطت قطرات من ذلك السائل في إناء معدني كان يحمله الطبيب.

حمل الإناء نحو موقد حجري في زاوية الغرفة، أشعل النار، ووضع الإناء فوق اللهب المترافق وظل يراقب السائل وهو يبدأ بالغليان، متوجهاً كالبحر.

تحرك بيده إلى رفوفه المتربة، وأخذ حفنة من الأوراق المجففة، أسقطها واحدة تلو الأخرى في الإناء، ثم أضاف قشر فاكهة البتران رائحته الحامضة تصاعدت مع البخار. لم يتوقف عند هذا الحد بل التقى حفنة صغيرة من الحشرات المجففة وأسقطها ببطء داخل المزيج، صوت الطقطقة الخافت يؤكد أنها تلاشت داخله. أخيراً أخرج دودة صغيرة رمادية اللون، أسقطها في السائل فبدأت تتلوى للحظات قبل أن تستسلم للنار.

أمسك ملعقة خشبية، وبدأ بتحريك المزيج ، كان يظهر على وجهه عدم التأثر بالروائح التي قد تثير غثيان أي شخص آخر. استمر بالمزج حتى تأكد أن كل شيء قد تماهى، ثم أطفأ النار وانتظر حتى برد الخليط.

عندما أصبح متاحسًا كالعجبين، أخذ حفنة منه، مذمًا بأصابعه حتى أصبحت على شكل طبقات رقيقة، ثم بدأ في لقها حول جروح صمّاص.

ضيادة فوق رأسه، حيث الجرح الذي سال منه الدم.

ضيادات أخرى على قدميه المتورمتين، حيث أثر الرحلة الشاقة.

طبقات على بطنه وظهره حيث الكدمات الغائرة.

اللهم نظرةأخيرة على عمله، ثم تتم ساخراً وهو يجفف يديه:

— إن عاش فقد كان قويًا بما يكفي ليستحق الحياة، وإن مات فلا ذنب لي كثنا سنتوْت على أي حال.

---

بعد مرور يومين لم يشعر بهما صمّاص ، فتح عينيه المغمضة أخيراً، جفونه ثقيلة كأنها تحمل أطناناً من الغبار. تنفس بعمق فتسلىت رائحة الأعشاب والدخان إلى أنقه لكنه أدرك شيئاً.

كان يتتنفس بحرية دون قناع الاستنشاق.

تحسس صدره العاري، ثم نظر إلى الضيادات السوداء التي تنطلي جسده. بدأت يده ترتجف وهو يزيل أول ضيادة عن كتفه متوقعاً رؤية جرح متعرّض لكنه وجد جلد سليمًا كأن لم يكن هناك جرح قط.

أزال أخرى عن صدره ومن ثم عن ذراعه وكلما أزال ضيادة، أكتشف أن جسده قد تعافى.

و قبل أن يستوعب الأمر، افتح الباب، ودخل شدلي، عيناه فاحصتان كعادته.  
عندما رأه يتحرك رفع حاجبه وقال بنبرة جافة:

— لا ترهق نفسك استرح.

لكنه لم يكن لديه وقت للراحة جلس على الفور وألقى نظرة سريعة حول الغرفة، ثم ثبت عينيه على الرجل الغريب أمامه وسأل الله بحذر:

— أين أنا؟ ومن أنت؟

أجاب شدلي دون أن يبدو عليه أي تأثر:

— أنا شدلي، طبيب قرية نيورا، وأنت الآن في منزلي.

— هل أنا في نيورا... قالها بينما اتسعت عيناه من الدعشة.

أوماً.

— نعم، الأَخْوَانْ بَكْرْ وَبِكِيرْ أَحْضَرَاكَ إِلَى هُنَا.

تجهم وجهه وتذكر آخر ما حدث قبل أن يفقد وعيه.

— من هما؟

قال وهو ينظر إليه كأنه يتحدث إلى طفل:

ـ حارسا باب القرية.

صرخ بيننا صوته كان ممتلئا بالغضب والارتباك:

ـ كيف هذا؟ لقد حاولا قتلي!

رفع شدلي كتفيه بلا مبالغة، كأن الأمر لا يخصه.

ـ لا أعلم ما حدث لكن ما أعلمه هو أنك قوي بما يكفي لتبقى على قيد الحياة.

حدق في الأرضية وكأنها ستنهمه إجابة، ثم رفع رأسه خجلاً وسأل بصوت مضطرب:

ـ منذ متى وأنا هنا؟

أجابه شدلي دون أن يطرف له جفن:

ـ يومان.

اتسعت عينا، وشحب وجهه، كأن صاعقة ضربته.

ـ يومان! مستحيل قد تكون رحلت!

(شدلي بغضول)

ـ من؟

صمصام لم يحب بل تتم بصوت خافت كأنه يحدث نفسه:  
\_ لا وقت... لا وقت.

حاول أن يقف لكنه ترخ وسقط على ركبتيه، كان صدره يعلو ويحيط مع سعالٍ حاد.

أسرع شدلي للإمساك به، لكنه أبعد يده بعناد، ونهض مرة أخرى، ورغم ألم جسده زحف إلى زاوية الغرفة حيث علق قيصه، سحبه بعنف وارتداه على مجل. ثم التقط سلاحه:

ـ سأذهب الى الجده زهيره..

تهد شدلي وكأنه يتوقع هذا العناد ثم أشار إلى طاولة صغيرة حيث وضع طبق من فاكهة البركان وكوب ماء.

ـ تناول بعض الطعام أولاً.

أخذ صمصام الفاكهة والتهما بنهم، دون أن يكلف نفسه عناء تشhirها، ثم تناول كوب الماء وشربه جرعةً بعد أخرى، حتى هدا نفسه قليلاً.

وضع الكوب جانبها ومسح فمه بكم قيصه، ثم نظر إلى شدلي وقال بامتنان :

أشكرك على حسن ضيافتك، لم أكن أعلم أن هناك من يساعد الآخرين في هذا العالم الموحش.

(شدلي)

لا تنظر إلى ما أصبح عليه الناس، بل فكر فيها قد يصبحون عليه إن صرت مثلهم.

ثبت صهصام عينيه عليه للحظة ثم أومأ بصمت.

الثالث شدلي نحو الباب ونادى:  
 Maher.

بعد لحظات، دخل رجل طويل منحني القامة اعرج القدم.

قال شدلي وهو يشير إلى صهصام:

ـ خذه إلى بيت الجدة زهيرة، ولا تتركه إلا عند باهها.

أومأ ماهر دون نقاش، ثم نظر إلى صهصام وقال:  
ـ اتبعني.

شدّ صهصام قبضته على سلاحه، ثم تبعه دون تردد.

سار بخطوات غير ثابتة خلف ماهر الاعرج، ينظر حوله بحذر، محاولاً أن يفهم هذا المكان الجديد الذي وجد نفسه فيه و بعد لحظات قال:

هل تعرف ذلك الطبيب جيداً؟

أجابه ماهر دون أن يلتفت:

نعم أنا مساعدته.

(صمصام)

يبدو أنه يحب فعل الخير.

ابتسم ماهر ابتسامة خفيفة، لكنها كانت غامضة ثم قال بصوت يحمل مزيجاً من السخرية والحقيقة:

لا أعلم عنه شيئاً ثابتاً يبحح ويدمل يتصق ويحشف لا يستقر على حال.

تجهم وجه صمصام وقال باستغراب:

لا أفهم كيف يكون هذا؟

ضحك ماهر ضحكة قصيرة وقال:

ولن تفهم أنا مساعدته منذ سنوات ولم أفهمه بعد ولم أعلم إن كان ملاك رحمة أم جزاءاً.

شعر صمّاص بقشعريرة خفيفة تسري في جسده، فاللتفت لا إرادياً نحو منزل الطبيب، حيث تأمل الجمجمة المرسومة

و همس لنفسه:

ـ غريب هذا الرجل

لكن قبل أن يغرق في أفكاره توقف ماهر وأشار إلى منزل زهيرة:

ـ لقد وصلنا هنا هو منزل الجدة زهيرة.

استدار ورحل دون كلمة أخرى وقف صمّاص أمام الباب حينها كانت يداه متربّتان، عينه على الخشب وقلبه يضرب صدره كالطبول لم يكن الخوف من مواجهة سمراء هو ما جمد يديه، بل الخوف من غيابها أن يكون تأخره أضعافها من يده.

تخيل المشهد الأسوأ الباب يفتح ولا يجدها.

طرق الباب فخرجت زهيرة، عيناها كانتا تشتعان بالحزن والتrepidation، كما لو أنها تزن الواقع أمامها:

ـ من أنت؟

أجاب:

—صمصام.

لم يظهر عليها شيء من الدهشة او الترحيب، ولا حتى ضيق، نظرتها كانت صلبة  
كسياج من الأشواك.

—وما الذي تريده؟

(صمصام)

أبحث عن سمراء هي تعرف أني قادم.

صاحت زهيرة لحظة، كأنها تفگر في كلماتها قبل أن تلقي بها كسهام في صدره:

—لقد ذهبت لتتزوج ابن عمها.

ارتجف صوته رغم محاولته الثبات:

—لا....لا...لا يمكن.

(زهيرة)

—ولماذا لا يمكن لقد وعدتها أن تأتي في سبعة أيام ولم تأتي ماذا كنت تنتظر منها.

(صمصام)

لقد مرت بما لا تخيليه!

(زهيرة)

لم تعد ترید سماحك، ولقد تركت لك رسالة على لساني .

ثم بصوت لم يكن فيه ذرة تعاطف اردفت:

ابعد عنى، لقد اتهى وقت اللعب، فنحن أعداء ولن نصبح غير ذلك.

تراجع صمصام خطوة، كأن الكلمات دفعته للخلف:

أنت تكذبين.

(زهيرة)

هذه هي الحقيقة سواء قبلتها أم لم تتقبلها، ستظل الحقيقة.

ثم أغلقت الباب بقوة في وجهه.

تماشي في أزقة نيورا بينما خطاه تقطر خيبة كان قلبه يحمل أعباء ثقيلة، لكنها لم تكن شيئاً أمام ما كشف الآن، وهو منغمس في حزنه رقم فجأة في ظلال المصايح الضعيفة المعلقة في الأرجاء شخصاً أو ما تبقى من شخص فقد كان بوجهه أحضر ملامحه كأنها قالب من اللحم أعيد تشكيله بطريقة خاطئة، أسنانه طويلة، ملتوية، وابتسماته مرعبة بينما يداه تحركان ذراع ترس المصعد.

اندفع صهصام على عجل ثم اخرج السيف من غمده وقام بطعن المتحول فأسقطه أرضا بلا حراك.

لكن الكابوس لم يكن ذلك الرجل بل ما كان يرفعه المصعد.

حين بلغ المصعد سطح القرية افتح كأفواه جائعة، وخرج منها الجحيم ذاته.

أجساد كانت بشرا يوما ما، لكنها الآن مشوهة ومزقة، عيونها جوفاء، أنفها متسخة، وأصواتها ليست سوى صدى جوع لا يشبع، ثم كما لو أن الجحيم لا يأتي وحيدا، بدأوا يركضون وحيثما سقط واحد، نهض اثنان، وحين يتم عرض اي شخص ينضم ضحية جديدة إلى الطوفان الأسود كان كل شيء ينهار.

صرخات وأصوات خطوات راكضة ورائحة الدم وصياح اجتاج المكان .

صهصام بين كل هذا، كان يركض لم يكن يفكر سوى بشيء واحد النجاة بالوصول إلى زهرة.

وصل إلى بابها حينها بدأت يداه تضربان الخشب بعنف قائلاً.

— افتحي الباب يا جدة المصايبون اجتاحوا القرية!

صوته خرج كصوت ناج يصرخ في بحر هائج، كان يعرف أن كل ثانية تمضي تقترب من الموت، لكن الباب ظل مغلقاً.

— زهير )))))) افتحي الموى اجتاحتوا القرية.

لكن الرد جاء قاسياً كحكم محكمة لا استئناف فيه:

— اذهب من هنا يا صمصام ولا تحاول خداعي.

---

### ((الفصل الثالث عشر: نيمورا تحرق))

قض على قبضة الباب واستمر يضرب بكفه.

زهيرة بحق النساء صدقيني ... اجتاحتوا القرية لقد قتلوا الجميع.

قالها كان يصرخ خلف الباب لكن عقلها كان يكتبته، غير أنها حين أصفت إلى الخارج سمعت الصرخات التي بدأت تعلو وتقرب أكثر فأكثر حينها علمت أنه لم يعد هناك مجال للإنكار.

فتحت الباب ثم مدت يدها وسجّبته إلى الداخل منتشرة من بحر الجثث ثم أغفلت بقوة اسندت ظهرها على الباب وهي تتبرّج بعنف.

تراجع عن الخلف، أصابعها تهتز، عينها تائهة، سارت بضع خطوات وهي تضرب بقبضتها راحة يدها الأخرى ثم توقفت وهمست:

القرية... ضاعت.

وضعت أذنها على الباب، فأصفت إلى ما يحدث كانت الأصوات تُمزق الهواء، كأن  
آلاف الأرواح تصرخ في آن واحد، أصوات العظام تتكسر، الأبواب تُحطم، الأرض  
ترتجف تحت وطأة خطوات ثقيلة لا تنتهي للبشر، كأن الموت قد ترك شكله المألوف  
وصار يمشي على قدمين.

قالت بصوت خافت بالكاد يخرج من بين شفتَيهَا المرتجلتين:

ما زلت ستفعل؟

(صمصام)

لا أعلم...

(زهيرة)

كيف بدأ هذا؟ كيف حدث؟

(صمصام)

لا أعلم لكنه بدأ من المصعد..

ابتلعت ريقها وهي تنظر إلى الباب ثم هممت:

لأنهم هنا ولا شيء سيوقفهم الآن.

وضع يده على فمه يحبس سعاله قبل أن ينفلت منه.

التفت إلى زهيرة:

ـ ييدو أذك مريض، لكن لا تُصدر أي صوت.

ـ وأما برأسه، ثم قال بصوت خافت:

ـ هل يمكنني الصعود إلى العلية؟

أشارت إلى زاوية الغرفة، حيث كان سلم خشبي مطويًا في الأعلى، أمسكت بعصاها الحديدية، وضررت بها طرف السلم حتى تحرر ونزل ببطء، تحرك صمّاص نحو السلم، لكن قبل أن يمد يده لمساعدتها، زجرته بنظرة حادة:

ـ قد أبدو عجوزًا، لكنني لست عاجزة.

بعدها صعدت بخطوات واثقة، وسحبت السلم خلفها.

طلع صمّاص من النافذة الصغيرة التي كانت في العلية فتأمل الجثث التي تملأ الشوارع، بعضهم يلتهم حيًّا، وبعضهم يتحول أمام عينيه.

التفت إلى زهيرة فوجدها متسمرة في مكانها، فمما مفتوح، عيناها متسعتان:

ـ لا... لا!

نجاة رفعت رأسها لتصرخ، لكن يده كانت أسرع أغلاق فمها قبل أن ينطلق صراخها أخذت تضريه بقبضتيها المرتعشتين، تقاوم يده التي تمنعها من التفوه لقد شعر

باضطرابها، لكنه لم يكن هناك وقت للشفقة فقام بضررها ضرورة خفيفة على مؤخرة رأسها فأسقطها مغشياً عليها.

بعد قليل فتحت عينيها بشغل امسكت رأسها تحاول ان تستعيد توازنها حتى وقعت عينيها على صمّاص: \_\_\_\_\_

أيها الأحق هكذا تعامل كبار السن؟

قال بهدوء وهو يمسح عرقه: \_\_\_\_\_

لو صرختِ لكننا جميعاً أمواتاً الآن.

صمتت ثم عادت للنظر من النافذة لكن هذه المرة لم يكن هناك صراخ بل دموع صامتة تسيل على خديها المجددين.

همس لها: \_\_\_\_\_

يا جدة ماذارأيتِ جعلكِ تبكين ؟

رفعت يدها وأشارت نحو رجل بعيد وسط الفوضى.

ذاك الرجل الذي يرتدي تاجاً مضفورة من أغصان الأشجار.

نظر صمّاص فرآه رجل طويل يهادى بين الموتى، عينيه مطفأتان، جلده رمادي باهت والتاج فوق رأسه يرمز لسلطة زالت مع سقوط نيمورا:

من يكون؟.

(زهيرة)

ذاك الجلاف....عمة نيمورا كان صديق زوجي وكان كالأخ لي بعد موته، هو من رعاني طوال حياتي والآن اظر إليه.

وضعت يدها على فها، تجسس شهقة الألم، فوضع صمصام يده على كتفها برفق:

— لا تدعني الحزن يسرق منك قوتك، حتى استطيع اخراجك من هنا.

نظرت إليه ثم مسحت دموعها، وابتسمت بسخرية:

— تخرجني... اهتم بشؤونك يا صبي، انت لا تعلم زهيرة بعد.

غرسـت أصابعها في طرف ثوبها الطويل ثم مزقتـه بحركة واحدة من الركبة حتى الكاحـل، كاشفـة عن بـطـال عـرـيـض يـتـبـعـ لـهـاـ الرـكـضـ وـالـنـقـاضـ ثم جـعـتـ شـعـرـهاـ الأـيـضـ لـلـخـلـفـ وـلـفـتـهـ يـأـحـكـامـ حـتـىـ صـارـ كـعـكـةـ مشـدـوـدـةـ عـنـدـ مـؤـخـرـةـ الرـأـسـ.

تقدـمتـ نـاحـيـةـ السـقـفـ ثـمـ رـفـعـتـ لـوـحـاـ خـشـبـيـاـ بـالـكـادـ يـرـىـ بـيـنـ الـعـوـارـضـ، وـيـدـهـاـ الـأـخـرـىـ سـعـبـتـ مـنـهـاـ غـبـرـةـ سـنـوـاتـ لـمـ ثـلـمـسـ. مـدـّـتـ يـدـهـاـ دـاـخـلـ الـجـرـحـ، وـأـخـرـجـتـ قـوـسـاـ أـسـوـدـ، سـطـحـهـ مـصـقـولـ وـبـارـدـ بـعـدـ أـخـرـجـتـ كـنـانـهـ جـلـدـيـةـ، عـلـقـتـهـاـ عـلـىـ كـتـفـهـاـ وـأـحـكـتـ رـيـاطـهـاـ عـلـىـ الـخـصـرـ.

اختبرت شدة وتر القوس بجرّه حتى حافة وجهها لم يصدر صوت فقط اقياض خفيف في عضلات ساعدها.

التفت نحو صمّاص:

قد أكون جدة، لكنني لن أموت دون قتال...

(صمّاص)

لا أعلم أهي غطّسة أم شجاعة، لكنك تروقين لي.

تسلل بعدها بينما قبضته تشتّد على مقبض سيفه:

يجب أن نخرج من هنا.

تحرك نحو السلم، لكنه تجمد في مكانه عندما رأى الظلال تتحرك في الأسفل التفت إلى زهرة وهمس:

لقد دخلوا المنزل.

(زهرة)

إذا لمنهم نهاية يستحقونها.

أشار لها صمصام بالنزول فوضعت قوسها خلف ظهرها، وتمسكت بعصاها وهي تهبط بحذر، لكنه شعر بالتوjis من خطواتها، ثم حدث ما كان يخشأه... طقطقة خفيفة صدرت من العصا عندما لمست الأرضية.

في الخارج، توقف أحد الوحوش عن التجوّل، استدار بيضاء وكأن الصوت أعاده إلى الحياة، ثم أصدر صرخة مريرة، لم تكن مجرد صرخة، بل كانت نداء.

وفي لحظة واحدة، اهتزت القرية بصوت الأقدام المتراكضة وتعالت صرخات الجثث الحية وهي تتدافع باتجاه المنزل، تدق الجدران، تخمش الأبواب، تزار بجوع بدائي.

قفز صمصام إلى العالية، وسحب زهيره خلفه بسرعة، في حين كانت يداها لا تزالان تعملان بثبات مُذهل، تطلق السهام الواحدة تلو الأخرى كل سهم كان يجد هدفه، لكن الأعداد لم تكن تنتهي.

تراجع صمصام وهو يقاتل، حتى وطأت قدماه أرضية العالية لم ينطرأ أكثر أمسك بالسلم الخشبي وسحبه بقوة لمنع الوحوش من الصعود.

تحركت زهيرة بجانبه ثم نظرت للأسفل فرأت الجحيم يتضاعد، أدركت أن المنزل لم يعد ملجاً بل مصيدة نظرت إلى صمصام ثم قالت بصوت هادئ رغم الفوضى:

علينا إيجاد طريق آخر أو سقوط هنا.

جلس متكتئاً على السلالم ثم نظر إليها باستهزاء:

اجلسي يا عجوز، أو نامي قليلاً فالموت لن يذهب إلى أي مكان.

ضحك وهو يستلقى على ظهره، لكن صرخت فيه بغضب:

هل فقدت عقلك؟ نحن سمنوت وأنت تفكّر في النوم؟!

رفع كتفيه بلا مبالاة:

أريد قليلاً من الراحة قبل أن أُقتل.

(زهيرة)

أنت بارد كالثلج.

(صمصام)

ماذا يغضبك على الأقل أنت أفضل مني؟ تجاوزت الثمانين ، ورغم ذلك  
تمسكنين بالحياة بكل قوة، أما أنا ما زالت في وسط العشرينات ، ولا أريد ان  
ابقى فيها، ولا اهتم إن مت الآن.

(زهيرة)

لا يهمك؟ حقاً؟

نظر إليها بفضول ثم جلس مستنداً إلى مرفقه وسألها:

ماذا تقصدين؟

تهدت وقالت:

هناك حقيقة إن عرفتها، ستفعل المستحيل للخروج من هنا.

وَمَا هِي؟... قَالُوهَا وَالْفَضْلُ يَنْهَا.

لكن قبل أن تتحرك شفاه زهيرة للإجابة، شق صوت نداء عاليٍ ضجيج المكان.

صحيحًا

تأمل الصوت فاتسعت ابتسامته على الفور وقفز واقفاً:

هذا صوت صفید!

(زهیرة)

من صفيدر؟

(صمصام)

صدىقی

أسرع إلى السلم ثم قام بفتحه وقفز إلى الأسفل، لتسقط به ساحة معركة محتمدة.

كان بالأسفل جماعة الوريد يقاتلون بشراسة لا توصف صفيدير في المقدمة كالعاصفة فأساه يقطعن الهواء والموتي على حد سواء وهناك من يحمل رمحًا ثقيلاً يطير بالوحوش بضاراته المتعددة، وآخر يتلاعب بسيفه كأنها امتداد لجسده، يغرسه بلا تردد وقاصص يثبت قدميه، يطلق الرصاص من بندقيته وعلى ظهره قوس يشهد على مهارته، المشهد أشبه برقصة مجنونة بين الحياة والموت.

لم يتردد صحمصام عندما سحب سيفه وانضم إلى الدوامة وتحرك كأنه جزء منها.

أما زهرة فثبتت عصاها للحظة ثم نزلت بتوزن حذر، ثم وضعت العصا جانبها أمسكت قوسها وسحبت سهماً بثقة.

لن أترككم تأخذون هذه القرية بسهولة!

أطلقت سهامها الأول، فأصاب ، ثم أتبعت بسهم آخر... وآخر... وكل سهم كان يعني سقوط ميت آخر، أو ما تبقى منه.

مع الوقت أصبح صحمصام يقاتل ظهراً لظهر مع صفيدير، يتحرّك بانسجام قاتل، سيفه يشق الأجساد، بينما فأس صفيدير يحطم العظام بلا رحمة.

قال صحمصام وهو يرفع سيفه عن رقبة أحد الموتى:

أتتني في الوقت المناسب!

صفvier، وهو يسد ضربة سريعة حطمت صدر أحد الوحش:

دائماً أكون في الوقت المناسب.

اندفع بدر وسط القتال، هو لم يكن يحتاج إلى سلاح، قبضته وحدها كانت كافية لتحطيم الجمجمة التالية، لقد رفع أحد الموقى من رقبته، ضغط عليها حتى سمع صوت العظام تتكسر، ثم ألقى به كدمية مكسورة.

اتهى وقت اللعب.

ضحك صهصام وهو يلتف ليقطع ذراع أحد الموقى، قبل أن يغرس سيفه في عنقه:

لا تقُسْ عليهم هكذا يا بدر! دعني أقتل واحداً على الأقل!

بدر، ساخراً وهو يسحق جمجمة أخرى:

ألم يكفك ما قتلت؟ الجثث ملأت الأرض قبل ان نأتي.

في وسط كل هذا كانت زهيرة تمسك عصاها بإحدى يديها تتوكاً عليها قليلاً، بينما حملت في يدها الأخرى وعاء معدنياً كبيراً أخذته من جانب الحائط ، سكبت سائلاً على الأرض في كل مكان تسير عليه.

سألها صهصام وهو يضرب بسيفه:

ما هذا؟

أجبت زهيرة، وهي تحكم قبضتها على العصا وتدفع أحد الموقى بعيداً بضررية خاطفة:

ـ خليط من الزيوت القابلة للاشتعال، سأجعلهم يدفعون الثمن.

كان القتال يشتد، الجميع يقاتلون بشراسة لفتح طريق نحو الخارج ومنه الى المصعد .  
صمصام تولى المقدمة وصفير بجانبه، بدر يحطم كل من يعترض طريقه، وخلفه فارس ونجم وباقى رجال جماعة الوريد ، بينما زهيرة كانت تسكب الزيت في كل مكان كما لو كانت تكتب نهاية نيمورا بيدها.

عندما وصلوا المصعد وقفت زهيرة للحظة، نظرت إلى القرية التي كانت يوماً منزلها، والآن أصبحت أطلالاً، أمسكت عصاها بيدها مرتجفة قليلاً، ثم أخرجت سيجارة من جيبيها أشعلته واستنشقت الدخان مقلدة بذلك زوجها وما كان يفعله.

ـ أنا آسفة يا حبيبي...

قالتها بحب يحمل عطرأ من الحزن القديم ، ث رمت السيجار في المر وما إن لامست الزيت حتى انفجرت التيران واتهمت كل شيء على عجل.

وقتها.. خرجت صرخة امرأة التفتت من علوها الاعين.

لقد كانت تلك امرأة محاصرة بين ألسنة اللهب تصرخ، وتستنجد بهم فقال صمصام في لهفة:

ـ سأنقذها.

لكن صفير أمسكه من كتفه:

اترك هذا لي.

اندفع وضرب بسيفه كل من يعترض طريقه النيران كانت تجري تحت قدميه لكنه لم يتوقف حتى وصل لها ولكنها كانت قد فرقة الوعي.

وفي اللحظة التي حمل فيها المرأة بين ذراعيه، خرج أحد الموتى من بين رماد الحريق وقبل أن يهجم عليه ضربت زهرة عصاها بالأرض ، ثم اطلقت سهم بسرعة البرق، اخترق الوحش فأسقطه أرضاً.

النفت صفيدر، فرأى زهرة تقف بثبات، قوسها لا يزال مرفوعاً، بينما عصاها مغروسة بجانبها .

قهقه وهو يقترب منها :

أحسنتِ يا عجوز!

ابتسمت زهرة، ثم نفخت على قوسها كأنها تطفع ناراً وهمية وقالت:

نادني جدتي أليها المغرور.

قفز الجميع إلى المصعد ثم ازاح صمام زراع المقبض، فبدأ بالنزول.

لامست أقدامهم الأرض، كأنهم عادوا إلى واقع مختلف حيث لا شيء مألوف سوى الخطر.

أحكم صمصام قبضته على قماشة قطعها من ثوبه، وسجّها فوق فمه بخدر بينما جالت عيناه في الأرجاء، تمسح الظلام بحثاً عن أي إشارة للخطر، لم يكد يلتقط أنفاسه حتى شعر بشيء ارتطم بصدره التقطه وبنظره خاطفه أدرك أن صفيدير هو من ألقاه إليه كان جريراً من القماش، بداخله كُحلٌ أسود وكمامه مشابهة لتلك التي يرتديها رجال القبيلة.

ابتسم صمصام بسخرية وهو يتنفس:

أخيراً ....

بهدوء شد الكمامه حول وجهه، ولطخ الكحل في عينيه، فتبدلت ملامحه، ليبدو وكأنه واحد من جماعة الوريد، على الجانب الآخر أخرجت زهرة قطعة قماش سوداء من جوربها ورفعتها إلى وجهها تربطها بإحكام.

أما صفيدير فلم يُضع لحظة واحدة، فقد كان منشغلًا بالمرأة التي حملها طوال الطريق، وضعها على الأرض بلطاف ثم خلع كمامته ووضعها على فمها، غير مكترث بالهواء الخانق الذي يحيط بهم.

صمصام لاحظه فتقىدم خطوة وهمس بقلق:

أنت مجنون ستخنق هكذا.

لكن صفيدير لم ييُدْ عليه القلق، بل رفع عينيه إلى صمصام وقال:

لا تخف لقد دربت رئتي لشهر لكن أستطيع تحمل هذا الهواء لأكثر من ساعة.  
لم يكن هناك وقت للجدال وأشار صمصام بيده، فانطلقت الجموعة قافزين على ظهور  
الخيول، كأشباح تتلاشى في ليل بلا قمر.

سارت القافلة تحمل معها رائحة الرماد القادمة من قرية نيمورا المحترقة.

زهيرة رغم ثباتها الظاهر كانت عيناها تحملان ظلماً من الحزن وهي تشيح بنظرها  
عن الخلف، على فرسها كانوا قد وضعوا المرأة المغمسة عليها امامها، وبينما كانت  
تستند على صدرها، اصبحت أنفاسها ثقيلة وجسدها متهاوياً كمن خارت قواه  
 تماماً، وبخاء وسط هذا السكون الثقيل صاحت زهيرة:

توقفوا

شد الجميع لجام خيولهم، فتوقفوا على الفور وتوجهت الأنظار نحوها.

كان صفيفير أول من تحدث:

ما الأمر يا عجوز؟ هل أرهقتك الرحلة؟

رفعت حاجبها وردت بصوت اخشن:

نادني جدتي يا وجه الكلب، والا وجدت سهامي تررع نفسها بين حاجبيك.

قهقهه صمصام محاولاً تهدئة الموقف:

ـ اهدئي يا جدتي، إنه يمزح فقط.

لكن زهيرة لم تكن في مزاج يسمح لها بالملحاح، أرسلت نظرة باردة نحو صفيدير ثم قالت بحزن:

ـ هذه الفتاة لم تعد تحتمل الوضع ، فقد ابتلعت الكثير من الدخان.

لم يتردد أحد وقف الجميع عن خيولهم ومن ثم انشغلوا بنصب خيمة صغيرة في السريع العاجل.

جلست زهيرة تتأمل المرأة المستلقية أمامها وذلك بعد ان ادخلوها الخيمة ، كانت شاحبة، تنفس بصعوبة كأن الدخان ما زال يطارد رئتها حتى في غفوتها المضطربة، مررت زهيرة أناملها على جبينها، تتحسس حرارتها ثم زفرت.

ومن جيب صغير في ثوبها أخرجت حفنة من الأعشاب البرية، بدأت تسحقها بأطراف أصابعها.

ـ هذا سيساعدها على التنفس.

هست وهي تسكب الأعشاب في وعاء صغير ملوء بماء الوجل، ثم أشعلت ناراً هادئة تحته تصاعد البخار، محلاً برائحة فاذة قوية امترجت بالدخان العالق في الهواء.

اقتربت وأزالت القناع برفق عن وجه المرأة، ثم قربت الوعاء إلى شفتيها وقالت:

— استنشقي يا صغيرتي .

ترددت المرأة للحظة لكن جسدها المنهك لم يكن لديه خيار، شهقت نفسها مرتجفًا، ثم آخر، فجأة اهتز صدرها بسعال قوي متقطع، كأنها تحارب الدخان المتغلغل في أعماقها، كان صوتها خشنًا، كالسكاكين لكن زهيرة لم تبتعد اعادت الكمامات على وجه المرأة وهي تراقبها .

وقف صفيدير عند مدخل الخيمة ذراعيه معقودتان، عيناه تراقبان المشهد بقلق:

— هل ستنجو؟

لم ترفع زهيرة رأسها، لكن صوتها جاء ثابتًا:

— طالما هناك نفس واحد هناك أمل.

مرت ساعات ثقيلة تلاشت فيها نوبات السعال تدريجيًا، وبدأت المرأة تهدأ، عيناتها المتعبة افتحت بيضاء، تحدقان في الظلال التي ترقص على جدران الخيمة بسبب النار التي اشعلوها في الخارج .

رأت وجوهاً متحفزة لا تعرفها، لكن نظراتها توقفت على زهيرة.

بصوت واهن، همست:

— من أنتم؟ وأين أنا؟

(زهيرة)

— في أيدي آمنة لا تخافي.

كانت تحاول أن تستوعب عينها تائهة و كأنها تحاول فك شفرة ما حدث قبل أن تفقد وعيها، شهقت فجأة ونظرت إلى زهيرة بعينين مليئتين بالدموع:

أين أنا؟ وأين أمي وأبي؟

حاولت النهوض لكن جسدها المتعب خانها، فاقتربت منها زهيرة بلطف وربت على كفها بحنان:

— لا ترهقي نفسك يا بنيتي فلقد مررت بالكثير.

لكن صدمة المرأة لم تترك لها مجالا للهدوء، فصرخت:

— لقد رأيتهم يقتلون أمي ثم.... ثم تحولت... لم تعد هي أصبحت خاوية حاولت قتلي بيديها كيف حدث هذا؟ أين أنت يا أمي...وابين... واي اين هو هل قُتل ام أصبح مثلها؟

شدت زهيرة يدها برفق، صوتها كان دافعَ كلمس الأم على جبين طفلها المحموم:

— عليك بالصبر الصراخ لن يعیدها.

كان صوتها كافياً ليخفف من ارتجاف الفتاة، لكنه لم يطفئ النيران في روحها.

النقط صمصام طرف الحديث:

— لا تقلقي نحن معك ولن تركك.

ثم التفت إلى الرجال خلفه ونادي بصوت قوي:

— أليس كذلك يا أبطال؟

صرخوا بصوت واحد:

— نعم يا سيدى.

ابتسم صمصام بخفة وقال بزاح:

— كفانا من الألقاب الرسمية أريد أن أستمتع بلحظة مع أصدقائي.

رد صفيدر:

كما تريده يا صمصام.

رفعت زهيرة حاجبا مستنكرة، وعقدت ذراعيها:

— أراك تنطق اسمه من أول مرة، ولكن عندما تناديني، لا تفعل سوى مناداته بـ العجوز ... إن رأسك الذي يشبه رأس الحمار لا يعلم معي ..

ضحك صفيدر وقال بعمر:

آسف يا جدة

انفجر الجميع ضاحكين، حتى الفتاة نفسها لم تستطع إلا أن تبسم رغم وجع قلها.

لكن ابتسامتها سرعان ما خمدت عندما توقفت عيناهما عند وجه صفيدير.

حدقت فيه وكأنها تحاول فهم ما يدور في عقلها ثم قالت بتأمل:

أشعر أنتي رأيتكم من قبل... كنت هناك أليس كذلك؟

أجبت زهيرة وهي تشير إلى صفيدير:

نعم هو من قفر في النار لينقذك.

شكرا لك.

هذا واجبي.

تدخل بدر بابتسامة مشاكسة واضعاً يده على كتف صفيدير:

أخي هذا بطلٌ خارق لا يترك أحداً في مأزق!

لكن زهيرة لم تشاركهم المزاح:

حسناً أخرجوا الآن ودعوها ترتاح.

(صمصام)

ـ نحن بالخارج للحراسة إن احتجت لأي شيء، نادي علينا.

ثم التفت إليها وسأل بطف:

ـ لكم ما اسمك؟

نظرت إلى زهيرة للحظة، وكأنها تبحث عن الطمأنينة في وجهها، ثم قالت بخجل:

ـ اسمي نائلة.

أوماً صمصم برضاء:

ـ حستنا يا نائلة الآن نامي.

جلس الجميع خارج الخيمة كانوا حول النار يجتمعون بحرارتها من برد الليل القارس

سؤال صمصم زهيرة، بينما كان يقلب قطعة خشب في النار:

ـ كيف حالها؟

أجبت وهي تراقب الخيمة كما لو كانت تحرس نائلة بعينيه:

ـ ستكون بخير.

قال فارس بإعجاب، ناظرها إلى زهيرة كما لو كان يراها لأول مرة:

ـ تمتعين بروح مقاتلة يا جدة.

ضحكـت ، وملامحـها الصارمة ذابت في لحظة دفـء وقالـت:

ـ لم أشعر بهذا الحمـاس منذ أن رحل زوجـي تعلـموـن يا أولـاد كـنت أنا وعشـنـار  
نجـوبـ المـدنـ ، نـقـاتـلـ المـوـقـيـ وـنـتـسـابـقـ فيـ إـسـقـاطـهـمـ آـهـ ، أـيـامـ لاـ تـنسـيـ !

ـ نـظـرـ إـلـيـهاـ الجـمـيعـ بـدـهـشـةـ ، لـكـنـ بـدـرـ كـانـ أـوـلـ منـ قـطـعـ الـحـدـيـثـ قـائـلاـ بـفـضـولـ :

ـ جـدـةـ هـلـ تـقـولـينـ إـنـكـ كـنـتـ مـقـاتـلـةـ تـقـتـلـ المـوـقـيـ مـثـلـنـاـ ؟ـ

(هـيـرةـ)

ـ كـنـتـ بـلـ لـأـزـلتـ أـفـضـلـ مـنـكـ جـمـيـعـاـ أـيـهاـ الصـبـيـةـ !

ـ اـبـتـسـمـواـ وـهـمـ يـتـخـيـلـونـ زـهـيرـةـ الشـابـةـ تـخـوـضـ مـعـارـكـاـ الـقـدـيـةـ ، يـقـفـزـونـ فـيـ عـقـولـهـمـ إـلـىـ  
صـورـةـ فـتـاةـ صـلـبـةـ تـقـاتـلـ المـوـقـيـ جـنـبـاـ إـلـىـ جـنـبـ مـعـ عـشـنـارـ .

ـ لـكـنـ لـمـ يـدـمـ تـخـيـلـهـمـ سـأـلـتـ زـهـيرـةـ بـقـلـقـ :

ـ كـيـفـ حـدـثـ هـذـاـ ؟ـ كـانـ كـلـ شـيـءـ بـخـيرـ

ـ تـهـدـ صـحـاصـامـ وـقـالـ :

ـ كـانـ أـحـدـ الـمـصـاـبـينـ هـوـ مـنـ أـنـزـلـ يـدـ الـمـصـدـعـ كـمـاـ اـخـبـرـتـكـ .

ـ رـمـشـ نـجـمـ بـدـهـشـةـ ، وـكـانـ الـفـكـرـةـ نـفـسـهـاـ مـسـتـحـيـلـةـ :

لكن المصابون لا يعقلون!

هُرْ صَمْصَامْ رَأْسَهْ نَافِيَا:

الأمور تغيرت لقد طوروا رأيت ذلك ببصري، لقد كنت في السجن مع أحدهم وكدت أخدع بذكائه إنهم أذكياء بطريقة لا توصف... امسوا يعقلون وقد لا تتغير اشكالهم الا عندما يجعون... إذا لم تتحدد القبائل قريباً، ستكون النهاية أسوأ مما حدث في نيورا.

لُقِّمت الأفواه كأن كل واحد منهم كان يعيد ترتيب أفكاره أمام هذه الحقيقة الجديدة ثم التفت صمصم إلى صفيدر وسألة:

كيف عرفتم مكانني؟

ابتسما نصف ابتسامة تحمل القليل من السخرية والكثير من الفخر ثم قال:

قصة يطول شرحها، لكن لنقول أنك لم تكن حريصاً على إخفاء أمرك، الجهة التي في الكهف، الوحوش الجريحة والمقتولة التي صادفناها، كنت ترك لنا خريطة من الدم.

وقف صمصم فجأة وكان حرارة النار لم تعد تكفي لتدفئته أو تُسْكِن هواجسه، تحرك بعيداً عن الدائرة المضيئة.

ثم رفع عينيه إلى السماء الغابرة ويتمنى:

هس اسمها في داخله كما لو كان سحراً منوعاً ملائمها طافت أمام عينيه ابتسامتها الدافئة، وعيونها التي حملت ألف وعد وأمل لكنها رحلت...رحلت وتركت وراءها كلمات على لسان الجدة كالسهام.

فجأة بدأ صفير ي يصل بعنف، صوت اختناق يقطع المسامع، جثا على ركبتيه، يضع يده على حلقه وهو يحاول التقاط أنفاسه بصعوبة.

دون تفكير أسرع صهصام نحوه، نزع الكمامه عن وجهه، ثم وضعها على فم صفير  
بثبات حاول الأخير دفع يده، متذمراً:  
لا..... لا.... لا أحتججا.

لكن صهصام لم يسمح له بالمقاومة قال بحزم وهو يمسك الكمامه في مكانها:  
ـ كفاك عبئاً سنتناوب على ارتداهها فلا وقت للعناد.

أخذ صفير عدة أنفاس عميقه، وببدأ صدره بهداً تدريجياً، وبعد لحظات استعاد بعضًا من قوته

في وسط هذا الموقف قال نجم أحد رجال جماعة الوريد  
ـ هناك شيء لاحظته الآن.

النفت الجميع إليه حتى سأله صهصام :  
— وما هو ؟

تنحنح نجم، كأنه غير متأكد مما سيقوله:  
الجلدة..... اسمها زهيرة..... وزوجها كان يدعى عشنار، أليس كذلك ؟

هزّ صهصام رأسه دون تعبير واضح، فأكمل نجم بصوت أكثر جدية:  
— لا أعرف امرأة تدعى زهيرة سوى زوجة الحوت الأحمر السابق..... عشنار !  
تبادل الجميع نظرات متقاومة، عدا صهصام الذي ظل هادئاً .

( زهيرة )

— لا تعلم أنتي والدة جلمود.  
كان وقع الكلمات كالصاعقة، انصدم صهصام بفمه ثم نظر إليها بذهول وقال:  
— هل تمزحين معي ؟

تحولت نظرته بسرعة إلى صهصام، وكان كل القطع بدأت تترابط في ذهنه، عيناها  
اتسعتا بغضب :

— لحظة الآن فهمت أنت لم تكن تهرب من جلمود، ولم تتخذ نيمورا مخيّلاً لك كنت تقصدها كنت تردد مقابلة سمراء.

أشار إليه ياصبعة كأنه يواجهه بجريدة:

— ألم أحذرك من هذا؟ تحب ابنة الشخص الذي أراد قتلك! ألم أخبرك أن هذه العلاقة ستؤودك للهلاك؟ هل جننت يا صمّاص؟

(صمّاص)

— لا تقلق فلم يعد يهمنا شيء، هذا لو كان هناك شيء من البداية.

(صفيدر)

— ماذا تعني؟

(صمّاص)

— لقد تركت سمراء، أو ربما هي من تركتني، لا يهم فلقد انتهت كل شيء.

زهيرة لم تمهله ليستوعب كلماته فاجأته بقولها:

— حفيدتي لم تترك لك أي رساله.

اهترت أنفاسه، قبل أن يقول:

كذبت على...ولماذا؟

(زهيرة)

لأني أردت أن أحبي حفيدي.

(صمصام في غضب هادر)

تحمّين من؟ أنت لم تريدي سوى حماية عزورك... فرقت بين قلبين فقط من أجل مصطلح أوجدته بنفسك.

(زهيرة بصرامة)

فعلت ما يجب فعله.

ضحك باستهزاء ثم قال:

فعلتِ ماذا؟ هل هناك شيء آخر غير كذبك على؟

(زهيرة بشغل)

نعم لقد بعثت برسالة إلى والدها وهو من جاء وأخذها بالقوة ولهذا سمراء ستتزوج نفيل.

ازداد صياحه أكثر من ذي قبل، ثم أمسك يدها بعنف، وبدأ يضرب نفسه بها وهو يصرخ بجنون:

اضريلي أكثر... أكثر... هل هذه حياتك؟ هل هذه حكمتك؟

حاولت سحب يدها لكنه لم يتركها، نظر إليها بعينين جاحظتين:

أنت فقط تريدين تزويجها لابن ابنك الآخر ولا يهمك أي شيء.

جذبت يدها من قبضته بقوه:

كفاك لعب أطفال فلا يمكن للحوت الأحمر أن يتهد مع الحوت الأزرق ولو كنت سمحت لعلاقتكما بالاستمرار، لسالت الدماء في الطرقات كما تسيل دماء الأنعام.

(صمصام)

ومن قال إن الدماء ستتوقف الآن؟ بل ستتصبح كالأنهار لكن الفرق الوحيد أن المعافين هم من سيقتلون بعضهم وليس المصابين.

ثم اقترب منها صوته عاد هادئاً لكنه مشبع بالغضب الغير ظاهر:

لقد دمّرت حياتنا جميعاً يا زهيرة... لو كنت تزوجت من سراء على الأقل سيكون هناك أمل في الصلح بين القبيلتين، لكن الأمل اتهى والدماء وحدها ستكتب الفصل التالي..

(زهرة)

لا تشعرني بالسوء على ما فعلته أنت يا أطفال هذه الأيام لا تعلمون مصالحكم!

(صمصام)

— ومن يعلمها إذا؟ أنت؟ الكبار الذين منذ أن كنا أنصاف أجساد في أرحام أمهاتنا، قررت مصيرنا قبل أن نولد؟ جعلتم هذا العالم قاسيًا ثم أتيتم تهموننا بأننا لا نعقل ولا نعلم.

لم ترد زهيرة على كلماته فأردف:

— لا تشعريني بتلك الغصة التي تخرج من فمك.

(زهيرة)

توقف ....

(صمصام)

ولماذا أتوقف؟ أنت تعلمين أنك أخطأتِ ومع ذلك تكابرین.

صرّحت زهيرة أخيراً:

— نعم أخطأتِ أخطأتِ تزيد المزيد؟ أخطأتِ أخطأتِ

(صمصام)

اعترافك لن يفيد.

(زهيرة)

لم أكن أريد قولها لكن اعترافي سيفيدك لأن سمراء ستتزوج يوم الأحد القادم.

(صمصام)

اليوم هو الأربعاء.

أومأت زهيرة مؤكدة.

لم يتكلم صمصام بل استدار وتحرك بعيداً عنهم كان يريد بعض الوقت بمفرده يخلوا مع نفسه يجدثها وتحديثه. بعد ان أحمس انه بعيد البعد الكافي جئى على ركبتيه يتحسس التراب، كأنما يبحث عن شيء ضائع همس باسمها بصوت بالكاد يسمع:

سمراء كانت الأفكار تعصف به قلبه يزقه الغضب والحب في آن واحد، كيف حدث هذا؟ ماذا يفعل الآن؟ لكن لم يكن هناك وقت للضياع فبعد وقت قصير رجع مرة اخرى إليهم ثم قال:

أنا سأذهب إلى قبيلة النار.

انقض صفير، وحدق فيه وكأنه يسمع جنونا:

هل أنت أحق!!!!

(صمصام بغضب)

تعلم أن تخترم سيدك جيدا، يبدو أن معاملتي الطيبة جعلتك تنسى حدودك.

خفيف صفير عينيه على الفور وقال :

آسف يا مولاي ولكن.....

قاطعه صمصام بجزم:

لا يوجد لكن... قررت واتهي الأمر.

تهد لكنه لم يجادل هذه المرة ليقول بعد لحظات:

حسنًا لن أعرض ولكن ابق حتى الصباح وسنأتي معك بعد أن نطمئن على

نائلة والجدة فلا يمكننا تركهم هكذا.

(سأذهب وحدي)

سأذهب وحدي.

(نجم)

— لن يكون ذلك حلاً، إن ذهبت وحدك قد تُحبس كما حدث في المرة السابقة، وستتزوج سمراء تقيل أو يحدث الأسوأ قد تُقتل، وحينها ستتزوج سمراء تقيل أيضاً.

ووضع يده على ذقنه يفكر للحظات، فقد كانت كلمات نجم منطقية رغم أن غضبه كان يصرخ به ويأمره بالركل الآن دون تفكير أخيراً أوماً موافقاً ثم جلس في أوسطهم مدققاً في النار حتى انخدت بينا راح الجميع في النوم إلا هو.

ففقد كان قلبه مشتعلأً أكثر من الجمرات التي أطfaها الليل

---

#### ((الفصل الرابع عشر: الشور عا))

في صباح اليوم التالي كان الضباب ينساب بين الأشجار يلف المكان بسكن عظيم، بينما البرد يزحف إلى عظام الرجال النائمون في العراء ، هناك تسللت الرياح الباردة بين أوراق الشجر المتشابكة استيقظت من شدتها جماعة الوريد ، كان جسد كل واحد منهم منهك لكنه مستعد لليوم آخر من البقاء في وسط هذا العالم القاسي. نقض نجم كامته عن وجهه، ومسح قطرات الندى المتجمعة على رموشه، قبل أن يقول بصوت ما زال يحمل آثار النوم:

— ما رأيكم أن نبحث عن طعام قبل أن يأكل أحدنا الآخر؟

رد صفير وهو يشد حزام فأسه حول خصره :

— لا تقلق إذا نفذ الطعام، ستكون أنت وجبي الأولى.

ارتفعت الضحكات، لكنها سرعان ما انطفأت عندما رفع صهاصم يده مشيراً لهم بالسكتوت:

— هدوء نحن لسنا وحدنا.

تحرك الجميع على الفور ثم توجهوا الى مصدر الصوت مبتعدين قليلاً عن الخيمة. كانوا يتبادلوا النظارات أصابعهم تشددت على قبضات أسلحتهم، وأعينهم راحت تمسح كل زاوية تبحث عن الخطر المختبئ، ثم في لحظة حدث ما لم يكن في الحسبان.

الأرض اهتزت كان الارتجاف طفيفاً في البداية لكن سرعان ما تصاعدت إلى موجة من الرعشات التي زللت الصخور الصغيرة تحت أقدامهم.

همس بدر وعيناه تتسعان:

— ما الذي يحدث؟ هذا ليس طبيعياً..

لكنهم لم يحتاجوا إلى إجابة، فقد انبثق الوحش من بين الظلائل.  
الثور عا.

مخلوق لم يسمعوا عنه إلا في قصص الهاريين من الغابة، جسده الضخم ينزع بين  
هيبة الثور وجنون الوحش البدائي، جلده الأسود القاتم بدا متشققاً بالأرض  
العطشى، فيما غطت أطرافه الأشواك الحادة أما عيناه الحمراوان اشتعلتا كجميرتين  
جائعتين، وأنفاسه الثقيلة أطلقت صفيرًا مرعباً، فيما كان ذيله الذي يشبه  
المكنسه ينتهي بمنجل ضخم، يضرب به الأرض كأنما سيختار من خلاله الضحية  
الأولى

كان نجم أول من نطق:

ـ إنه الثور عالم لكن أعتقد أن هذه الأسطورة حقيقة!

ـ لكن لم يكن هناك وقت للدهشة، فقد انطلق صمصام إلى الأمام وهو يصبح:  
ـ خذوا مواقعكم.

توزعوا بسرعة كل منهم كان يدرك أن هذه المواجهة قد تكون الأخيرة، بدر وفارس  
تحركاً من اليسار، بينما أخذ نجم وزهد وصفير الجانب الأيمن، أما صمصام فثبت  
نفسه في الأمام رفع سيفه بينما عيناه لا تفارقان الوحش ومن خلفه وخلف الثور عا  
وقف الباقين.

رُأَر بصوت كالرعد الذي شق السحب ثم انطلق نحوهم بسرعة هائلة، كأن الأرض  
نفسها لا تستطيع إيقافه.

نزع صهصام فأس بدر ثم صاح وهو يلوح بها.  
— تعال إلي.

قفز الثور عاًلياً ثم ضرب بذيله المنجل **صهصام** بالكاد تفادي الضربة، لكنها شقت الأرض من خلفه، مخلفة حفرة عميقه.

صرخ فارس وهو يلهث من الخوف والتوتر:  
ماذا سنفعل؟

لكن صهصام لم يتردد:

ـ صفيدير غطى تحركي والباقين اجذبوا انتباهه.

اندفع صهصام نحو الوحش بسرعة قافزاً عاليًا، وبهذه الفأس يحملها بكلتا يديه، ثم القى بها بكل قوته نحو رأس الخلق لكن الفأس لم تخترق جلده فقد اصطدمت بالسود الصخري، وارتدى بعيداً.

صرخ نجم وهو يراقب المشهد:  
ـ هذا الجلد أصعب من الصخر!

وضع زهد يده اليمنى على ذقنه التي تغطّيها الكمامه، ثم سحبها إلى الأسفل بينما كان يفكّر بعمق، وفجأة ارتسمت على وجهه ابتسامة غير مكتملة، يكسوها شيء من السخرية التفت إلى صهصام ونادى بصوٌت مرتفع:

ـ نقطه ضعفه عموده الفقرى!

(صهصام بدھشة)

ـ وكيف عرفت؟

(زهد)

ـ لاحظت أنه عندما يقع على ظهره شيء يتألم... انظر بنفسك التقط صخرة صغيرة من الأرض، وألقاها من بعيد على ظهر الوحش، و ما إن أصابت منتصف ظهره حتى صرخ بقوة واستدار هائجا نحو زهد ثم ضربه ضربة عنيفة فتفجر جرح في رأسه وسقط زهد مغشيا عليه.

صرخ صفیدر من بعيد وهو يصقر بصوت حادّ، فالتفت الوحش إليه وترك زهد ملقى على الأرض.

ركض صهصام بسرعة نحو زهد ليجسّ عنقه فتقم بعدها:

ـ إنه حيّ.

أوما لبقة الرجال فانطلقوا صارخين، يشهرون سيفهم ويهاجون الوحش من كل اتجاه، محاولين تشتيت حركته ليشغلوه.

وفي لحظة ارباك من الثورعا، قفز صفيدير من الخلف مستغلًا الفرصة، وغرس سيفه الطويل في سلسلة ظهره، حيث كان الجلد أقل سمكة، فارتج الوحش من الألم وارتفع صرخته في السماء، وحينها بدأ يدور حول نفسه يحاول التخلص من الألم. وجد صمّام الفرصة التقط الفأس مرة أخرى وقفز فوق ظهر الثورعا، موجّها ضربة قوية إلى عوده الفقري.

تحمد الوحش للحظة، عيناه الحمراوان تلاشتا في ظلمة مفاجئة، ثم سقط جسده الضخم على الأرض، مثيراً غباراً كثيفاً ساد الصمت لثواني حتى جلس بدر ووضع يديه على ركبتيه وهو يلهث:

— هل انتهى؟ أم أنه سيقوم مجدداً ليأخذنا معه؟

ضحك صفيدير رغم الإرهاق الذي نال منه وقال:

— إذا قام سأقتله مرة أخرى.

تبادل الآتينان النظرات ثم انفجرا ضاحكين، ليس لأن الأمر كان مضحكاً، ولكن لأنهم نجوا من وحش لم يعتقدوا يوماً أنه حقيقي.

اقترب الجميع من زهد ليطمئنوا عليه، فجأا بدر إلى جواره، ثم لطمه على خده مرتين  
وهو يصرخ:

ـ استيق يا رجل.

تأوه زهد قليلاً، ثم فتح عينيه ببطء، وبابتسامة باهتة قال:  
ـ ظننت أنتي مت.

ضحك بدر وردد عليه وهو يساعدة على الجلوس:  
ـ كيف تموت وتتركني أكل ذلك الوحش وحدي.

قهقه الجميع، وانفرجت الوجوه التي كانت متوجهة قبل لحظات

لم يضيعوا وقتهم، بدأوا بقطيع اللحم الدافئ، ممهدين من العمود الفقري ، هذا لأن  
الجلد أقل سماكة في تلك المنطقة، مما سهل سلخه نزولاً إلى الأسفل.

حمل كل واحد منهم نصيبه الضخم على كتفه، ثم انطلقا عائدين إلى خيمة الجدة  
زهيرة.

قال نجم وهو يحاول ثنيت قطعة اللحم الضخمة على كتفه:  
ـ لا أصدق أننا قتلنا هذا الشيء فلطاماً ظننت أن التورعا مجرد قصة يرويها  
العجازز لأخافتنا.

(بدر)

ـ حستا لقد تأكّدت بنفسك الآن، وأظن أن العجائز لم يبالغوا حين قالوا إنه  
وحش لا يُهزم لكنهم غفلوا عن جماعة الوريد .

(صمصام)

ـ لا يوجد شيء لا يُهزم.

خرجت الجدة رهيبة من الحيّة، كان جسدها التحيل يشي بارهاق النوم، فجأة  
طرفت صمصام وجماعته بعينيها التنان تحملان الدهاء ، كان يظهر الارهاق على  
اجسادهم بينما الدماء الساخنة لاتزال تقتصر من اسلحتهم ومن الحم على آكتافهم  
ووقفت تتأمل اللحم المشوه أمامها:

ـ الثور عا؟ أتم جادون؟ لم أذق هذا اللحم منذ عقود... كيف بحقكم نجحتم في  
إسقاطه؟

سأل نجم باندهاش:

ـ هل تعرفين ذلك الوحش..

ردت بامتعاض:

اعرفه.... هه لقد تذوقه في حياتي اربع مرات، وهذه المرة ستكون الخامسة...  
ولكن كيف استطعتم إمساكه، فعندما كنا نصطاده كانت تحسب لنا معجزة إن  
قتل منا ثلاثة رجال فقط ...اما اتم فلا ارى الا واحداً مصاباً ..

ابتسنم نجم، وهو يلقي بجزمة حطب بجانب النار، ينفح فيها لتشتعل:

لا تسألي جماعة الوريد عما استطاعوا فعله، بل اسأل ما لا يستطيعون فعله.

بدر وهو يسح آثار الدماء عن وجهه، وصوت يملؤه الزهو:

لولا أنا، لكننا الآن نضج الأعشاب كالأغنام.

نظر إليه نجم بعينين ضيقتين ثم قال بسخرية:

شجاعتك؟ أنت أشبه بالشعلب تختبئ ثم تنتسل الفريسة التي يسهل سرقتها.

ضحك زهيرة بصوت خافت وهي تغرز أول قطعة لحم في سيف من السيوف  
لكي تسويها وقالت:

يبدو أنكم بالفعل ميزون، أو ربما مجرد جياع محظوظين.

حين كان صفير يراقب نار الشواء التفت إلى زهيرة سائلاً:

أين نائلة؟ وهل أصبحت أفضل الآن؟

أجابت زهيرة، وعيناها تتبعان تقلب اللحم بإتقان:

نامت جيداً الليلة الماضية، على ما يبدو أن الأعشاب بدأت تؤتي ثمارها، فحالها تتحسن تدريجياً.

لم يمر وقت طویل حتى انشق ستار الخيمة، وخرجت نائلة إلى العراء، لم تخفي الهالات السوداء التي أحاطت بعينيها جمالها الغريب، شعرها الأسود الطويل، الذي تسللت إليه خصلات ذهبية كأنها شظايا شمس، انعكس وجه النار عليه فأضفى على مظهرها هالة أقرب لأميرة خرجت من بين صفحات ديزني.

توقفت للحظة تتأمل المجموعة التي جلست حول النار، ثم أمالت رأسها قليلاً وهي تستنشق الهواء، قبل أن تسأل بنبرة باردة:

ما هذه الرائحة؟ هل اصطدمت شيئاً؟

أجاها صمصام، وهو يرفع قطعة لحم بين أصابعه:

ـ جهزنا لك ولية لن تنسيها أبداً.

لكنها لم تتحرك، رمقتهم بنظرة شاردة، وكان عينيها الرماديتين تبحثان عن شيء ما بعيداً عن المكان، ثم قالت بهدوء شبه هامس:

ـ لا أرغب في تناول شيء.

استدارت مبتعدة، وتركهم خلفها متوجحة إلى زاوية خلف الخيمة.

جلست بصمت وهي ترفع يديها الباردتين نحو الهواء، كأنها تبحث عن دفء مفقود، بينما كانت عيناهَا تذرفان دموعاً صامتة تساقطت دون صوت.

لم يمر وقت طويلاً حتى لمحها صفيدير، أمسك بورقة شعر كبيرة، وضع عليها قطعة من اللحم المشوي، وسار نحوها بخطوات هادئة، لم يقترب كثيراً، فقط وقف على مسافة قصيرة، ثم قال بصوت دافئ:

هل تسمحين لي بالجلوس بجوارك؟

رفعت نائلة عينيها نحوه، وسرعان ما مسحت دموعها بظهر كفها لتخفى ضعفها، ثم أجبت بصوت خافت:

نعم.

جلس بجانبها ، ناظراً إلى الأفق حيث كانت تتحقق، ثم ترك الهدوء يسيطر للحظات قبل أن يكسره بصوت منخفض:

أتعلمين؟ لم أخبرك أسي... أنا صفيدير

لم تلتقط إليه بل ظلت محذقة في الفراغ أمامها لكنه تابع:

كنت طفلاً عندما فضلت أمي لم أفهم وقتها معنى فقد، فقد كنت أظن أن العالم سييقى كما هو، بسيطاً وآمناً لكن الأمور تغيرت بسرعة.

توقفت أنفاس نائلة لثوانٍ، لكنه لم يلحظ ذلك وأكل:

— عشت مع والدي وكان يعاملني كصديقه الوحيد، علمي كل ما أعرفه عن القتال، الصيد، والنجاة، لكن أول قتال حقيقي خضته كان مأساة، مأساة لا تنسى.

توقفت نائلة عن التحديق في الفراغ ونظرت إليه بطرف عينيها، بينما تابع:

— اتذكر ذلك جيداً وكأنه الآن يومها خرجت مع والدي لنصطاد وكانت رحلة عادلة، أو هكذا ظنت لأن المصايبين كانوا أسرع منا، لم أكن مستعداً لمارأيته في ذلك الوقت لقد تدفقوا علينا كالنهر، فلم أرى رحمة في الوجوه أو الإنسانية في العيون فقط رأيت أبي... وهم يزقونه أمام عيني.

تشنجت يد نائلة على ثوبيها، بينما أكل صفيدر بنبرة متهدجة:

— لم أستطع فعل شيء فكل ما كنت أملكه هو السيف، ويداي الثان كانتا ترتعشان بلى توقف، فلم أتمكن حتى من الدفاع عن نفسي.

ابتلعت نائلة ريقها بصعوبة، ثم همست:

— أنا..... آسفة لا أستطيع حتى تخيل هذا الألم.

هز رأسه، ونظر إليها بابتسامة حزينة:

— أنا لا أخبرك هذا لتشعرني بالشفقة عليّ فنحن في زمن لا يعرف الرحمة، لكننا يجب ان نحاول النجاة، نحاول أن نعيش رغم كل شيء، اعلمي انّ الحرام لن يُعَيَّد من فقدناهم، ولن يوقف ما هو مقدر لنا ولهذا علينا أن نقبل الألم.... ونتقدم.

ثم وضع قطعة اللحم بينهما:

— كل ما أطلبه الآن، أن تتناول الطعام معًا.

حدّقت في قطعة اللحم ثم رفعت نظرها إلى صفيدير:

— شعرت بجسدك يحملني من النار لقد كنت خائفة وسط ذلك الجحيم، ولكن شعرت بشيء غريب عندما لستني، شعرت أني بأمان، حتى وإن كنت فاقدة للوعي.

تجمدت ملامح صفيدير فلم يتوقع كلماتها لكنه حافظ على هدوئه وقال متددًا:

— حقًا؟

أومأت برأسها ببطء:

— نعم هناك أشخاص عندما تكون قريباً منهم تشعر أن كل شيء سيكون على ما يرام، شعور لا يمكن تفسيره لكنه لا يكذب.

ارتسمت على وجهه ابتسامة دافئة، كأنه يحتفظ بهذه اللحظة في ذاكرته، ثم قال:  
ـ كلماتك هذه لن أنساها والآن، هل ستتناولين الطعام معى ؟  
تلashi التردد من وجه نائلة، التقطرت قطعة اللحم وقالت بابتسامة صغيرة:  
ـ أجل.

رفعت كمامتها قليلاً، وضعت اللحم في فمها، ثم قطعت جزءا آخر ومدّته إليه وهي  
تقول ببررة أقرب للمزاح:  
ـ دورك الآن.

أخذها منها دون تردد وأكلًا معاً بصمت.  
لكن اللحظة لم تدم طويلاً.

نادى صحصام بحدة:  
ـ علينا أن نتحرك الآن.

أدار الجميع أعينهم نحوه، لكن زهرة هي الوحيدة التي لم تبدى اي اكتئاث مما قاله:  
ـ لن آتي معكم سأبقى هنا وسأصنع بيئاً وأعيش في نيورا من جديد.  
(صحصام بغضب)

— هل جنتِ؟ القرية دُمرت والغاية يكتسحها الوباء والموت، المصايبون في كل مكان، حتى إن لم يوجد مصابين لن تستطعي بناء بيت فأنت عجوز..

امسكت قوسها:

— قد أكون عجوزاً، لكن لا أحد يجرؤ على الاقتراب مني، ومن يفعل ستكون رأسه هي التي تدفأ أنا ملي.

أشار صاحب بيده:

ـ كفالٍ كلامًا وتعالى معنا إلى جلמוד.

هذت رأسها كأنها تستنكر كلماته:

ـ لقد تركت ابني منذ زمن بعيد، ثم إنّ روحني هنا في هذه الأرض، هذا المكان هو أنا.

لم يكن هناك جدوى من الجدال معها، فقد قررت واتهي الأمر، حينها ودعها الجميع ثم تحركوا أخيراً، تاركين زهيرة خلفهم تجلس قرب النار، وتنظر إلى اللهب كأنه جزء من روحها التي لن تغادر هذه الأرض أبداً..

نظر صفير إلى نائلة بعينين ضيقتين، وهو يمسك بلجام حصانه في إحكام :

ـ هل تعلمين، لم تخبرينا بعد من أنتِ؟

قالت نائلة:

— أنا ابنة الطبيب شدلي.

أدأر صمصام رأسه نحوها في ذهول ثم شدّ لجام حصانه واقترب منها قليلاً وهو يقول

— ابنة الطبيب المجزار...

ابتسمت نائلة بمرارة وقالت:

— إذن عرفت لقبه.

أوماً برأسه

— نعم فلقد كنت مريضاً عنده لمدة يومين ولقد كان كريماً معي ولكن لدى سؤال.

نائلة:

— وما هو؟

(صمصام)

— كيف لا تعرفك الجدة زهيرة، وأنت من سكان قريتها؟ ليس هذا فقط بل إنك ابنة الطبيب الذي عالج الكثيرين هناك.

(نائلة)

ـ هذا لأن الجدة لا تغادر منزلها إلا في مناطق قد حددتها العدة لها.

(صمصام)

ـ لماذا؟

تغيرت نظرة نائلة قليلاً وقالت:

ـ ألا تعلم؟

(صفيدر)

ـ أعلم ماذا؟

(نائلة)

ـ الجدة تكون سجينه نمورا

كانت كلمات نائلة كفيلة بأن تجعله يشد لجام فرسه بعنف ليوقفه، بينما ضاق عينيه بحدة وهو يكرر بدهشة:

ـ سجينه؟ كيف؟

(نائلة بجدية)

— لا أعلم التفاصيل، لكن كل ما يعرفه أهل نيمورا هو أن الجدة زهيرة سجينية عند العمدة ولا يُسمح لها بالخروج إلا لجمع فاكهة البتوفان، وملئ المياه، أما من يريد زيارتها في منزلها فلا أحد يمنعه.

أخذ نفساً طويلاً يحاول استيعاب الأمر، ثم سألهما :

— وهل تعرفين عنها شيئاً؟

لاماح الحزن انسدلت على وجهها قبل أن تقول بصوت منخفض:

— أي كان يذهب لمداوتها وعندما يعود من عندها يصبح وجهه متوجهماً، كان يقول إنها امرأة سليطة اللسان عجوز متكبرة.

قهقهه بدر فجأة، وهو يرفع حاجبه باستهزاء:

والدك الجزار؟

لم تحتمل كلماته فصرخت فجأة بغضب:

— توقف... الجميع ينادونه بذلك، لكن لا أحد يفهم السبب.

(بدر)

— إذن أخبرينا السبب؟

تهدت وكأنها تقف عند باب ذكريات مريضة:

— أي كان محبا للترحال، هو وأي كانا يجوبان الأرضي بحثاً عن ترافق المداواة للأموات الأحياء، لكن عندما حملت بي أي، اضطر للبقاء في قبيلة نمورا من أجله ومنذ ذلك اليوم، لم نغادرها أبداً...لقبوه بالجزار لأنه كان يستخدم أجساد بعض البشر كفزان تجارب وهذا بموافقة العمة . يشرحهم، يحرّب عليهم العقاقير التي صنعها في سبيل الوصول إلى التوافق حتى انه كان يقوم بعمليات اجهاض من أجل الاستفادة بالأجنحة .

لم يتحدث الجميع وبدلاً من ذلك تحدثت نظراتهم، التفت بدر إلى نجم وتدانا جوادها من بعضها فأعاد يصره إلى نائلة:

والدك نصب نفسه إلهًا يقرر من يعيش ومن يموت، والآن تبررين أفعاله؟

تابعت:

لا ابرر بل كنت أمنعه وقفت في وجهه مرازاً وتكراراً، وأي كانت معي لكن هو سه بالترافق كان يلتهمه كان يؤمن بجوناثان، يؤمن بكل كلمة قرأها له.

سؤال صمصام متعجبًا:

— جوناثان ومن يكون جوناثان هذا؟؟؟

(نائلة)

القصة تقول إنه عندما ضربت النيازك الأرض، ومع بداية انتشار الوباء ظهر رجل يدعى "جوناثان" كان من أذكي العقول في زمانه، متخصصاً في الفيزياء والكميات، لكنه لم يكن شخصاً عادياً، ولم يكن مصيره عادياً، أصيب بمرض غامض يُشاع أن سببه كان تلك النيازك التي مزقت السماء وأحالتها إلى رماد، وقتها لم يكن موته سريعاً، بل كان كابوساً بطيناً، كان جسده يخونه قطعة قطعة، وأعضاؤه تموت تدريجياً، وكان روحه تنتزع منه على مراحل... لكنه لم يستسلم ببس نفسه في معمله، حيث أمضى أيامه ولياليه لا شخصي وسط أنايب الاختبار والسننة اللهم، والمعادات التي غطّت الجدران كأنها طلاسم سحرية، كان مهووساً عازماً على إيقاظ نفسه غير مكترث لأي شيء آخر وبعد شهرٍ من العزلة، خرج جوناثان من معمله لكنه لم يكن كما كان لقد عاد إلى الحياة وكان المرض لم يمسه قط.

تقدم بدر بحصاته قليلاً إلى الأمام، وقال بلهجة تحمل مزيجاً من الفضول وعدم التصديق:

وَمَا عَلَاقَةِ هَذَا بِأَيْكَ وَكَيْفَ عَلِمَ أَيْكَ بِقَصَّتِهِ؟

اجابت نائلة:

جوناثان لم يكن أنايتها، فقبل أن يختفي ترك وراءه كتاباً، سجل فيه كل شيء كل معادلة، كل وصفة، كل سر استخدمه ليعيد جسده إلى الحياة، كان يعرف بـ سفر اليربع العاشر، قيل إنه مفتاح الخلاص الوحيد.

سؤال:

— وهل وجد أحد هذا الكتاب؟

هَرَّتْ رَأْسَهَا نَافِيَةً:

لا فبعد فترة قصيرة اختفى جوناثان، واختفى الكتاب معه، ولم ييق منه سوى شذرات مبعثرة خطوطات مبهمة تتحدث عن نجاحه وعن الخلاص لكن دون الكتاب لم يستطع أحد تكرار ما فعله . ابى فتش عن الكتاب في كل مكان وحين يائس من ايجاده حاول تقليده واكتشاف التريلق بنفسه، ولكنه لم ينجح ولهذا لقبوه بالجبار ، لأنه اراد ان ينقذ البشرية حتى وان قتل بعض البشر ليعيش الباقيين،ابى لم يفكر في نفسه فقط بل فكر في الجميع.

و قبل أن يشرع أحدهم في طرح سؤال آخر على نائلة، كانت الخيول قد قادتهم، دون أن يشعروا، إلى أرض مختلفة كأنهم عبروا بوابة خفية لا يدركون كيف أو متى اجتازوها.

مكان لا تشم فيه رائحة الحياة، ولا تنبت منه أفقاس الموت، لا طرق مرسومة، ولا إشارات تهدي السبيل فقط أكواخ حجرية صغيرة تتدلى إلى الأفق، مداخلها ضيقة بالكاد تتسع لفرد، وسكون خالق يلتف الأرجاء، لا يسمع سوى وقع حوافر الخيول فوق تلك الأرض اليابسة.

أبطأت الخيول خطاتها كأنها تحاول فهم هذا السكون الحنف، بينما تاهت أعين الرجال في تأمل مشهد لا تفسير له.

وحده صمصام ظل غارقاً في أفكاره، يعيد في رأسه كلمات نائلة مرازاً، حتى قطعه صوت بدر، مشيراً إلى تعب الخيول:

— سيدى، الخيول انهكت من السير إن أنفاسها ثقيلة، وبنضاتها متتسارعة.  
مدّ صفير يده إلى ظهر جواده، فشعر برجفه ثقيلة ثم اهتزاز عنيف.

قال بهدوء وهو يلتفت إلى صمصام:

— هل تأذن ان نستريح قليلاً من أجل الخيول.  
— لا امانع ولكن فليتهدق البعض تلك الأكواخ ...

توزيع الرجال ودخلوا الأكواخ واحداً تلو الآخر يبحثون عن خطر كامن أو حياة خفية... لكنها كانت فارغة.

وافق صمصام بإيماءة صامتة، ونزل صفير من على فرسه، أمسك بجامه، وأخرج من حقيبته أنبوباً بلاستيكياً شفافاً يحوي مواداً كيميائية.

أدخل يده في ف الججاد، فأخرج أنبوباً أسود كالرماد، كان يعمل كفلتر هواء، واستبدلها بالجديد.

تبع الآخرون حركته، يبتلون أنابيب التنفس لخيولهم المنكحة.  
إلا نجم... اقترب من حقيقته وقلب فيها مرايا فلم يجد إلا أنبوب فارغا ، التفت إلى الجميع:

— نفذ الفريسي من فلترى ليس صالح ...

(صمصام)

— سندبح جوادك يا نجم.

(نجم)

لم ننتهي من لحم الثور عا، حقائبنا مملوءة؟؟؟؟

(صمصام)

— سنفرغها ونملؤها بلحם الجواد، فالحم الطازح أفضل ...

ارتجفت ملامح نجم، لكنه لم يعترض فهو يدرك كما يدرك الجميع أن موت الجواد دون نفع جريمة.

وفي لحظات، تحول الفرس إلى طعام، قطع جلد بعناء، وقطع لحمه، وزعوا ما استطاعوا حمله، لكن الدم جمع في قوارير زجاجية، لعله يصبح طعاماً أو دواء في الأيام القادمة.

أشعلوا ناراً بين الأكواخ ثم شووا اللحم وأكلوا حتى الشبع، ثم تمددوا فوق الأرض القاسية حتى غاصوا في النوم.

جيعهم غطّ في نوم ثقيل إلا صمّاص ظلٌ مستلقٍ يحدق في السماء، وعقله لا يزال يدور في كلمات نائلة عن الترائق حتى غلبه النعاس.

حين استيقظوا لم يكونوا تحت السماء بل وجدوا أنفسهم داخل قاعة واسعة ذات ثلاثة أبواب شاهقة، أمام كل باب يقف رجال ضخم لا تعرف الرحمة إلى وجوههم طریقاً، وقد وشمّت على أجسادهم علامات ثعبان أسود بأنیاب ولسان مشقوق يمتد من أعناقهم حتى أذرّعهم.

---

### ((الفصل الخامس عشر: قرية ال سمعان))

- أين نحن؟

- كيف جئنا إلى هنا؟

الحقيقة هي أنّ أهل تلك الأرض استغلوا نوّحهم، وزرعوا في نارهم أعشاشاً مخدّرة. لم تكن نار التدفئة ناراً عاديّة، بل بوابة إلى اللاوعي، فانتقلوا من غفوة إلى غياب. أما تلك الأكواخ الحجرية، الضيقّة حدّ الاختناق، فلم تكن سوى بوابات سرّية تؤدي إلى مدينة تحت الأرض ...

مدينة لا وجود لها على أي خريطة وقف الرجال مذهولين، تتساءل أفواههم  
وتصرخ نظاراتهم:

—أين نحن؟ ولكن ما من مُجيب بل دُفعوا دفعة نحو الباب الأوسط، الذي افتتح  
ببطء، كاشقاً عن عالم لم يعرفوه.

كانوا أمام مدينة عظيمة، مبنية من رمادية مليئة بالقسوة والهيبة أرقها  
ملتوية كمتأهة صُممَت بحرفية.

رفع صهْصام رأسه نحو الأعلى، فلاحظ أن السقف لا يغطي السماء تماماً، من  
المنتصف، كانت تتدلى شعلة هائلة داخل قفص معدني، تراقص ألسنتها البرتقالية  
تبث نوراً خافتًا يطرد الظلام كأنها شمس هذا العالم السفلي.

لكن الرعب الحقيقي لم يكن في الحجارة، بل في الوجه.

كل من قابلوه هناك، رجالاً ونساء، شيوخاً وصبية، كانت أجسادهم موسوم عليها  
الثعبان ذاته، يلتئف حولهم كعقيقة مغروسة في اللحم والدم.

الرجال عراة الصدر لا يرتدون سوى سراويل فضفاضة، والنساء في أردية جلدية  
ضيقة.

في عيونهم لا ترحيب، ولا شفقة، فقط نظرات صامتة تزن القادمين كأنهم بضائع  
جديدة.

حاول صمّاص الحديث، لكن لم ينبع أحد بكلمة الوجوه فقط ثابتة.

بجأة شق الجموع رجل محيب الخطي، جسده العاري لا يستره سوى بنطال ممزق، وجلده مليء بالوشوم وعلى زراعه رسم ذلك الشعبان، رفع يده يأيادة صامتة فتوقف الجميع، ثم بدأ يحرك يديه بإشارات غريبة، كأنه يتحدث بلغة غير منطقية، لغة لا تفهم بالأذن بل بالبصر.

قال بدر بصوت خافت وهو يراقبه:

لأنهم لا يتكلمون لأنهم صم وكم جميع من هنا أصم وأبكم.

اتسعت أعينهم وردد صفير بدھشة:

ـ صم... وكم؟

أو ماً بدر وأضاف:

ـ نعم.. لكنني أفهم لغتهم.

راح يتتابع إشارات الرجل المهيب الذي أشار إلى صدره، فعينيه، وذكر بعض الحركات حتى توقف الرجل عن الإشارة.

فاستدار بدر إلى صمّاص والبقية:

ـ إنه يسأل لماذا دخلتم قرية آل سمعان؟

تراجع صمصام خطوة إلى الوراء، ينطهر مزيجاً من الانهار والوجل.

ثم سأله سمعان: **مَنْ**

**قُرِيَّةُ آلِ سَعْيَانَ، مَا هَذَا الْمَكَانُ؟**

انفجر نجم ضاحكاً بصوت عالٍ، حتى انهمرت دموعه، ثم قال بسخرية:

**سَعْيَانُ وَلَا يَسْمَعُونَ! هَلْ أَطْلَقُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ اسْمًا يَعْكِسُ مَا فَقَدُوهُ؟ يَا لَهَا مِنْ مَفَارِقَةٍ.**

النفت إلينه بدر بحدة، قبض على ذراعه وهمس بغضب:

**اَصْهَمْتُ أُمِّيَا الْأَبْلَهِ إِلَيْهِمْ يَقْرَأُونَ الشَّفَاهِ..**

لكن التحذير جاء متاخراً إذ انقض أحد رجال آل سمعان بقوة، وهو ت قبضته القاسية على رأس نجم فتهاوى أرضاً فاقداً الوعي وسط صدمة رفقاء.

تحرك الرجل المهيب إلى الأمام ، يظهر من ملامحه واساراته انه الحكم، رفع يده وبدأ في أداء إشارات معقدة، لم يستطع أحد فك شيفرتها سوى بدر، الذي تأمل الحركات بعناية قبل أن يترجمها بحذر:

لأنهم لا يسمعون ولا يتحدثون، لكن حواسهم الأخرى قد تطورت بشكل استثنائي يستطيعون التقاط الذبذبات، وقراءة الشفاه بل إنهم قادرون على التمييز بين الصادق والكاذب من خلال أدق تعبير الوجه.

أخذ صمّاص نفسيًا عميقاً محاولاً أن يهدئ اضطراب الموقف ثم قال:

أقدم اعتذاري عن تصرف نجم الأرعن إنه لم يقصد الإساءة، هو مجرد أحمق لا يدرك تبعات كلماته، لكننا لم نأت إلى قريتكم بسوء نية، ولم يكن دخولنا مقصوداً، لنا نرجو منكم السماح لنا بالسفر.

الرجل لم يُدِي أي تساهل، وأشار يده بإشارة أخرى، تلاها بدر بوجه شاحب، متلعمتا في ترجمتها:

- يقول ..... إن قريتهم ليست ممرا للعابرين، من نطاً قدماه أرض آل سمعان، فمصيره البقاء هنا إلى الأبد... أو الموت.

(صمّاص باستعلاء)

— يبدو أنك لا تعرف من نحن، أنا ابن الحوت الأزرق، وهؤلاء هم جماعة الوريد و لا أحد يمنعنا من الذهاب إلى أي مكان نريده، لا أنت ولا أي رجل من رجال قريتك.

اتسعت عينا الحكم، ثم تحولت ملامحه إلى الغضب ولوح بيديه بإشارات سريعة،  
ترجمها بدر وصوته يرتجف:

— يقول إنه لا يعرف من هو الحوت الأزرق ولا يهمه من تكون، كل ما يعرفه أن  
هذه الأرض تنتهي لقرية آل سمعان، وهو الحكم هنا، وسلطته لا يعلوها شيء، هو  
السيد والباقي يتبع.

توقف بدر للحظة، وكان الكلمات عالقة في حلقه، ثم تابع بصوت خافت:

— يقول أيضا إنهم حرموا من السمع والنطق منذ أن ضربت النيازك الأرض،  
فتتحولت جيناتهم، وتوارثوا هذا المصير عبر الأجيال، فعندما طردتهم المدن، لجأوا إلى  
هذه الأرض، وأقاموا عشيرتهم وفق قوانين صارمة سنّها جده الأكبر، سمعان الحكم،  
ومنذ ذلك الحين أصبح هناك قانون واحد لا يتغير من دخل قريتهم لن يرى  
الشمس مجددا حتى لا يأتي لهم بالخراب ولن يسمح لنا بتغييرها.

(صمصام)

— بعد غد عرس سمراء؟ وأنا لن أبقى هنا كالفريسة في قفص من أجل حفنة من  
الحمى اوجدوا قوانين فارغة.

ارتजف قلب نائلة:

— أنا لا أريد البقاء؟

لم يهلكهم صمّاص لحظة أخرى، إذ افجرت عاصفة من الغضب داخله، اقضم على الحاكم الأبكم بسرعة مدهشة، وأمطره بوابل من الضربات القوية، لم تكن مجرد لكمات، بل كانت افجارات من سخط دفين، غضب رجل يرفض أن يُسجن في قيد لا يليق به.

كأن الشرارة اندلعت بين الجميع، فجأة تحول المكان إلى حلبة صراع رجال الوريد وصمّاص ورفاقه يهاجرون بلا هواة، أجسادهم تتحرّك بوحشية، يضربون، يركون، يدفعون، أشبه بشiran هائجة في حلبة مصارعة، ترفض أن تخضع لسياج الأسرا.

في وسط هذه الفوضى العارمة، اخترق الهواء صفارات حادة، تبعها انطلاق وابل من السهام الصغيرة، كاسعات خبيثة من أفاعٍ سامة اخترق تلك السهام جلودهم بسرعة، وأحس كل منهم بوخر مؤلم، تلاه خدر ثقيل، حاولوا المقاومة، لكن أطرافهم خذلتهم، وأعينهم تناقلت، وأجسادهم هوت واحدة تلو الأخرى.

الثالث حاكم آل سمعان إلى الجنود، وقال بإشاراته:

ـ جهزهم لطقس الوحو...ـ

في أرض آل سمعان، لا يُرحب بالغريب إلا إذا صمت ولا يُعَذَّ من أهلهما من لم تخنه جيناته. فاللسان يؤخذ طوعاً أو كرهًا، والأذان تُشرع للوخر، لأن الهوية هناك تُنزع لتستبَدَّل بِهِيَة تُشَبِّهُ الجمْعَ، ولَكُنْهَا تُخْفِي الفرد في قاع النسيان.

عندما فتحوا أعينهم مجدها، كانوا كأنهم استيقظوا ليجدوا أنفسهم في قلب مأساة لا فكاك منها، كانوا مكبليْن إلى أعمدة حجرية شاهقة وقيود المعدنية تحضر في معاصمهم كأنابيب وحشٍ لا يرحم، أما البرد فزحف إلى عظامهم كما لو كان كياناً حياً ينهش أرواحهم، ساد المكان صمتٌ خانق، ليس صمت الراحة، بل صمت ما يسبق العاصفة أو ما يسبِّق الذبح.

ووفاة، انطلق صوتٌ متحسّر، مختلط بالحنق والقنوط.

"أرجوك... أخرجوني! سمراءااااااااء...!"

كان صمّاص هو من صرخ، جسده يتشنّج في محاولة يائسة لتطهير القيود، لكن الحديد لم يكن يلين أصْبَحَ مثل وحشٍ جريح يزار في وجه سجانيه، رغم علمه بأن زئيره لن يغيّر قدره.

اقترب منه صفير وبرغم قلقه الواضح قال:

— أرجوك يا صمّاص لا تكن هكذا اعدك سنجد الحل فلا تفقد أعصابك.

ضرب صمصام رأسه بالعمود الحجري وكان الألم الجسدي قد يطفئ النيران المشتعلة داخله.

— أي حل في هذا الوضع؟ كل دقيقة تمر تبتعد فيها سمراء عني ويقترب منها ذلك النذل نفيل، لا أحتمل الفكرة، لا أريد البقاء هنا، أنا احترق أشعر بالعجز ولأول مرة في حياتي أشعر أنتي لا شيء.

جاء صوت بدر هادئاً:

— يا سيدى لا تكون هكذا أنت دائماً من نستمد منه شجاعتنا فلا تجعلنا نضعف بضعفك.

تفكر في كلمات صفيدر قليلاً ثم رفع عينيه بعد أن تغيرت ملامحه ثم التفت إلى الظلام الذي يحيط بهم وقال:

— سأناوطي أحدهم.

وبيصوت خافت همس لنفسه:

— لا حل لدى سأستخدم آخر حيلة في جعبتي ليس من اجلني بل من اجلها.

أدأر وجهه بعيداً عنهم وأغضض عينيه، وبدأ يهمهم بصوت خفيض:

— ميساس ساسيم.

لم يتحرك شيء، فلم يحدث أي تغيير، لكن صمصام لم يتوقف بل زاد صوته قوة وتكبر النداء.

— ميساس ساسيـم!

وقف على قدميه رغم ثقل القيود، رفع رأسه عاليًا، وكأنما يخاطب قوة خفية في السماء، ثم صاح بكل كيانه:

— ميساس..... ساسيـم..... جنية الأرض والطين، الحب يسري، والقلب سليم.

صرخ صفير، متراجعاً قليلاً:

— ماذا تفعل يا صمصام؟ هل فقدت عقلك؟

لكن قبل أن يكمل، هبت ريح عاتية من العدم، اجتاحت المكان وأسقطت كل من كان واقعاً على قدميه. تحركت الجدران واهتزت الصخور، وكان الأرض نفسها تهيا لظهور شيء لم يكن من المفترض أن يُرى.

وجأة انشقت العتمة.

ظهرت ميساس من اللاشيء، يلفها ذلك الرداء الأسود الطويل، عيناهَا تلمعان بنور غريب ابتسامة شبحية وقالت بصوت ناعم:

— كيف حالك يا حبيبي؟ لم يخرب ظني بك فقد كنت أعلم أنك ستندبني.

صمصام بوجه خالٍ من الخوف:

— إن كنتِ تحببني حقاً أخرجينا من هنا يا ميساس.

كان صفير يبحث حوله كي يرى مع من يتكلم صمصام ثم نادى عليه:

— مع من تتحدث؟

ميساس لم تحرك عينها عن صمصام:

— هم لا يروتي أنت فقط تستطيع رؤيتي، ولا أحد غيرك.

(إائلة)

— أنا خائفة مع من يتحدث السيد صمصام؟

أجاها صفير وهو يحاول تسكين مخاوفها:

— لا تقلقي سيكون بخير...

ثم نادى على صمصام بصوت يعلوه الأرتياط:

— صمصام تحدث إلينا ماذا بك؟؟؟

لكن صمصام لم يلتفت إليها عيناه كانتا مسمرتين في الفراغ تسبران أغوار عالم لا يراه أحد سواه ثم نطق بكلمة واحدة، تشبة الترنية :

ـ حرر بنا يا ميساس.

دارت ميساس حوله، أصابعها الباردة انسابت على خده بخفة، قبل أن تهمس:

ـ سأفعل ما تشاء يا عزيزي ولكن لماذا لا تخاطبهم بالعقل؟

(صمصام بتوجس)

ـ كيف؟

تابعت بصوت أحش محلي:

ـ هذه القرية قد زارها وحش قديم يدعى رهاص، كاد أن يفنيهم جميعاً، لولا غريبٌ ظهر من العدم وقتله منذ ذلك اليوم، أصبح ذلك الغريب أسطورة، نقشوا اسمه في كل زاوية يقدسونه كمنقد ويحفظون سيرته كما تحفظ الروح الجسد.

تأملها صمصام بنظرة حائرة:

ـ وماذا يعني لي ذلك؟ لم تخبرني بعد كيف نخرج من هنا؟

ابتسمت ميساس ابتسامة مأكراً، واقتربت أكثر منه:

ـ أنا قادرة على إخراجك يا قلبي، ولكن أريدك أن تُقدس هنا... هذا الشعب قد يصير خادماً لك فلماذا لا تستغل الفرصة؟

تراجع خطوة إلى الوراء، تجهم وجهه وانكمش حاجبه بحيرة:

- ماذا تقرحين؟"

تدخل صفيدير ولم يدعه يكمل، إذ قال في ذعر:

أرجوك يا صمصام، لا تزيد مخاوفنا مع من تتحدث؟

لكن صمصام لم يلتفت إليه، بل صرخ بافعال:

ماذا أفعل يا ميساس.

ضحكـت ميساس بخفـوت ثم رفـت يـدها وـلمـست ذـراعـهـ الـيـمنـيـ،ـ منـ أـعلاـهـ حـتـىـ  
أـسـفـلـهـ حـيـنـهـاـ تـسـلـلـ الـأـلـمـ الشـدـيدـ فـيـ أـوـصـالـهـ،ـ لـيـتـرـاجـعـ قـلـيلـاـ قـبـلـ أـنـ يـسـمعـهاـ تـقـولـ:  
اكـشـفـ عـنـ ذـرـاعـكـ.

رفعـ كـهـ بـيـطـءـ،ـ ليـكـتـشـفـ وـشـماـ غـرـيـباـ طـبـعـ عـلـىـ زـرـاعـهـ،ـ كـانـ ذـلـكـ وـشـمـ لـثـعبـانـ  
بـرـأـسـينـ يـلـتـفـ حـوـلـ عـضـدـهـ تـأـمـلـتـهـ مـيـسـاسـ بـدـهـاءـ وـقـالـتـ:

ـ هـذـاـ الـوـشـمـ كـانـ عـلـىـ ذـرـاعـ المـقـدـ الذيـ خـلـصـهـمـ مـنـ رـهـاـصـ.ـ جـمـيعـهـمـ وـشـمـواـ الثـعبـانـ  
ذـاتـهـ عـلـىـ أـجـسـادـهـ تـبـيـنـاـ بـهـ،ـ لـكـنـهـمـ لـمـ يـجـرـؤـواـ عـلـىـ رـسـمـ الرـأـسـ الثـانـيـ،ـ اـحـتـرـاماـ لـمـزـلـتـهـ،ـ  
بـدـلـاـ مـنـ ذـلـكـ،ـ أـضـافـواـ لـسـانـينـ فـيـ فـهـ...ـ تـصـدـيقـاـ لـأـسـطـورـةـ عـودـتـهـ وـاـنـهـ كـانـ لـسـانـهـ  
عـنـدـمـاـ حـرـمـواـ مـنـ النـطـقـ،ـ أـرـهـمـ الـوـشـمـ يـاـ صـمـصـامـ،ـ حـيـنـهـاـ سـأـدـخـلـ دـاخـلـكـ  
وـسـأـتـلـاعـبـ بـيـديـكـ فـقـطـ،ـ أـمـاـ عـقـلـكـ وـجـسـدـكـ فـسيـظـلـ لـكـ دـعـنيـ أـرـهـمـ أـنـكـ أـنـتـ  
المـنـقـذـ!

(صمصام)

— افعلي

احتلت جسده كظلي يذوب في صاحبه، وكأنها كانت قطعة ناقصة من روحه، وبعد ان سيطرت على اطرافه ضربت الأرض بقدميه ثلاث مرات، ثم صفت بكفيه مرتين، أعقبها بثالثة حاسمة، فكان الصوت أشبه بنداء حرب لم تر سوى لحظات حتى تدفقت مجموعة من الحراس لقد شعروا في ذبذبات النداء.

وما إن اقتحموا الغرفة حتى انقضوا على صمصام، أمسكوا به بقسوة، وكانت السكاكين تلم استعداداً لخرم أذنه وقطع لسانه، من أجل اقامة طقس "الوغز" الطقس الذي تحدث عنه سمعان الأبكم بالإشارة، ليغدو الجميع مثله صامتين مذعنين.

فلت صمصام بيديه منهم ثم ببطء من قيوده نزع ملابسه العلوية، كاشفًا عن وشميه الغامض صُعق الحراس، وتسمرت أعينهم على الشعبان ذي الرأسين، وكأنهم رأوا نبوءة تتجسد أمامهم، فجأة انطلقت أصواتهم بهتافات مهيبة، وضربوا على صدورهم بقبضاتهم، ثم انحناوا له .

حدّق بدر بالمشهد مذهولاً، ثم تقم بارتباك:

— ما الذي يحدث هنا؟ وكيف فعلت هذا؟!

(صِحَامٌ)

هؤلاء يظنونني شخصاً مقدساً لديهم الآن.

أنا الحامي .....ههان... أنا من خلصكم من رهّاص، وبعد كل هذه السنوات،  
تعاملوتي بهذه القسوة؟"

شهقت الحشود، وتحول الحراس إلى كتل من الذنب، جثوا على ركبهم، وضرروا على صدورهم وهو يهتفون بخشارة مذعورة، وكأنهم يستغفرون خطيئة فادحة. لم تمض سوى لحظات حتى اطلقت أيدיהם لتحرير الأسرى، وفكّت القيود التي كبلت الجميع.

## نظرت نائèle حولها، وسألت باستغراب:

## - مَاذَا 'مَاذَا حَدَثَ؟

أجاها صفير وهو يراقب العاصم التي تحررت لتوها:

لست متأكداً، لكن هل أنت بخير؟

هزت رأسها قائلة:

- نعم لكن كيف؟

(نجم)

- نعم كيف تمكن السيد صهصام من التحدث إليهم ولماذا لم يوصل لهم ما يريد عن طريق الحديث هم يقرأون الشفاه كيف أجاد لغتهم ويدر فقط من يعرفها بيننا؟!

(بدر)

لقد أخبرهم أنه من أنقذهم من رهاص.

(صفير في حيرة)

- وماذا يعني ذلك؟

(بدر)

- لا أعلم لكن لا تتكلموا كثيراً، حتى لا تنفسوا خطته.

---

### ((الفصل السادس عشر: طالتك الخدعة))

بينما كان صهصام يرتئي أفكاره، ويغزل خيوط الخدعة التي حاكها ميساس ليفرض سلطوته على قبيلة آل سمعان، كانت خيوط أكثر تعقيداً تحاك في قصر "جلموود"

كان جلמוד جالسا بجوار زوجته "راجحة" يحتضن كأس الشراب بشغل، وعيناه تحدقان في النيران ، في هذا الوقت فتح الباب ودخل أحد الحراس بخطوات متعددة بينما كانت عيناه تفرّآن من نظرات سيده.

- سيدتي، اسمح لي بالكلام.

رفع جلמוד حاجبا، وصوته خرج ببطء كصخر ينفصل من جبل:

ماذا هناك؟

ازدرد الحارس ريقه وتلعم وهو يقول:

- إنها والدتك يا مولاي... الملكة زهيرة ... جاءت.

(جلמוד)

- هل تزح معى؟

أشار الحارس ناحية الباب:

- إنها هنا.

انفتح الباب بانسيابية ودخلت زهيرة وجهها مسكون بتعب الرحلة وعيناها تلمعان بمزيج غريب من الحنين .

أسرعت نحو ابنتها واحتضنته بشوق خانق همست بصوت مرتجف:

- اشتقت إليك يا بني اشتقت إليك كثيراً.

تخشب جلמוד للحظة ثم انكسر واحتضنها بقوة بعدها دفن وجهه في كتفها كطفل  
عاد من مدرسة، ودموعه التي لم يجرؤ على إظهارها منذ دهر انسابت:

- أي لم أطن أنتي سأراك ثانيةً.

ثم وكأنها تتبع سيناريو مكتوب بعناية التفتت نحو رابحة ومدّت يدها إليها بحرارة:

- كيف حالك يا زوجة ابني؟

(رابحة)

- بأفضل حال لأنك هنا اليوم.

سألت وهي تحدق خلف زهيرة:

ولكن أين سمراء؟ لماذا لم تأتِ معك؟

تبذّل وجه زهيرة وفي لحظة، انطفأ بريق عينيها وشحب وجهها كأنما سُحب منه الدم،  
ثم ارتعشت شفتيها، قبل أن تهار على ركبتيها ويخرج صوتها مكسوراً بالبكاء:

لقد اختطفها صمصام ابن الحوت الأزرق.

شهقت رابحة، ورفعت يدها لتغطي فمها:

كيف حدث هذا وأين كان الجنود.

جلمود كأنه لم يسمع شيئاً، السكون عم المكان والنار في الموقد خفت لهبها ثم بجأة  
 أمسك بالكأس وحطمه على الأرض صالحًا:

أنت تكذبين! قولي إنك تكذبين يا أمي، قولي إن سمراء بخير..

(زهيرة)

أنتني لو كنت أكذب يا بني.

النفت جلمود إلى راجحة و عيناه تقدحان شرّاً:

أنت السبب.

ارتدت راجحة خطوة إلى الوراء، تلعمت والدموع تخنق صوتها:

كيف أكون السبب؟

(جلمود)

أنت من أصررت على إرسالها إلى أمي، لقد حذرتك و قلت لك إنتي أخاف على  
ابنتي من أعدائي... وأنت قلت إنها ستكون في أمان، وأن أمي ستقنعها بالزواج!  
والآن لقد ضاعت.

سقطت راجحة على ركبتيها، تمسكت بطرف عباءته وهي تبكي:

لم أقصد، أردت فقط سعادتها لم أكن أعلم.

**أبعد يدها عنه بقصوة:**

رُغبَتِكَ فِي إِسْعَادِهَا دَمْرَتْنَا وَأَنَا لَنْ أَسْكُتْ سَأْشَعَلُ الْأَرْضَ مِنْ أَجْلِ ابْنِي وَ  
سَأْعَنُ الْحَرْبَ عَلَى الْحَوْتِ الْأَزْرَقِ وَإِنْ لَمْ تَعْدْ سَمَاءُ فَلَيَحْرُقَ الْعَالَمَ.

مُصَرِّخٌ

نَفِيلٌ اسْتَدْعُوا نَفِيلٌ فَوْرًا.

لم يلبث الصوت أن تردد في الأرجاء، حتى ظهر "نفيل" عند الباب، وقف شامخاً،  
وعيناه تلمعان بجمود ثم تقدم بخطوات واثقة وانحنى:

أمرتنی یا مولای۔

( جلmod بغضب )

ابنة عمك خطفت، أريدك أن تكون أول من يتحرك، لا أريد أسرى أزيد

## رؤوسهم.

أو ما فيل دون تردد، وبصوت بارد كالثلج:

کما تأمر پا مولای.

وَهِيَ الْمُؤْمِنَةُ الْمُسْلِمَةُ الْمُكْرِمَةُ الْمُبَشِّرَةُ بِالْجَنَّةِ الْمُنْتَصِرَةُ بِالْمُنْتَصِرِينَ

ـ يا بني أرجوك أعد لي حفيدي.

نظر إليها نفيل للحظة، وبعينين لا تشيان بشيء أو ما لها.

فقالت له :

ـ تعال معي أريد أن أودعك.

قادته إلى غرفة جانبية، وما إن أغلق الباب، حتى سقط القناع جفت دموعها وارتسمت على شفتيها ابتسامة شيطانية. اقتربت منه، واحتضنته كأنما تحتضن شريك مؤامرة:

ـ أحسنت يا نفيل أحسنت.

ابتسم نفيل بخبيث وقال:

ـ لم أكن لأفوت هذه الفرصة.

رفعت زهيرة يدها ولست وجهه برق يشوبه حقد:

ـ الخطة سارت كما أردنا سمراء بين أيدينا وجلמוד يصرخ على سراب، يظن أن الحوت الأزرق هو الجاني.

ضحك نفيل بهدوء، وقال:

ـ والآن، ستشتعل الحرب تماماً كما أردت.

ضفت زهيرة حفيدها، وهمست بسخرية:

انظر يا نفيل اختطفوا ابنة عمك.

(صمصام)

لا انا اريد حبيباتي ..

رفعت زهيرة يد نفيل عن حضنها، وابتسمت ابتسامة ناعمة ثم اقتربت من وجهه  
وهممت:

والآن سأذهب لأكل خطتنا.

وضعت قناع الاستنشاق على وجهها، بعدها أدارت ظهرها متوجهة نحو جناح  
رائحة.

دخلت زهيرة غرفة رائحة بكل ثقة وقتها كانت رائحة واقفة أمام المرأة، تضغط شال  
سمراء إلى صدرها ، وتصارع نفسها بأسئلة لا إجابة لها.

هل كنت أمّا سيئة؟ هل كنت السبب؟ إتنى اعيش من أجلها ماذا افعل بدونها  
؟ وجلمود ثمة غضب داخلي يتضاد ناحيته ، أنا أحبه، نعم، لكنني لم أنس أنه لم  
يشأ لقتل والدي. والآن اختفت سماء ريم تكون هذه الفاجعة هي التي توقظ ما  
دفن بداخلي.

زهيرة خلقها تراقب كل شيء تتأمل ملامحها، تلتقط اهتزاز روحها وتشم رائحة اليأس المتفجر منها.

اقررت ورفعت القناع عنها ثم أسقطت قليلاً من أعشاب تنقية الهواء في المبخرة أمام المرأة بعدها نطق بصوت حنون، مُبِّطِّن بالمكر:

لَا تحزني يا ابنتي سمراء ستعود.

أجفلت راجحة، وأغرورقت عيناهَا بالدموع:

أنا السبب أنا من أرسلتها، أنا من أتفعلت جلמוד بذلك لكن لم أكن أعلم أنتي أوقعها في ف...

وضعت زهيرة يدها الناعمة كالعنكبوت على كتفها لترد:

فعلت ما ظننته الأفضل ، فلا تلام الأم إن أرادت سعادة ابنتها فلا تقتلينا بلومك.

(راجحة)

أنت أكثر من أم لي ولا أعلم ما كنت سأفعل من دونك.

عاشقها زهيرة وهست كافعى تدفء فريستها:

سمراء ستعود قريباً، وأيضاً أنا آسفة على موت والدك، أعلم أن جلمود قد يbedo  
قاسيأً أحياناً، لكنه في داخله هش، بعض الكلمات تؤذيه بشدة فلا يستطيع داماً  
التحكم في مشاعره.

بعد ان نطقت كلماتها بتروي ، اخذت تراقب أثرها على راجحة وكأنها تدفعها نحو  
الهاوية.

(راجحة بشك)

وما علاقة موت والدي بمشاعر جلمود؟

(زهيرة)

لا شيء فقط كنت أتحدث بشكل عام ، ابني سريع الغضب، وأحياناً تسيطر  
عليه مشاعره.

لكن راجحة لم تقنع، حدقت فيها بحدة:

لا...هناك شيء خاطع أشعر بذلك، أرجوكِ أنتِ مثل امي فلا تخفي عنـي  
شيئاً.

وضعت زهيرة يدها على قلبها، وتطاھرت بالألم:

أرجوكِ يا ابنتي، لا تقسي عليّ قلبي لا يتحمل المزيد

ازدادت نظرات راجحة شگاً:

— عندما قال لي جلمود إن مفرعون الحوت الأزرق قتل أبي، رغم كسرى وقتها  
شعرت أن هناك شيئاً خاطئاً، كيف يقتله وهو صديقه، لم اقنع برد جلمود وقتها  
لأن أبي لا يخطأ في تقييم الناس ؟

اردفت بتسلٍ:

— أرجوكِ أخبريني بالحقيقة، ولا تعذبني أكثر.

وضعت زهيرة يدها على رأسها واحتضنتها بوحدها ناحية الجهة الأخرى حينها جشت  
راجحة على الأرض، واحتضنت قدمي زهيرة باكية:

— أرجوكِ... أريد الحقيقة، سأبجع تحت قدميكِ إن تطلب الأمر، فقط قولي لي.  
تلألأت عيناً زهيرة كقطة شمت رائحة الدم، ثم نظرت إلى راجحة ببطء، كأنها ترى  
سقوط قلاع في عيني امرأة منهارة. بعدها بقليل رفعتها برقة مصنوعة ومسحت  
دموعها:

— لا تذلي نفسكِ أكثر سأخبركِ ...

تهدت وانخفض صوتها حتى كاد أن يكون همساً:

— من قتل والدك، من قتل أرمغان هو ابني جلمود.

شهقت راجحة، وكأنها سقطت من شاهق:

ـ جلمود...مستحيل ؟ !!!

أجابت زهيرة، وهي تخض رأسها تثيلاً للحزن:

ـ غضبه أعباه فلم يكن في وعيه، هو لم يقصد.

(راجحة)

ـ لم يقصد هل تستهزئين بي؟ كيف لم يقصد؟ قولي كيف لم يقصد لم يقصد أن يقتل من اعتبره كابنه! من وقف إلى جانبه حتى أصبح الحوت الأحمر! لم يقصد أن يقتل وزير؟ لا تقولي لي إنه لم يقصد جلمود يعلم جيداً ما يفعل وما يقصد.

(زهرية)

ـ لا تجعليني اندم لأنني أخبرتك.

(راجحة)

ـ أنا من سأجعله يندم على كل شيء.

هبت بالخروج، لكن زهيرة أمسكت بذراعها حينها سحبت راجحة يدها بقوة، وركضت خارج الغرفة بينما بقيت زهيرة واقفة تحدق في الفراغ.

وبعد ان تأكّدت من ذهابها ، ارتسّت على شفتيها ابتسامة خبيثة و بدأت تدور حول نفسها ببطء ، وكأنّها صبية لم تتجاوز العشرين حتّى داشرت وسقطت على السرير ، أصبحت عيناهَا معلقتان بالسقف رفعت إصبعها مشيرة للأعلى تناطّب نفسها :

ـ جلمود سيفقتل راجحة ..... لا بل راجحة من ستقتل جلمود .... لا بل جلمود سيفقتلها ، لا أصدق هذا بل هي من ستقتلها جلمود أم راجحة؟' أخرجت قطعة ذهبية من ثوّتها ، وقلبتها بين أصابعها.

ـ إن وقعت على الحُمْم تموت راجحة ، وإن جاء الوجه الآخر فليذهب جلمود إلى الجحيم.

رميقطعة في الهواء ، تراقبها تدور حتّى سقطت في راحة يدها.

نظرت إليها ، ثم همسَت مبتسمة: يا خسارة .... راحت راجحة لكن لا بأس... المسرحية بدأت الآن.

---

### ((الفصل السابع عشر: الخلاص المفقود))

كان البارحة سجينًا لا يُسمى ، واليوم اخترت له الهامات ، وتبدل القيد إلى تاج.

دخل صهصام ساحة الحكم حينها لم يعلُّ صوته، ولم يمُدّ يده، فقط وقف فكان الوقوف في حضرته قياماً، في حضرة الحامي، اقليبت موازين آل سمعان، ومسجد القاتل بين يدي من قيل عنه يوماً <دخول لا يوقتن>

افتريش الجمجم الأرض حين جاء، كان الأرض تذكّرت ثقل اسمه فارتتحت.

ثم رفع الحاكم الأبيك يده، وأشار بمحركاتٍ صامتة، ثُرجمت على لسان بدر:

أنا سمعان الأبكم حاكم هذه البلدة ، أعلن أن هذا الرجل هو صاحب الأذن المقدسة همان وهو من أنقذ شعبنا من الراهاص ومن هذا اليوم، هو الحاكم الشرعي لآل سمعان، هكذا أوصى سمعان الحكم ومن بعده أبي سمعان الأبطل:

إذا جاء المُنْقَذُ فَالْحُكْمُ حَقٌّ لِهِ وَلَا يُنَازَعُ.

انحنى الرقب، وغرقت نظرات جماعة الوريد في ذهول لم تستطع تفسيره، حتى اقترب منهم أحد الحراس وأشار في غضب فترجم بدر:

انهوا كما انحينا فالذى أنقذنا، صار سيدكم وسيدنا.

وبطء انحنى الجميع.

اعتدل سمعان الابكم ثم تكلم بلغة الاشارة

ترجمہا بدر:

ساحنا يا سيدي لكن لماذا أخفيت عنا حقيقتك؟

لكن الإجابة لم تكن من صمصام، بل من ميساس التي تحكمت في يده:

كنت أريد أن أرى كيف ستتعاملون مع الغريب، لكنكم خيتم ظني.

وجه الحكم شعب فجأة، وأخذ يشير بسرعة كمن يبحث عن مبرر، فقال بدر وهو

يترجم:

لم نعلم أنك أنت ثم إن قوانين سمعان الحكيم تأمرنا بمعاملة الغريب بلطف، ولكن إذا أراد المغادرة يقتل، وإن بقي يجب أن يخضع لطقوس الوعز فمن يدخل لا يخرج.

وبعد فترة من الحديث والجادلة خرج صمصام وأصدقاؤه لتفقد تلك البلدة.

(صمصام)

كيف تم بناء كل هذا؟

سمعان تأمل حركات شفتيه، ثم أشار بيديه فترجم بدر قائلاً:

لم بنِ هذا وحدنا أما تذكر من جاء معك، يا سيد همان؟

صمصام قطب حاجبيه وقال بتوتر:

لا أذكر فقد مر وقت طویل ولهذا هناك الكثير من الأحداث التي طمست من ذهني.

أشار الحارس من جديد بلغة الإشارة ليتابع بدر:

— من جاء معك هو من ساعدنا، تعالوا يجب أن تروا شيئاً.

لكن قبل ان يتحركوا سأل صمصم فجأة:

كيف تنفسون هنا؟ وأين هي الكلمات؟

أشار سمعان بيده، ومازال يفسر بدر:

هنا لك شفّاطات هواء في الجدران تعالوا سأشرح لكم.

قادهم عبر ضيق عندما وصلوا إلى نهايته، وجدوا جداراً حجرياً مغطى برموز غامضة. انحنى صفيفير، ثم قرأ بصوتٍ منخفض موجه وجهه لجدار حتى لا يرى سمعان شفتاه وها يتحركان:

هذه الرموز تروي قصتهم كانوا مطاردين، منبوذين، عالقين بين الحياة والموت، بلا صوت، بلا قوة، يعيشون في عالمٍ يحاول ابتلاعهم، وعندما بدأوا يشعرون بالأمان انقضّ عليهم الراحت !

شعرت نائلة بارتجاف، وتراجعت خطوة إلى الوراء، وقالت بصوت خافت:

هل هذه صورته؟

أوماً صفيفير قائلًا:

نعم رأس ذئب، جسد ضبع، وضخامة كالفيل وهذا صورة همان وهو بخاريه .

ثم أشار إلى صورة رجل آخر غريب الملامح، يرتدي نظارة:

هذا الرجل ييدو مختلفاً، النقوش تروي قصته هو من علمهم قراءة الشفاه، وهو من قادهم لبناء هذه المدينة اسمه هنا اظروا.

اقتربت نائلة ورگزت في الحروف، ثم قالت بدهشة:

هذه لاتينية... الاسم... أي: جوناثان.

انفجرت ضاحكة وكأنها اكتشفت المستحيل:

كان أي على حق لم يكن يتبع وهمأ لقد كان هنا!

(صمصام)

ماذا تقصددين ؟؟؟

(نائلة)

اقصد جوناثان الذي اخبرتم عنـه ؟؟؟

(صمصام)

هذا يعني

(نائلة)

سفر اليربوع العاشر قد يكون حقيقيا ..

الفت صمّاص إلى سمعان وسأله:

هل ترك جوناثان شيئاً هنا؟

تأمل سمعان شفاته ثم اشار الى احد رجاله فأومأ الحارس ليعود بعد قليل ومعه صندوق صغير أسود، تتوسطه بقعة بيضاء غريبة.

فتح صمّاص الصندوق في حذر فوجد ورقة قدية صفراء الأطراف، وكأنها مرت بعمر طويل لم تكن خريطة أو كثراً بل حروفاً غريبة، كما لو أنها ليست من لغة البشر.

أخذت نائلة الورقة:

هذه لاتينية لكن بها رموز غريبة لحظة... أعتقد أنتي أستطيع فك رموزها.

تابعت:

إلى البشر ذوي القلوب المظلمة والعقول الضائعة أعلم أنكم في بحث مستمر عن الخلاص لكن الخلاص قد ولد واقتضى. لقد اكتشفت سر الشفاء، ولكن لم يكتب لكم بعد فعندما حاولت تدوينه في سفر اليربوع العاشر، غمرني الشك، هل أتم

مستحقون له؟ نظرت حولي، ورأيت رماد الحضارات سمعت صراخ الأرض التي  
دمرتها، استنشقت الهواء المسموم الذي نسجته أيديكم، رأيت البحار التي  
ابتلعت مدنًا بأكملها رأيت الظلام في قلوبكم أكثر من الظلام الذي غطى هذا العالم  
الميت. أتم البراكين التي افجرت، الحروب التي مزقت الأرض، الدماء التي  
سفكت، النبوءة التي تحققت، أتم من قسم العالم، من فتحتم جحيمه، من صنعتم  
الطاعون الذي قضى على كل شيء، كنت أحمقًا إذ صدقت أنكم قادرؤن على  
التغيير، خفت أن أترك لكم مفتاح النجاة... فتعودوا لتدمرؤا ما تبقى من الحياة.  
فوضعت شرطًا واحدًا إن أردتم إيجاده إن غيرّتم أنفسكم، ستجدون الكتاب فهذا  
الصندوق ليس مجرد وعاء، إنه ميزان لطبيعتكم ميزان ماتخرجونه من فلسفة وكذب  
وخداع وأيضاً ميزان للحق والعدل والرحمة. إن طغى السواد على البياض، إن  
بقيتم على حلكم لن تجدوا الخلاص. لكن إن غالب البياض على السواد إن أثبتتم  
أنكم تغيرتم حينها فقط، سينكشف سفر الريبوع العاشر.

جوناثان... المصاب الذي نحي.

كانت الرسالة صادمة لهم ، تخبرهم ان مستحيل سيظل مستحيل وسفر الريبوع لن  
يخرج لأن الشر لن يذهب .

قطع شرودهم اشارات سمعان يطلب منهم ان يتناولون معه الطعام، ذهبوا معه فاگرهم بأفضل ما يكون، ليس لأنهم ضيوف فحسب، بل لأن صمصام أصبح الحكم ، تناولوا حما شهياً متبدلين المزاح كان الحرب ليست على الأبواب.

(صمصام)

أظن أن وقت الرحيل قد حان، دعونا نقدر.

ردّ عليه سمعان بإشارته التي تلها بدر:

هل تركنا يا سيد همان بعد أن وجدناك، أنت حاكمنا فكيف تترك شعبك؟

(صمصام)

أتم وجدتوني، لكنني لم أجد نفسي بعد.

(سمعان)

نحن سنساعدك في رحلتك.

(صمصام)

اتم لا تغادرون قريتكم ابدا ، ولا تجعلون من يدخلها يغادر فكيف ستخرجون وتأتون معي ؟ ؟

(سمعان)

أنت قريتنا، أين الأُذن المقدسة مكانك هو قريتنا.

(صمصام)

أجل لقد نسيت.

ثم قال بوضوح:

لنخرج الآن فليس لدينا وقت.

سار الجميع إلى بوابة القرية التي ستخرجهم من الجوف إلى السطح حينها سأله صمصام:

أين الخيول؟ والكمامات وبقية المعدات؟؟؟

فأشار أحدهم، يلقب سميع الأدب بحركات متسرعة فهم بدر تلك الإشارة وقال:

لقد ذُبحت الخيول فقد كان اللحم الذي تناوله أهل القرية وأكلنا منه هو خيولنا.

(صمصام)

وماذا سمنطي الآن؟

اشار سمعان الابكم بيده اليسرى فتوجهوا نحو ساحة واسعة تحيط بها الأكواخ  
الحجيرية أزاحوا بعض الأحجار الكبيرة عن الأرض فانكشفت ألواح خشبية تخفي  
فتحة ضخمة تنحدر إلى الأسفل.

سُمع صوت فرقعة قبل أن ينبعث من الداخل ضوء خافت يترافق على جدران  
ملساء مبللة. أطلق أحد الجنود صفيرًا حادًا، فجاء الرد من الأعماق قعقة أرجل  
ثقيلة تتقىد إلى الأعلى تلى هذا الصوت ظهور أول رأس نملة عملاقة، سوداء و  
لامعة دروعها كأنها من الفولاذ.

ثم الثانية والثالثة، حتى خرجت ست وثلاثون نملة عملاقة، تتحرك بانضباط  
مهيب.

صاحب صمّاص مندهشًا:

— نمل البرير احذروا فقد يهاجمون؟

ابتسم سمعان وحرّك يده... قال بدر:

— هذه ليست كاللحوش التي تعرفونها نحن نربيها منذ عقود، فقد كنا نسرق البيض  
من الأعشاش نأكله وما يفيض عن حاجاتنا نضعه في حضانات، ليسهل ترويضها  
عند الفقس، والآن نركبها في الحرب.

أضاف:

لأنها أسرع من الخيول، وأقوى من الوحوش وهي تفهمنا كما تفهمها، بالإشارة فقط  
فلا تحتاج إلى الحديث.

وضع صمّاص يده على ذقنه وهو يحذّق في أحد النملات بفضول :  
رحلتنا ستصبح أكثر إثارة مما توقعت.

قدم عليهم رجلا من أولئك الصم، يحمل في يديه سيف وبعض المعدات  
والكمامات، سلمها لصمّاص ورفاقه من جماعة الوريد، قاتلاً باشاراته :  
هذه أمانتكم.

حينها اقترب سمعان الأبكم، وأشار هو الآخر ففسر بدر حدّيـه :  
سأـتـي مـعـكـ وـمـعـيـ سـتـةـ وـعـشـرـونـ مـنـ مـحـارـيـ آلـ سـمعـانـ.

شكراً صمّاص على هذا واستعد محاربو آل سمعان للأنطلاق فقد تسلحوا بنـيـالـ  
من صنع أيديـهمـ، وجـارـبـ صـقلـتهاـ نـيـرانـ الـكـهـوفـ، أـمـاـ وـجـوهـهـمـ فـغـطـّـوـهـاـ بـأـقـنـعـةـ بدـائـيـةـ  
عـجـيـنـةـ مـنـ الطـيـنـ الـجـفـفـ، مـخـلـوـطـةـ بـالـأـعـشـابـ وـالـنـسـيـجـ .

أخذ صفيـدرـ واحدـ منـ تلكـ الـأـقـنـعـةـ بـدـلـ منـ كـامـتـهـ الـتـيـ اـعـطـاهـاـ لـنـائـلـةـ، فـهـوـ مـنـ  
حـيـنـهـ مـنـهـكـ مـنـ كـثـرـ التـبـادـلـ مـعـ صـمـّـاصـ .

نـائـلـةـ كـانـتـ لـاـ تـزـالـ مـتـرـدـدـةـ تـحـذـقـ فـيـ الـفـلـ الـعـلـاقـ بـرـيـةـ قـائـلـةـ:

— لن أستطيع امتطاء هذه الكائنات!

لتوح سمعان بيده فقال صفيدير:

— أعلم ما يقوله هو يقول لا تخافي إنها غير مؤذية.

لكن نائلة هزّت رأسها بقوة، وقالت بنبرة يختلط فيها الخوف بالاشمئزاز:

— لن أركب هذه الأشياء!

(صفيدير مبتسمًا)

— إذن أركب خلفي.

ترددت للحظة ثم أمسكت بيده لتصعد خلفه حينها تحرك الملة للأمام  
وهكذا انطلقت القافلة في ظلام الليل، تاركين خلفهم قرية آل سمعان...

---

### ((الفصل الثامن عشر: سقوط المعبدة))

(حين تدبر المكائد تختفي المصائب لحظات، وتغمرنا سكينةٌ خادعة، هدوءٌ ما قبل العاصفة، نظن أنفسنا في مأمن، نبتسم للشمس المزيفة، ونشر ملابسنا ظنًا أن السماء لن تطر، لكن الشمس الكاذبة قد خدعتنا ولو كثا فرأنا نشرة الأخبار الجوية، لربما نجينا من قُتها بل وربما استفينا من ذلك المطر)

وصلت رساله من قبيلة النار بعثها أحد جواسيس مقرعون ، دخل جرميد يحملها بين يديه فاشار له مقرعون أن يقرأها حينها ظهرت ما تحملها تلك الرسالة على ملامح جرميد قبل ان يتقوه بها، رفع رأسه ثم نظر الى الحوت وقال:

— الخبر جلل يا سيدى سراء، ابنة الحوت الأحمر، خطفت صحت قليلاً وهو ينظر في زعر.

والأدھى... تابع جرميد:

— أن الاتهام وجه للسيد صمصم.

شحب وجه مقرعون، لكنه لم يتكلم.

فاكل جرميد:

— المملكة ليست بخير ونقيل ..... نقيل يا سيدى يجهز جمع من الرجال، ويقسم إلا يعود إلا وقد غرس سيفه في عنق السيد صمصم.

(مقرعون)

— أعدوا السيوف..... الليل سيكون طويلاً.

خرج "جزميد" من القاعة حينها توجه "مقرعون" إلى حيث يجلس "الحوت الأسود" عدنان

قال مقرعون، بنبرة غلظة:

هل سمعت ما قاله جرميد؟

أجاب عدنان دون أن يلتفت:

نعم، سمعت.

(مقرعون)

وهل ستساندني إن اشتعلت النار؟

(عدنان)

أنا معك كما أخبرتك من قبل.

(مقرعون)

- هذه الحرب إن اندلعت ستبهر تحالفي معك و الحوت الأبيض والأحمر لن يصمتا.

(عدنان)

- وإن كان فليكن ...انا على أتم الاستعداد.

فجأة دخل رجل من الجنود مهولاً وجهه متقد ونفسه يتسرع.

قال:

— سيدى!

(مفرعون)

— ماذا هناك؟

(الرجل)

— بعض سكان القرية جاءوا إلى هنا.

(مفرعون)

— لماذا؟ هل يهربون مجدداً؟

(الرجل)

— لا يا سيدى إنهم أمسكوا رجلين حاولا قتل فتاة صغيرة، لم تبلغ الثامنة.

ارتجمف فمفرعون للحظة ثم زجر:

— أدخلوهم حالاً!

دخل الناس تندحم فتاة ترجف كفرخ طير مبتل، يتبعها الرجالان المجرمان.

نظر مفرعون إلى الطفلة وبعدها اقترب منها ثم أرقي على ركبتيه، واحتضنها بقوه:

— طريقة؟

كانت هي... الفتاة ذاتها التي جعلته يبكي لأول مرة، تلك التي رأها يوماً ممسكة بطرف ثوب والدتها، تلك التي غتّى معها ذات مساء أحلامنا ستره...

أخرجها من حضنه، ونهض ببطء، ثم استدار نحو الجرميين، ونظر إلى الجموع وقال:

— ما الذي حدث؟

تقدم شيخ من الحضور وقال:

— سمعنا صوت صراخ يأتي من تحت الألواح، وعندما تبعنا الصوت إلى البحيرة، وجدنا هذين الجرميين يحاولان خنق الفتاة تحت البيوت.

مسح مقرعون ذقنه بيده كعادته حين يشتد غضبه، ثم مشى بخطى بطيئة لتندلع بعدها نيرانه وينهال على الرجال ضرباً، حتى تفجرت أفواههما دمًا.

(تابع بصياح)

— لماذا؟ لماذا فعلتما هذا؟

قال أحدهم بصوت مكسور:

— لم نفعل شيئاً... أقسم.

استدار مقرعون إلى طريقة وسألهما برقة غريبة:

- ماذا حدث؟ قولي لي.

بكت الفتاة وقالت:

- قالوا لي إنهم سيعطوتي طعاماً وما إن ذهبت معهم، حتى حاولوا خنقني ولا أعلم لماذا.

سحب مقرعون خنجراً من أحد جنوده، وأمر الحرس بتنبيه الرجالين.

تقدما إليهما وهو يضحك ضحكة مريرة قائلاً:

- سأبدأ بأصابعكم واحدة تلو الأخرى، ثم أصافع القدم، بعدها سأجعل أطرافكم لافتات، وأعلق بقاياكم في مدخل القبيلة وقتها ستثالون موئاً بطيناً، كما تحب الآلهة القدية.

أمسك يد الأول وسأله:

- ألن تتكلم؟

قال:

- لم أفعل شيئاً!

ابتسم بخبث ثم قطع خنصره.

صرخ الرجل صرخة مدوية.

تابع. البنصر، الوسطى، السباقة... وعندما وصل إلى الإيمان، صرخ الرجل:

— سأتكلم! سأتكلم!

صرخ الآخر:

— أصمت أيها الأحمق!

لكن الأول قال:

— من الأحمق؟ أنا لن أفقد أطرافي من أجل عجوز شمطاء!

قال مقرعون وعينيه تضيقان:

— من تقصد؟

— "ندرة" العرافة.

سرت صدمة باردة في المكان شهقات، هسات، عيون تتسع.

(مقرعون)

— ولماذا تأمركم بقتل فتاة صغيرة؟

أجاب الرجل وصوته يرتعش من الألم:

– لستحق نبوتها، ندرة تأخذ طعاما من الناس مقابل التنبأ، ولكننا نحن... نحن من  
نجعل النبوءات تتحقق.

هي تنبأ بموت فتاة غرقاً؟ نحن نفرقها.

تنبأ باحتراق بيت؟ نحن نحرقه.

يا جهاض امرأة؟ نرسل من يسقيها شيئاً يُسقط جنينها.

هي أفعى، ونحن أنيابها...

صرخ الآخر:

– اصمت فضحتنا.

رد الأول:

– لن أموت وحدي ولن أكون وقوداً لـ<sup>لوهم</sup> تعيشه تلك الساحرة.

كان صوت الحقيقة انفجر في الهواء، وراح الناس يتلبون كفافاً على كف، والمهمة  
تنسع كجناح غراب فوق رؤوسهم.

همس شيخ عجوز:

– العِرَافَةُ لَيْسَ عِرَافَةً.

وهتف آخر:

— خدعتنا، نهبتنا، وقتلت اخوتنا لقد صرنا نعبد ظلّها.

قال المجرم الجريح وهو يزفر دمه:

— خوفكم هو من قادكم الى ذلك أنتم من أطفأ عقله وأشعل خوفه، لو فكرتم فقط للحظة لعلتم أنه لا يوجد شيء اسمه تنبأ ولا عرافة، هي شيطانة لكنكم أنتم من عبدها، فالذين يهابون المجهول، يصنع لهم الكاذبون ألف نبوءة، وألف كذبة، ليحكموهم بها واتم سمحتم لها بذلك.

فجأة انهار مقرعون على ركبتيه، وضع ذراعيه على الأرض، وبدأ يضرب الأرض الخشبية بقبضتيه، بقوّة غاضبة حتى تهشمّت يده وسالت منها الدماء، صرخ وصرخ ولم يتوقف، ثم نهض، لكن مقرعون الذي نهض، لم يكن هو نفسه، لم يعد الحوت الذي يعرفونه بل كان وحشاً، اقترب من الجرميين، ولم ينظر إليهما، بل نظر إلى الأرض، وتكلّم من تحت أسنانه:

— كنت لا أؤمن بها لكن تلك المرأة في يوم من الايام نادت في القبيلة، وقالت إن ابنتي، فغر، ستمرّض مرضاً يكسر عظامها ويبدل روحها، ويدفعها لتتمنى الموت ولا تنهاله.

صمت قليلاً، ثم همس:

- وبعد أيام مرضت بالضبط كما قالت، هل هي من فعلت بها ذلك أليس كذلك؟

تبادلَت عيناً الجرمين النظارات، وبدت الحقيقة في وجوههم، لكن الصمت كان سيدَهم.

أمسك مفرعون سيفه ورمي الحجر بعيداً.

ثم قال:

- شدوا أذرعهم.

وبدأ القصاص، قطع الذراع اليسرى للرجل للأول، فصرخ صرخة خافت منها الريح.

ثم الذراع اليسرى لرجل الثاني.

فقال الأول وهو يهذى:

- نعم نعم هي من أمرت، أعطتنا وصفة مزيج من عشبة الدفل، والبيش، وسم الإستريكن، والشقائق النعمانية، خليط قاتل ، سم بطيء ، جعلها تصرخ كلما تحركت.

سقط السيف من يد مفرعون، وحلّ الصمت على الجميع، إلا صرخات الرجلين، فقد كانوا ينوحان كجيفة تتعرّض.

تابع مقرعون بهدوء مرعب:

– كانت كلاما حاولت أن تمشي، تكسر أطرافها وكان المرض يأكل لحمها أمامي.  
تقدم ببطء وأمسك بذراع أحدهم الباقيه ثم طرحة أرضا، وطاً على بطنه، ثم شدّ  
الذراع بقوة حتى افصلت كجذع رطب، ثم فعل الشيء نفسه مع الثاني، وبعدها  
أمسك فأسا.

وفصل أرجلهم عن أجسادهم كما يفصل الظل عن الضوء.

– علقوها للغربان.

قالها بصوت كأنما خرج من قاع الجحيم، وراح الجنود يحررون الجثتين الغارقتين  
بالدم، ليعلقونها في مدخل القبيلة كتحذير للغافلين، لكنه لم يتوقف كان كالمسور  
انطلق إلى بيت العرافه "ندرة" وخلفه كل أهل القرية يتبعونه كما يتبع الحطام  
الطوافان.

حين وصلوا إلى كوخها الخشبي كان الباب مفتوحاً والأشياء مبعثرة، قال أحدهم  
وهو يتفحص الداخل:

– إنها جمعت أغراضها وهربت.

مقرعون بصوت زلزل السقف:

- ابحثوا عنها حية أو ميتة!

بعدها أمسك شعلة نار، وألقى بها داخل الكوخ فاشتعلت النيران وارتقت ألسنة اللهب كأنها تطهر القبيلة، وانطلقت الفرقة من الجنود إلى بيوت الناس يفتشون، يقلبون، يهدمون الرفوف والصناديق، انقلبت القبيلة رأساً على عقب، لكن "ندرة" لم تكن هناك ، فقد اختفت ندرة ولم يترك اختفاها أي أثر. لا أحد علم من ثبّتها أو كيف أفلتت من رقابة العيون، لكن الجميع كان يعلم أن لاتبعها عيوناً في كل مكان، وهذا ما منحها الأفضلية دوماً فقد كانت تعرف كل شيء قبل الجميع.

خرجت من القرية متوجحةً إلى مكان بعيد عن أعين أهل الماء. لم يكن مجرد ملجاً عشوائياً بل مخبأ قديم، محترئ ولكنه معدّ بعناية منذ زمن بعيد، ليس ملكاً لها بل سيارة صدئة تعود إلى عهد الأسلاف. مركرة تتطلع الوقود وتنفث الدخان كانت هي من خبائثها هناك بنفسها، لأجل هذه اللحظة تحديداً.

مدّت يدها داخل جفنا وسحبت عدستها اللاصقة التي أخفت لون عينيها الحقيقي لسنين. تلك العجوز الشمطاء لم تكن عمياء كما زعمت فلقد خدعتهم جميعاً.

كانوا يئرون بقدرها على معرفة من يطرق الباب، ومن يمر، ومن يجلس، ومن يهمس، معتقدين أنها تبصر بصيرة روحية لكن الحقيقة أنها كانت ترى كل شيء.

جلست خلف المقود وضعت المفتاح ودارت الحرك الذي زأر كوحش نائم أيقظ  
من سباته ابتسمت وهي تهمس لنفسها:

أحسنتِ ياندرا ذاك الجركن الممتلىء بالوقود لم يكلفني سوى نصف لتر من الماء.  
أدارت السيارة ببطء، ثم اندفعت بها عبر الأرضي محلاً بصناديق الطعام والزاد  
الذي جمعته على مدى سنوات طوال ثم لوحت للخلف، كأنها تودع تاريخاً لا  
يستحق الذكر، وضحت قائلة:

وداعاً يا قبيلة الاغبياء .

في ذلك الوقت دلف مقرعون إلى غرفة زوجته نوهارا التي كانت مستلقية على  
السرير توليه ظهرها تئن بصوت لا يُسمع . وقف عند طرف الفراش وقال بصوت  
خافت:

— أعلم أنك مستيقظة لطالما ظاهرت بالنوم، لكنني أعرفك أكثر مما تعرفي نفسك،  
تحملين في قلبك وجع موت ابنتنا ولهذا لا يغمض لكِ جفن، لقد ارتاحت بفر، أما  
آن لكِ أن ترتاحي أنتِ أيضاً؟

جلست نوهارا ببطء، والدموع لا تزال عالقة بجفونها:

لقد قتلتها يا مقرعون ظننت أني أريجها واريج نفسي، لكنني قتلت نفسي معها. لم ترى وجهها وهي تتسلل إليّ و تقول لي أطلقني النار يا أمي اريحيني من هذا العذاب خلّصيني.

كنت أرض، أزجرها، أثبت بها، لكنها ظلت تتسلل وعندما لم أعد أتحمل أمسكت المسدس حينها نظرت إليّ نظرة لا تنسى، ثم قالت لا تترددي يا أماه... أطلق النار.. ولست أدرى من مات حينها هي أم أنا؟

(مقرعون)

ـ نوهارا أنت لم تقتلها...

ـ صرخت به، كمن يرفض الغفران:

ـ بل فعلت ومن ينكر ذلك إنتي من سحب الزناد.

(مقرعون)

ـ لا من قتلها ليس إصبعك، بل السم الذي وضعته ندرا في جسدها تلك الشمطاء ليست عرافة كما ادعت بل ساحرة مجرمة، أرادت أن تثبت لنفسها وللشعب أن نبوءتها في بيت الزعيم قد تحققت، فدست المرض في فبر، حتى تراءى نبوءتها وكأنها وحي، الشعب يهيل، وهي ترتفع فوقهم كمن ترى الغيب، أما فبر، فدفعت الثمن.

نهضت كمن ثُوقدت فيها نار الجحيم وصاحت:

— وأين هي الآن؟ لا تقل لي أنك قتلتها... فإني أريد أن أقطع لحمها بيدي، أسمع صراخها.

أطرق رأسه وقال:

— لقد هربت كانت مهياً لهذا اليوم فهي ليست وحدها، بل لديها معاونون قتلث اثنين منهم، وساعدم عشرة آخرين عرفت أنهم من أتباعها، سأعدمهم في الساحة بعد قليل.

شهقت نوهارا بغضب:

— امرأة عجوز، عمياء تقتل ابنتك، تخدع شعبك، وتفرّ من بين يديك؟

قال هراراة:

— ليست عمياء، كانت ترى كل شيء وتعرف كل شيء، ونحن الآن نعرف ولكن بعد فوات الأوان سأريك بها وستذوقين لحمها حين يحين الوقت، أما الآن فعلتي أن أعدّ نسي للحرب.

(نوهارا)

— أريد النظر إلى الخونة وهم يُعدمون.

نادي المخبراني بإعدام الخونه

فتجمع الناس، رجالاً ونساء، حتى الأطفال الذين حبوا خلف الشياب لم يعنهم الفضول من التسلل، عيونهم تتصبّب من البخار والمدمع، والكمامات تغطي الوجوه، دُقَت الطبول ثلاثة دقات لا أكثر.

الشعـلات اشتعلـت، لـكـها لم تـدفعـ المـكانـ، بل زـادـتـ منـ جـحـيمـ الـانتـظـارـ.

صـعدـ الجـلـادـ عـلـىـ منـصـةـ الطـينـ الأـسـودـ، وبـصـوـتـ كـالـخـرـزـ صـاحـ:

هـؤـلـاءـ العـشـرـةـ هـمـ الـيـدـ الـتـيـ اـمـتدـتـ إـلـىـ نـبـعـ النـقـاءـ، دـسـوـاـ السـمـ، وـنـشـرـوـاـ سـوـادـ نـدـرـةـ  
فـلـاـ مـكـانـ لـهـ بـعـدـ الـيـوـمـ بـيـنـاـ.

كـانـتـ أـجـسـادـ العـشـرـةـ مـرـبـوـطـةـ بـالـحـبـالـ، أـذـرـعـهـمـ وـأـرـجـلـهـمـ مـكـبـلـةـ وـمـعـلـقـةـ بـهـاـ أـجـارـ منـ  
الـرـخـامـ الـمـتـحـلـلـ الـذـىـ اـخـذـ مـنـ قـاعـ النـهـرـ الـمـتـعـنـ.

تـقـلـوـاـ وـاحـدـاـ تـلـوـ الـآـخـرـ، وـأـلـقـيـ بـهـمـ فـيـ نـفـسـ النـهـرـ فـحـدـثـ مـاـ يـشـبـهـ الـفـقـاعـاتـ عـلـىـ  
سـطـحـ الـمـيـاهـ اـتـيـ بـعـدـ صـمـتـ مـرـبـيـبـ لـمـ يـخـرـجـ بـعـدـ صـرـاخـ وـلـاـ اـسـتـغـاثـهـ، الـمـاءـ يـبـلـعـ وـلـاـ  
يـعـيـدـ وـبـعـدـ تـنـفـيـذـ الـاعدـامـ

في تلك الليلة تحالف جيش الحوت الأزرق مع قوات الحوت الأسود، ومتّ التعبئة الكاملة، استعداداً للخروج مع بزوغ شمس اليوم التالي.

## ((الفصل التاسع عشر: القرعة))

بين متأهّب وجاهل، ضاع شعب لا يقوى على الحياة ولا الحرب.

كان صمّاص يُمتصي غلته، حين شعر بشيء يتحرّك داخله ذلك الإحساس الذي لم يعد غريبا عليه.

(صمّاص)

— هل تعلمين إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

(ميساس)

— تريد أن تمنع زواج سمراء

(صمّاص)

— ولماذا لا تمنعيني؟ وأنتي تحبييني؟

اقترب صوتها منه وكأنها تهمس في أذنه:

— من يحب لا يمنع، بل يعطي ثم أنا أصبحت الزوجة الأولى، وهذا ما يهمني.

اتسعت عينا صمّاص وقال بدهشة:

— انتِ تهذين أنا لم أتزوجك.

لم تظل داخل جسده هذه المرة، بل خرجت كطيف شفاف يطوف حوله، ثم هبطت على النملة خلفه، واحتضنته من الخلف قائلة بمكر:

ـ نحن بنات الجن لا نخجل من مشاعرنا، عندما نقول لأحدٍ إننا نحبه، فهذا عرض زواج وإذا نطق الحب اسم الجنية، ثم عكسه، فهذا يعني أنها سارت زوجته.

التفت إليها بنصف عينه:

ـ أنا لم أعلم بهذا لقد خدعتنني.

ـ لم يكن عليك أن تعلم والآن... أنت زوجي.

ضحك بصوته مرتفع، حتى التفت إليه الجميع وكأنه أصبح بالجنون فما يرون أنه يضحك مع نفسه ، فأخفض صوته وقال مبتسمًا:

ـ أنت بارعة في المكر وهذا يعجبني.

(ميساس)

ـ أنت لم تر المكر بعد.

اختفت ابتسامته فجأة ، سألته بفضول:

ـ ما بك؟

أخرج من جعبته صندوق جوناثان، ورفعه أمامها قائلًا:

ما حكاية هذا الصندوق؟ وكيف سنجد الكتاب؟ وما سرّ هذا اللغز؟

(ميساس)

لا أعلم كل شيء، لكن ما أعلمه أن جوناثان وثق في شعب آل سمعان، وهم خانوه، لهذا هرب وأخفى كتابه.

سأّلها بدهشة:

وكيف خانوه؟

أجابت:

كان يحاول أن يغيّر البشرية وبدأ بهم لكنهم لم يتغيّروا، بل ازدادوا سوءاً.

سأل والفضول يعتليه:

وماذا حدث؟

(ميساس)

البطن الفارغ لا يبحث عن السلام، بل عن ما يسدّ جوعه، كان جوناثان يحاول أن يهذب أخلاقهم، أن ينتشلهم من غريزة الحيوانات، فبني لهم مستعمرة، لكنه نسي أنهم جائعون فمن جوعهم ستوا قانوناً لم يأذن به سموه "القرعة" فيه يتم اختيار أحدهم عشوائياً ليذبح! ثم يطهّى... ليأكله الآخرون!

(صمصام)

أي هراء هذا؟ هل كانوا مصابين .

هَزَّتْ رأسها وقالت:

لَا بل كانوا جوعى.

سُكِّتْ قليلاً، وقد تغيرت ملامحه

قالت:

حيثما فقد جوناثان الأمل غادرهم، وترك خلفه تلك الرسائل المبهمة التي تقود إلى  
كتابه قال إن البشرية لا تستحق الحياة إلا إذا تغيرت.

(صمصام)

تعلمين كل هذا ولا تعلمين أين الكتاب؟

(ميساس)

كان جوناثان حذيراً أخفاه بتعاويذ سحرية، حتى لا يستطيع أحد من الجن أن  
يساعد البشر في الوصول إليه..

صمصام وكأنه لا يصدق:

— لكن كيف يأكلون لحوم بعضهم وهم ليسوا من الاموات الاحياء.  
(ميساس)

— بل صدق فهذه ليست المرة الأولى التي يأكل فيها البشر بعضهم من الجوع لقد فعلها أسلافك.

— اسلامي؟!

— نعم في مصر بين عامي 1065 و1071، زمن الخليفة المستنصر بالله حدثت فاجعة سموها الشدة المستنصرية.

هل تظن أن الجوع يُميت فقط؟ إذاً أنت لا تعرفه بعد فالجوع هو الذي ينهش النفس قبل الجسد، الجوع الذي يجعل الإنسان ينسى اسمه، ويتحول إلى وحش لا يشبه البشر.

الشدة المستنصرية؟ ذلك لم يكن زماناً بل لعنة على أهل مصر.

أخذت تحكي ببربة باردة:

— في منتصف القرن الخامس الهجري، انخفض النيل، وجفت الأرض، سبع سنين، لا مطر ولا زرع، والنخيل صار هشياً، والقمح حكاية ثروى، في البداية باع الناس الذهب، ثم باعوا البيوت ثم باعوا الثياب ثم باعوا أنفسهم، هل تصدق كانوا يحفرون قبور الموتى ليلاً... ليس لدفهم بل لاستخراجهم، يقطعون لحمهم

يطهونه، يبيعونه، ويتناولونه على موائد الظلمة، الناس أكلوا الجثث وما شبعوا منها، بدؤوا يختطفون الأحياء فمن فوق الأسطح كانوا يلقون الخطايف، يختطفون بها من يمشي في الطريق، رجل، امرأة، طفل...

ويُسحب إلى الداخل، لا يسمع منه صوت، ولا يرى له ظل.

وبعد قليل، نشم رائحة شواء...

نظرت إلى السماء، بعينين نصف ميتتين وقالت:

ال الخليفة نفسه المستنصر بالله لم يجد في قصره سوى جارية واحدة تطبخ له خبز  
الشاعر، كل شيء انهار لا حكمة، لا قضاء، لا رحمة.

ثم اختتمت

لا تحدثني عن الحضارة فالجوع حين يزور لا يترك خلفه بشراً، بل يترك مخلوقات  
تنقن الطهو...

كان صهصام يسمع حدثها، وهو في صدمة من أمره، يفكّر ويتعقد فيها يسمعه،  
كيف لرعيف خبز أن يحرك الإنسان ويحوله من مسام إلى مستذئب، حتى ولو لم  
يكن مصاباً؟ كيف للجوع أن يمحو ملامح الرحمة ويترك فقط أنياباً تهش كل شيء؟

تابعت ميساس حدثها بصوتها الهادئ:

الشدة المستنصرية؟ تلك كانت جزءاً فقط، ظلّ من ظلال ما عاشه البشر...  
هناك الكثير من الحوادث منذ بداية الخلية الى الان، جوع يجعل الأهمات يلتهمن  
أبناءهن، يجعل الناس يخرون قبور موتاهم، ويبعيون اللحم البشري على الأرصفة.  
لا تتعجب يا صحصام... أتم الآن تعيشون واحدة منها، لكنها أقسى، أعمق وأشد  
ظلمةً. ولا أعلم هل ستقاومون أم ستهلكون؟

سكن صوتها، لكن كلماتها ظلت تدور في رأسه ثم شعر بها لقد دخلت ميساس  
في داخله مرة أخرى.

أدبر رأسه نحو الريح، قبض على لجام غلته، وقال لنفسه بصوت بالكاد خرج من  
صدره...

لطالما كنت أحدث نفسي وأقول، أيتها الدنيا، أكنت دائماً هكذا، أم أتي لم  
أفهمك جيداً؟ هل أنت المسؤولة عن الأخطاء، أم أنك مجرد مرآة تعكس زلاتنا؟،  
تلعنِ حين نخسر، وتحملِ أوزار فشلنا، لكن الحقيقة التي نهرب منها أن الإنسان  
هو من يخطّ مصيره، ثم يتظاهر بالدهشة أمام نتائجه.

نبحث عن شماعة نعلق عليها خيباتنا، فنجعلكِ الجانية بينما الجاني الحقيقي يسكن في  
أعماقنا ريمًا لم تكوني أنتِ من أوجعنا... ريمًا نحن من أوجعنا أنسنا ثم بحثنا عن عذرٍ  
نختبع خلفه..

نظرت نائلة إلى صمّاص الذي كان بجوارهم منطلقاً بملته وهمست لصفيدير:

السيد صمّاص عاد يتحدث مع نفسه من جديد...

اللهي صفيدير نظرة جانبية نحوه:

هناك شيء في هذا لا أفهمه، هناك أمور معقدة حوله لم أجده لها تفسيراً، فعندما أتيينا إلى قرية آل سمعان، لم يكن هناك وشم على ذراعه، لكن بعد كل ما حدث، ظهر وشم الشعبان أيضاً كيف عرف قصة القرية، وقصة همان الذي اندهش من الرهاص ...

نظرت إليه نائلة باستغراب وقالت:

وماذا يعني ذلك؟

هز كتفيه قائلاً:

لا أعلم، لكنني أعرف شيئاً واحداً... صمّاص لم يفقد عقله.

ضيقت نائلة عينيها وقالت:

تقصد أنه يكلم أحداً لا نراه؟

نظر للأمام بصمت للحظة ثم قال:

لما لا؟

(نائلة)

اسأله.

(صفيدر)

ليس الآن لا ييدو أنه يحب الحديث عن هذا الأمر.

(نائلة)

نعم، لقد لاحظت ذلك...

ابتسم قليلا ثم قال:

وماذا عنك؟ هل تجدين الحديث؟

سألته بستنكار:

عن ماذا؟

لا أعلم لكننا سنسير طوال الليل، ألا تريدين أن تعرفي و أعرفك أكثر؟

قالت بتردد صاحبة شك:

لماذا؟

أخذ صفيدر نفسا عميقا وقال:

لا يوجد لدى إجابة، لكنني أريد ذلك فقط.

قالت بدهاء:

لقد أخبرتكم كثيراً عن حياتي، لماذا لا تخبرني أنت عن حياتك؟

الم أخبرك.

فعلت ولكنني اشعر ان هناك المزيد

ابتسم صفیدر وهو يمسك بلجام نملته ياحکام ثم قال:

أنت محققة في ذلك، لم أكن سوى طفل عادي، ابنا بالتبني لعائمة ليست غنية، ولكنها لم تكن فقيرة تماما.

قالت نائلة لمواساته:

أنا آسفة لهذا...

هز رأسه وقال في لوعة:

لا عليك، لا تأسفي.

ثم أكمل بعد برهة من الصمت:

والذي الذي تبني وجدني رضيًّا عندما قاد غارة للبحث عن المؤن. كنت الوحيدة الذي نجا من عائلتي الحقيقية، قالوا إن الجميع إما قُتلوا أو تحولوا...

قالت في حيرة:

لكن ألم تخبرني أنك رأيت والدك وهو يُلتهم من قبل المصابين، وأن والدتك ماتت وأنت صغير؟

ابتسم صفيرًا وفي عينيه بحر من الدموع يمنعها سداً من القوة وقال:

وهذا ما يعرفه الناس عنِّي، لكنني الآن أريد أن أخبرك بما لا يعرفه أحد، كنت أتحدث وقتها عن والدي بالتبني، وليس والدي الحقيقين فأنَا لم أعرفهم، ولم أرهم في حياتي.

تأملته نائلاً بصمت، بينما تابع قائلًا:

لكن من تبئوني، أظن أنهم يستحقون بحق أن أقول عنهم أمي وأمي. لقد رَبَّاني كابنها، أعطِيَاني اسمًا ومنزلاً، لم أشعر يومًا أني غريب عنْها... لكن الحياة لم ترجمني.

خفض صوته قليلاً ثم قال:

أمِي بالتبني كانت سيدة طيبة، وكانت تخذل لي الخبز الحلو كلما عدث من التدريب أما أمِي؟ كان رجلاً قوياً، صامتاً لكنه علمني كل شيء عن الحياة، عن القتال، عن النجاة، كانا عالِي بِأكمله، لكنني لم أستطع إنقاذهما...

قالت نائلة بأسى:

لابد أن ذلك كان صعباً عليك...

أطلق ضحكة جافة وقال:

الصعب ليس فقدانها، بل العيش بعدهما. كنت أعتقد أنتي سأحزن عليهما، لكن الأمر تجاوز الحزن أصبح فراغاً، جرحاً لا يلتئم كنت أشعر أنتي أعيش جسداً بلا روح، حتى نسيت كيف يبدو الدفء.

ثم أدار رأسه قليلاً لينظر إليها وهو يقول بصوت خافت:

لكن عندما رأيتني وسط النار شعرت أنتي استعدت شيئاً افتقدته منذ وقت بعيد.

وما هو؟

شعر أن هذا السؤال قد يأخذه إلى مكان لا يريد الذهاب إليه الآن، فحاول التملص قائلاً بابتسمة مأكورة:

وأنتِ؟ هل لديكِ سر تريدين إخباري به؟ لقد أخبرتكِ بسرّي، حان دوركِ.

ضحكت ، ضحكة خفيفة لكنها مليئة بالسخرية، ثم قالت:

لأنك مغفل.

نظر إليها باندهاش:

ماذا؟

ازدادت ضحكتها، حتى ظهرت أسنانها بوضوح ، ثم رفعت حاجبيها وقالت:

أمزح معك.

ابتسم هو الآخر:

لم أكن أعلم أن ضحكتك ستكون بهذا الجمال.

(فائدة)

ولم أكن أعلم أنك بارع في الغزل.

ثم أردفت بصوت خافض:

لكنني أملك سرًا صغيرًا، هل تريدين أن تعلم ما هو.

نعم أكثر مما تتوقعني.

سرى هو أنّ لدى إصبع مبتور.

رفعت يدها أمامه، بينما كان يمسك بلجام الفلة يحاكم ليرفع على توازنهما ألقى نظرة سريعة عليها، ثم قال ببساطة:

لا أرى أي إصبع مفقود الخمس اصبع في أماكنهم.

ابتسمت بـكـرـ، ثم حركـتـ أحدـ أصـابـعـهاـ، فـاتـتـعـ منـ مـكانـهـ لـلحـظـةـ، قـبـلـ أنـ تـعيـدـهـ  
مـحدـداـ:

لأن هذا إصبع مزيف، رأيت؟

شعر بقى شعيره خفيفه تمر في جسده، ثم قال متددداً:

نعم لكن ماذا حدث؟

أظلمت ملامحها للحظة، ثم قالت بصوت خالي من أي تعبير:

لا شيء، كنت أحب شخصاً وخدعني.

ظل صامتاً، بينما تابعت كلامها بصوت أكثر بروداً:

كنت أظن أتي ساعيش معه باقي عمري، لكنه جعلني أُكره كلمة الحب وكل ما يتعلق بها.

تقلصت ملامح صفيير قليلاً، ثم قال بحذر:

ماذا فعل؟

تهجدت بغصة وقالت:

— لم يكن يحبني، بل أحب جسدي، خدعني بكلماته المعاولة، حتى أنه حاول أن يعتدي عليّ، لكنني هربت منه بأجوبته كان في داخلي شعور لا يتحمله أحد... أن من تشعر معه بالأمان هو الشخص الذي يجب أن تخدر منه.

وحيي كان ينزعف، فعندما رفضت، ضربني بكل الطرق الممكنة وبعد وقت قصير من الفراق بينما عاد إليّ وكان شيئاً لم يكن وكانتي مجرد شيء يحق له امتلاكه.

قال بفضول يمتحن بغضبه:

وماذا فعلت؟

قالت بعدم مبالاة... :

لم أفعل شيئاً... لقد قتله فقط . تعلم لقد أعطيته موعداً وانتظرت حتى جاء، جلست معه وتحديثنا، ثم في اللحظة المناسبة، أخرجت الخنجر وشقت صدره.

ارتعشت شفاتها، لكنها لم تتوقف عن الحديث:

كان يصرخ وأنا كنت أصرخ أكثر منه أخرجت قلبه بيدي، ثم وضعته تحت قدمي ورحت أدوس عليه كما داس على ثقتي.

سكتت لفم يكن هناك سوى صوت النمل الذي يركض بسرعة في عمق السكون.

ثم رفعت يدها مجدداً، وأشارت إلى إصبعها المبتور، قائلة بصوت أ Javier:

ثم في لحظة غضب قطعت إصبعي لكي أذّكّر نفسي كلما خرق قلبي لأحد، أن الحب لا وجود له في هذا الزمن.

ظل صفيدير يقود النملة ولم يقل شيئاً لكن قبضته على اللجام اشتدت قليلاً، وكان الكلمات التي سمعها أنقذت قلبه، دون أن يدرى لماذا، او انه يدرى ولكنه ينكر ذلك.

أخذ نفساً عميقاً ثم رجع للحديث معها:

أنت قوية، أقوى مما توقعت.

ضحكـت ضحـكة صـغـيرة، لـكـهـا لم تـصلـ لـعـينـيهـاـ:

لـسـتـ قـوـيةـ، أـنـاـ فـقـطـ لـمـ أـعـدـ أـمـلـكـ رـفـاهـيـةـ أـنـ أـكـونـ ضـعـيفـةـ.

(صمـاصـامـ)

الـشـعـورـ الـذـيـ لـمـ أـسـطـعـ فـهـمـهـ تـجـاهـكـ، اـتـضـحـ الـآنـ.

نظرـتـ إـلـيـهـ نـائـةـ بـأـرـبـاكـ ثـمـ سـأـلـتـهـ:

وـمـاـ هـوـ؟

الـلـفـتـ بـنـصـفـ رـأـسـهـ وـقـالـ بـبـسـاطـةـ، وـكـأنـهـ يـلـقـيـ بـحملـ ثـقـيلـ عـنـ كـثـفـيـهـ:

أـنـاـ أـحـبـكـ.

تمدت للحظة، ثم حدقت فيه بصدمة قبل أن ترفع حاجبها بسخرية:  
— هل أنت أحق؟ أخبرك بكل ما مررت به، وأني لا أثق بالحب، ثم تأتي لتقول لي هذا؟

تهد صفيدير وكان صراغاً داخلياً يزقه، ثم قال:  
— حاولت أن أمنع نفسي... حاولت ألا أقولها، لكن هناك شيء بداخلي، شيء لا أستطيع كبحه، يدفعني لأن أبوح لك بها.

(نائلة ببرود)

— وأنا لا أحبك.

كلمته كانت كطعنة جعلته يدبر وجهه للأمام موجهاً النملة بخفة وكأنها الشيء الوحيد الذي يمكنه التحكم به الآن.

اقتربت منه أكثر حتى كادت أن تلتقطه به ثم همست في أذنه بصوت بالكاد سمع  
وسط هدير الرياح:  
— ولكنني لا أكرهك...

التفت إليها بتعجب

فأردفت: وهذا يعطيك فرصة.

لم يستطع منع ابتسامته التي لم يشعر بها منذ وقت طويل، وكأنها خرجت من أعماقه دون إذنه.

ثم بحركة مفاجئة، ضغطت نائلة على جانب النملة بقبضتها، فأسرعت أكثر، تاركة الريح تلعب بخصلات شعرها.

---

### ((الفصل العشرون: فرق الكستناء))

مع انبلاح أول خيوط الفجر الرمادي ، اقترب الجميع من أسوار قبيلة النار فتوقفت النحال متأملين المشهد الذي يتجلى أمامهم، كانت الجدران العالية التي تحيط بالقبيلة قائمة وموصلة.

أعلن صمّاص:

ـ ها نحن قد وصلنا إلى قبيلة النار.

(صفيدر)

ـ كيف تمكنت من الهروب بوجود كل هذا ؟ عندما استنجدت المعلومات من أحد تجار سوق عوصان بقرية المنبوذين وأخبرني أنه قد سمع أنك هربت دهشت حينها، ولكن لم أكن أتصور أن الأسوار بهذا الحجم ولا سيما الحراسة .

(صمّاص)

أي قرية؟

(صفيدر)

— قام جلمود بطرد جميع الفقراء والمرضى الذين لا يساهمون في إنتاج وعيش قبيلة النار خارج المدينة وهم الآن فوق قم جبال الدوس، قريباً من هنا لقد انشأوا قريتهم الخاصة بهم تسمى قرية المنبودين ولكن أود أن أعرف كيف تمكنت من الهروب.

(صمصام)

— يوجد سجن ضخم محصن بالقرب من منزل جلمود تقربياً في المنتصف ، فمساحة السجن استولت على نصف مساحة قبيلة النار من الجهة الخلفية سور السجن الذي يعد جزءاً من سور المدينة. تمكنت من الهروب بطريقتي ، لكنني لا أرغب في التطرق إلى ذلك ، فالسجن يقع بعيداً عن هنا ، حيث يحتفظ جلمود بالسجيناء المهمين وأيضاً بالأشخاص الذين يرغب في إبعادهم عن الأنطارات.

(صفيدر)

— نعم لقد أخبرني التاجر بشيء من هذا والآن؟ كيف سندخل و لا تقل لي أنك لم تفك في ذلك!

صمت صمصام لبرهة قبل أن يرد:

لا أعلم.

اتسعت عينا بدر، وضرب بقبضة يده على سرح نملته:

ـ هل تمرح؟! جئنا كل هذه المسافة دون خطة؟!

لم يتحرك صمماً أو يظهر عليه أي افعال، فقط قال :

ـ هدفي الوحيد هو إنقاد سمراء والخطة آخر ما يشغل تفكيري.

ضحك بدر باستهزاء

ـ عظيم سندخل القبيلة، ونواجه حوتا لا يُهزم، بجيشه، وسنكتشف الخطأ ونحن  
نحوت؟ عبقرية لا مثيل لها!

رفع سمعان يده بإشارة هادئة، مما جعل الجميع يلتفتون إليه، فهم بدر ما يريد قوله  
فقال:

ـ يقول لكم الحلول تولد من المواقف، تماماً كما يولد النور من الظلام، إن خطلت  
كل شيء، فقدت القدرة على المفاجأة وإن وقفت بكل شيء، جعلوا منك  
المفاجأة.

انتهى بدر من ترجمة ثم اردف:

ـ جميل كلمات حكمة لكنها لن تفتح لنا بوابة القبيلة، ثم إن كنت حكماً هكذا فلماذا  
لم تستخدم حكمتك في شعبك.

قال صمّاص رافعاً سبابته في تعبير عن الغضب:

ـ اصمت ولا تتحدث حتى تنتهي المهمة فهمت.

خض بدر رأسه قليلاً وأجاب:

ـ أمرك سيدى.

سادت لحظة صمت قبل أن يهز صمّاص رأسه ويقول:

ـ أحتاج لحظة بمفردي...

قاد غلتة بعيداً حتى صار بين الصخور، ثم تمت بصوت منخفض:

ـ ميساس، أحتاج إليك.

انبثقت ميساس من داخله ثم قالت بابتسامة غامضة:

ـ أنت دائماً تحتاج إلىي، لكنك لا تعترف بذلك.

(صمّاص)

ـ الوقت ليس مناسباً للمزاح، أريد طريقاً للدخول.

ميّلت رأسها وكأنها تستعرض أفكارها، ثم نطق قائلةً :

ـ هناك نفق قديم، صنعه قائد القبيلة السابق كطريق سري للهروب لكنه الآن منسي، حتى الحوت جلمود لا يعلم عنه شيئاً.

أدام صهصام نظره إليها بتركيز وسأل:

ـ وأين هذا النفق؟

وأشارت إلى الجبل القريب وقالت:

ـ عند سفحه، ستجد شجرة كستناء قديمة، جذورها تتدلى إلى باب النفق.

ظل ينظر إليها لثوانٍ قبل أن يقول:

ـ حسناً لنبدأ اللعبة.

عاد إلى رفاته وقد ارتسمت على وجهه ملامح التفاؤل:

ـ تعالوا خلفي.

تبادل فارس وبدر نظرات متوجسة قبل أن يسأل الأول ببريةة:

ـ إلى أين؟

لم يلتفت صهصام، بل استمر في السير وهو يرد باقتضاب:

ـ ثقوا بي فحسب.

كانوا يتفحصون المسار المؤدي عبر التضاريس البركانية الوعرة، حتى وصلوا إلى السفح الغربي للجبل. هناك بين الصخور السوداء المتفحمة، كانت تقف شجرة كستناء عتيقة، تجدّرت عمّا في الأرض

اقترب صهاصام من الجذع، تحسّس أخاديده، ثم ركع عند قاعدة الشجرة، وأخذ يحفر في التربة الرملية بأصابعه:  
 هنا يوجد مدخل تختنا.

جثا صفيدير بجواره، وأخذ يراقب حركاته المرتبكة وسأله بنبرة متوجسة:  
 هل أنت واثق مما تفعل؟

رفع رأسه ونظر إليه بعينين يشتعل فيها العزم:

لا تُضيّع الوقت بالسؤال ثم التفت إلى البقية واردف:  
 فليحفر الجميع.

لم يكن هناك متسعاً للجدل، انحنى الجميع إلى الأرض، راحوا يحفرون بأيديهم،  
 يزيحون الرمل والصخور الصغيرة حتى ظهرت بوابة معدنية قديمة تأكلت أطرافها  
 بالصدأ، تنحدر عبرها درجات حديدية تفضي إلى عتمة سحيقة، رفع سمعان يده فجأة  
 ثم ترجم بدر إشاراته بصوت خافت:

النمل لن يمكن من العبور فذلك المدخل ضيق لذا علينا المتابعة سيراً على الأقدام، والنمل سيقى هنا.

أو ما الجميع بالموافقة، لكن صفیدر التفت فجأة نحو نائلة وقال بصرامة:  
وأنـتـ... لن تأتي معنا.

حدقت فيه بدهشة، بعدها عقدت حاجبيها قائلةً باستنكار:

هل فقدت عقلك؟ بالطبع سأدخل!

لم يغير نبرة صوته، ظل ثابتاً وهو يكرر:

لا لقد وافقت على مجيئك معنا لأنك ستنتظرين خارج القبيلة.

(نائنة)

لقد وافقت على ذلك في البداية، لكنني غيرت رأيي، لن تمنعني!

قبض على ذراعها بحزم وعيناه اشتعلتا بالغضب والقلق، بينما صوته ارتجف بافعال نادر:

نائلة هذه ليست مزحة نحن ذاهبون إلى عرين النثاب حيث قد لا نعود أبداً،  
أفهم أنك قوية، لكنني لا أستطيع تحمل فكرة خسارتك.

رمقته بنظرة طويلة، كان وجهه متوتراً، ليس بسبب الغضب بل الخوف، لم تعتد رؤيتها ضعيفاً لكنه الآن بدا وكأنه يكافح للحفاظ على تمسكه:

أرجوكِ ابقي هنا وإن لم نعد، خذني إحدى النلات واتجهي غرباً حتى تصلي إلى قبيلة الماء.

حركت شفتيها وكأنها ستعترض، لكنها توقفت نظرت إليه نظرة مليئة بالمشاعر المختلطة ثم همست:

لا تدع أحداً يقتلوك لأنك إن مت سأجده جثتك وأقتلك مجدداً.

ابتسم رغم كل شيء، تلك الابتسامة التي تشي بأنه قد فهمها أكثر مما تفهم نفسها، ثم رد بهدوء:

سأعود إليك... أعدك.

(فائلة)

ما زلت أكرهك ..

(صفيدر)

وانا لازلت احبك.

باغتهم صمصام بصوت صارم:

كفى حديثاً فلا وقت لهذا.

تردد صفير للحظة، ثم أفلت يدها بلطاف استدار دون أن ينظر خلفه، تبعه الآخرون، أشعلا المشاعل وانزلقوا واحداً تلو الآخر إلى النفق تاركين خلفهم الفجر يتسلل بيضاء فوق قمة الجبل...

صمام كان يحترق من الداخل تراوده هوا جس سمعية وبصرية، يرى سراء وكأنها واقفة أمامه، تمد يديها نحوه وتتوسل ((أخرجني من هنا)) كلما ازداد هذا الشعور بداخله، كلما دفعه إلى الإسراع بكل طاقتة، غير عابئ بالخطر أو الألم، ولا يعلم أنها ليست موجودة في قبيلة النار حتى إليها لا يعلم أين هي، هو جاء لإنقاذ شخص ليس موجود في ذلك المكان فلقد كان ينبعها نقيل في كهف سري خارج القبيلة في هذا الكهف استفاقت سراء على يد خشنة تتحسس وجهها، ترتجه خصلات شعرها المتبدلة على عينيها النعستين، شعرت بقشعريرة تسري في جسدها قبل أن تتضخم الرؤية أمامها... كان نقيل يقف هناك، عيناه تتلاآن بشّر مكبوت.

صرخت في وجهه، وحاولت التحرك، لكنها سرعان ما أدركت أن معصمها وقدميه مكبلة، وجسدها محاصر داخل مكان مظلم لم تستطع التعرف عليه.

ابتسم نقيل بخبيث، بينما صوته يقتصر سخرية وهو يقول:

أخيراً .... الأميرة الصغيرة مكبلة أمامي.

ارتجف جسدها وزحفت إلى الخلف، لكن المدран الحجرية والأغلال التي تقيدها جعلت الهروب مستحيلاً، مد يده واحد قناعها فصاحت، تحاول التثبت بأي أمل:

ابعد عنِّي، أخرجوني من هنا.

نظر إليها بضرة تعاطف مصطنع يشوهها خبث عميق:

مسكينة لن يسمعك أحد فنحن بعيدون عن القبيلة بأميال.. رفع جناحيه مشيراً للمكان حوله ثم تابع

مرحبا بك في كهفي الخاص.

اقرب أكثر حتى شعرت بأنفاسه الباردة ترتفع على بشرتها ثم انحنى بجانبها، وهمس كأنه يسكب السم في أذنيها:

لا تقلقي لن أكلك فقط أريدك أن ترى عهدي الجديد... أريدك أن تشهدني موت الحوت الأحمر أمام عينيك.

تسارعت أنفاسها وارتجف جسدها حاولت الصراخ، لكن الخوف كان يخنق صوتها. انهمرت دموعها بلا توقف حتى صرخت أخيراً بصوت مت汐ش:

أنت وحش.. كيف تفعل هذا؟

ضحك، ضحكة مجنونة تردد صداها في الكهف، قبل أن يرفع ذقnya بقسوة، يجبرها على مواجهته، على الغرق في سواد عينيه الحاذتين:

وحش؟ بل الوحش الحقيقي هو والدك جلمود الذي قتل أبي خلدون أخيه.

من صدمتها كان عقلها يرفض تصديق ما قاله نفيل، لكن السؤال تسلل إلى ذهنها رغم أنها يعصف بها يطالب بإجابة كانت تخشاها تلعمت شفتها وكأنها تعصي السؤال دون أن تجرؤ على سماع جوابه:

أبي... هو من قتل عمي؟ لا... لا يمكن... أنت تكذب! أبي لن يفعل ذلك أبداً!

أطلق نفيل ضحكة قاسية، ثم دفع رأسها بقسوة، فسقطت على الأرض، تأوت من الألم، لكنه لم يكتثر بل نظر إليها باحتقار وقال:

أوه، كم أنت بريئة... جلمود ليس كما تظنين لقد كان حقوّاً منذ صغره أتدرّين لماذا؟ لأن القصة بدأت قبل ولادته بسنوات... جدي عشنار أحّب جدتك عتيبة، وتروّجها رغم معارضته الجميع، وأنجبا منها جلمود، لكن القدر لم يكن رحيمها عتيبة ماتت أثناء ولادته.

هل تعلمين من كانت هناك؟ من رأت كل شيء؟ جدي زهيرة.

كانت زوجة عشنار الأولى، المرأة التي أهملها لأجل عتيبة، ورغم ذلك أخذت جلمود وريته كأنه ابنها لم تفرق بينه وبين ابنها الحقيقي، أحببت زهيرة ابن زوجها

أطعمنه، احتضنته، كانت له الأم التي لم يحظ بها لكرها لم تكن تعلم أنها تربى قاتل  
ابنها بيديها.

صمت لحظة ثم ازداد صوته مرارة:

كانت تعامله كأنه الوحيد حتى إنها كانت تقول إنه يتيم بحاجة إلى الحنان، بينما  
أبي... ترك دون رعاية، دون اهتمام، كان يرى كل شيء، يرى كيف يفضل عليه ابن  
المرأة التي كرهتها أمه حتى الموت.

وهكذا نشأ والدك يحمل في داخله ديناً قدّيماً، ديناً لم يغفره أبداً وحين كبر سدده  
بدم أخيه ابن المرأة التي ربيه.

زادت رجفة سمراء تحاول إنكار ما تسمعه كأن رفضها للواقع قد يغيره:  
لا... هذا كذب... أبي لم يكن ليسفك دم أخيه.

(نقيل)

كذب؟ هل تعتقدين أنتي اختلقت ذلك؟ جلمود قتل خلون... قتل أخيه...  
ليس انتقاماً ليس دفاعاً عن النفس... بل فقط ليحكم قبيلة النار وحين علم عشنار  
بما حدث... لم يعاقبه بل كرمه وجعله زعيماً للقبيلة.

حاولت الإفلات من الأغلال وهي تتم:

- كاذب.

رفع يده وصفعها بقوة جعلت رأسها يصطدم بالأرض الصلبة، رنين الألم تردد داخل ججمتها شهقت وهي تحاول استعادة أنفاسها:

كاذب جلمود هو الكاذب الحقيقي، وحين حاولت جدي زهيرة الانتقام منه، عشنار أخذ الخوف والعار فسجنتها في قرية معزولة داخل غابة نيمورا، حيث لا ضوء ولا خلاص والآن جاء دوري لأخذ حقي وحقها وحق أبي التي ماتت بكاء على أبي.

(سمراء)

ـ زهيرة ليست مسجونة انت تهدى.

(فيل)

ـ هذا ما لا يعلم به احد حتى جلمود لقد كان اتفاق جدي عشنار مع العemma لا يكشف سر سجنها لأحد حتى هي لم تستطع ان تبوح بذلك لكي لا يقتلها الحوت إن علم انها كانت تحاول قتله ولهذا هي مسجونة.

تسلى ظل ثقيل إلى داخل الكهف حركات بطيئة تلاها خشخشة ناعمة ثم صوت امرأة مدلل مشحون بجنون:

ـ أوه... كم أحب المجتمعات العائلية.

قالتها باستهزاء بينما كانت تحمل شيئاً لم تدرك سمراء في البداية ما هو، اقتربت المرأة ورفعت يدها كاشفة عن الذي تحمله، كانت تبتسم وعيناها يظلانها نشوة مرعبة.

تسمرت عين سمراء حين أدركت ما كانت تحمله تلك المتوحشة إنها ذراع بشريه ما زالت مغطاة بالدماء.

مدتها نحو ثقيل وكأنها تقدم له هدية فأخذتها منها بلا تردد، وقضى منها قضمه بوحشية ففسر لها ذلك قول ثقيل لن أكلك الآن ، لقد كان كلامه حقيقي وليس مجازي.

ثم بلا مبالغة مدد ما تبقى نحو المرأة التي أخذت قضمه وهي تصاحك بجنون.

عينا سمراء اتسعتا بالرعب أمعاوهها انقلبت ، معدتها تلوّت كأنها تريد لفظ كل ما في داخلها.

تدني ثقيل من سمراء مره أخرى ثم لاح بيده، بعدها مسح الدماء عن فمه بظهر كنه هامسا:

ـ هذه مجرد بداية سأقتلك ببطء سأجعلك تمنين الموت لكنني لن أمنحك هذه الرحمة... ليس قبل أن أرى وجه جلمود وهو يبكي كالطفل، تماماً كما أبكاني وكما أخذ مني حقي.

ابتعد عنها واتجه نحو زاوية مظلمة ثم مدّ يده وأمسك بقططه ثقيل من القماش الملاطخ بالدماء، وما إن أزاحه حتى كشف عن كابوس لم يكن حتى في أسوأ خيالات سرير، لقد ظهر القفص الصدئ الذي يخفي بداخله المتحولون، مشهد جعل الهواء يتجمد في حلقها حيث لم تكن ميتة تماماً كانت تتحرك بطريقة غير طبيعية، تتلوى كأنها تتذبذب عيونها غارقة في الظلام، فاغرة أفواهها كما لو كانت تصرخ دون صوت. البعض كان يزحف بأطراف مكسورة، والبعض الآخر يجر نفسه كدمى مكسورة، بينما تصاعدت أصوات أنينهم، تخترق المكان كخناجر تحفر نفسها في عقلها، في أعصابها، في روحها.

ضحك ثقيل بهستيرية وفتح ذراعيه كأنه يعانق المشهد المروع، عيناه تشعلان بجنون طاغٍ، ثم قال بصوت يملؤ الكربلاء والعظمة الزائفة:

— الجميع يهابون المصاين... يعتقدون أن الموت نهاية كل شيء لكنني سرت هذا القانون فلم أعد أخشى الموت... بل سيخدموني لقد أصبحت ملك الأموات للأحياء... وأصبحت ملك القبائل جميعها.

انحنى قرها براقب رعيها بعينين متلذذتين ثم همس بازدراء:

— كنتِ تظننين أنتي سأتزوجك؟ هه ظننتِ حقاً أنتي أحببتك يوماً؟ يا لك من ساذجة... أنا لا أحبك بل أكرهك كرهتك كما والدك وكما كرهت أمك.

توقف قليلاً ثم تابع بنغمة قاتلة من السخرية:

أوه، هل نسيتِ أنتي لم أخبرك؟ جلمود قتل جدك أرمغان... اذا ارى انه يستحق ذلك، فقد ساعده ليصبح الحوت وأعطاه القوة التي لم يكن يستحقها بل وأكثر من ذلك اعترني به بعد ذهاب عشنار وزهيره إلى نيورا ولهذا... جدي زهيره كانت لطيفة بما يكفي لتخبر أمك الحقيقة... والآن أمك الغبية ذهبت لمواجهته... لكنها لن تستطيع هزيمته... سيفقتلها بلا شك.

(سمراء)

ـ كفاك خداع زهيره ما ذالت في نيورا.

(قيل)

ارسلت وحoshi وقد دمروا نيورا فاستطاعت زهيره الهرب من العمدة بعد أن قُتل.

كل شيء حولها انهار في لحظه والدها... جدها... والستها... كل شيء تأكل كالحطب في نار الحقيقة المشتعلة.

ضحك وهو ينقض عليها بأصابعه القاسية التي أمسكت بوجهها، وأجبرها على النظر إلى تلك الجثث المتعفنة حاولت أن تغلق عينيها، لكنه ضغط على فكها بقوة، جعلها ترى كل شيء، جعلها تواجه كابوسها دون مهرب:

ـ ستشاهدين كل شيء... ستشاهدين العالم ينهر من حولك... قبل أن أتركهم  
ينهشون لحمك قطعة... قطعة.

---

## ((الفصل الواحد والعشرون: في بيت الأعداء))

(حين تنسج المكائد في الخفاء لا تكون غايتها الفعل بل الانتظار، فالمكيدة ليست ضربة بل فكرة تغرس وتنمو في العقول قبل أن تظهر في الواقع، فهل من سائلٍ يحرّك أن يستفسر وسط ضباب الشك، وهل صمّاص سيدرك أن زهيرة ليست كما تبدو، وهل سينفر من مكيدتها، أم أن الهروب من الفخ هو بداية السقوط فيه؟) عند حافة النفق ظل الصمت ككيف لا هو من جنس الخوف ولا من طمأنينة الوصول... بل كأن الوقت نفسه يتربّص قرائماً لم ينطق بعد، تبادلوا النظرات لا أحد بادر بالحديث حتى انكسر الجمود بصوت صمّاص:

ـ هذا هو المخرج.

رفع رأسه إلى السلم الحديدي المتوجه للأعلى تأمله دون استعجال:  
ـ لن نخرج جميعاً لأننا إن تحركنا دفعة واحدة، سينفضح أمرنا. قالوها دون رجاء أو تشاور.

(صفير)

— ما الذي تخطط له؟

رفع صهصام شعلة لهبها انعكس على ملاعنه ثم نزح كامته حتى يفهم الجميع ماذا يقول:

— سأخرج أنا وانت ببحث عن سمراء

(صفير)

— والباقي؟

(صهصام)

— سيظلون هنا.

اعترض سمعان ملوحاً فأداروا له وجوههم فبادر بدر:

— يقول إنه قادر على الإحساس بالاهتزازات ، فيستطيع توجيهكم دون أن يهمس أحد.

صهصام خطأ نحوه، وضع يده على كتفه وقال.

— ممن لك...

لكن سمعان أشار مجدداً، بلهجة لا تحتمل الجاملة اظهرها بدر:

لا وقت للامتنان، تحرّكوا.

استدار صهصام للحقيقة:

ثلاثتنا سنخرج ببحث عن سمراء، إن لم نعد خلال أربع ساعات، لا تنتظروا  
وقد شوّا علينا في كل مكان....

لم يسألهم إن كانوا موافقين أو معارضين نظروا لبعضهم ثم أومأوا خاضعين.

كان السلم يئن تحت اقدام سمعان لكنه مضى خطوة بعد أخرى حتى وصل السطح  
هناك توقف بعدها مد راحته على غطاء النفق، يتحسس الذبذبات، كان الأرض  
تبوح له بحضور الآخر، بعد فتره قصيرة أشار لهم بالصعود.

خرجوا تباعاً حتى وجدوا أنفسهم داخل غرفة من زمن آخر. الجدران نقشرها  
الرطوبة، والأثاث محترئ حد الأتلاف كأن المكان تنفس الغياب لعقود كانت تلك  
الغرفة لا يوجد فيها باب أو حتى ثقب يدخل الهواء .

دارت عين صهصام في الغرفة يبحث عن مخرج حتى وقعت عيناه على صورة عتيقة  
غطى الغبار ملامحها، اقترب منها ومسحها بكفه وفي اللحظة التي انكشفت فيها  
الملامح همس:

هذا هو عشناز الحوت الأحمر، لقد رأيته في صغرى ومن يومها ولم أنس  
لامحه.

صفيدر اقترب أيضاً يحدق في الصورة هو الآخر :

— نعم نحن في بيته.

سمعان جلس أرضاً بينما كانت أنامله تمشط البلاط بتركيز عميق، فجأة أشار نحو الحائط .

(صفيدر)

— ما الذي يشير إليه؟

أجاب صممام، بعد أن تبادل نظرة سريعة مع سمعان:

— هناك باب مخفي.

اقترب ووضع يده على الجدار في المكان المشار اليه من قبل سمعان، بدا في بداية الأمر صلباً حتى شعر بحافة بالكاد ثم لمس جذبها حينها استجاب الجدار وافتتح.

كُتُت أصواتهم متباين نظرات حذرة ثم دخلوا بعدها.

في المر الجديد عليهم ساروا بخطوات ناعمة كأنهم يسيرون على قلوبهم وسمعان في المقدمة يضع يده على الحائط ولا يتزكي كأنه يسترشد بنبضه.

توقف مرة واحدة ورفع يده بإشارة خاطفة، فاختبأ الجميع في أول غرفة كانت أماهم.

مرّ حينها حارس يتأيل كسكران فقد الطريق إلى نفسه، خطواته مهزولة لكنه لا يزال خطراً يتنفس جبسوا أنفاسهم ولما مضى الحارس أشار سمعان بالخروج.

تحركوا بحذر مجدداً، لكن هذه المرة، بدأ سمعان يرفع أنفه قليلاً، يستنشق الهواء يبحث عن أثر غير مرئي، راح يحرك يده ويشير إليهم، محاولاً إيصال معنى ما ضيق صفير عينيه وقال بتساؤل:

ماذا يقول؟

(صمصام)

لا أعلم بدأت أفهم لغته لكنني لم أتفهمها بعد، لو أن بدر كان معنا.

نظر سمعان إليهم بامتعاض ثم رفع يده إلى شعره، وأخذ يشير بلمسات سريعة إلى خصلاته قبل أن يرسم بيديه ملامح جسد أنثوي.

(صمصام)

أتعني أنك تشم رائحة امرأة؟

أوماً برأسه مؤكداً.

سكنت ملامح صمصام وقلبه بدأ ينبض بقوّة:

وأين تلك المرأة؟ قد تكون سمراء.

أكمل التقدم أنامله ما زالت تتحسس الجدران، وعيناه مغمضتان نصف إغماضة،  
بعد لحظات توقف أمام باب خشبي مطلي بلون أحمر قاني، رفع يده وأشار إليهم  
بالدخول.

اراح صمصام يده على الباب ثم دفعه وبصوت بالكاد يخرج منه همس:  
سمراء، أين أنتِ يا سمراء؟

الغرفة كانت شبه مظلمة لا يوجد سوى ضوء خافت ينبعث من مصباح زيتى  
معلق في وسطها كان هناك كرسي خشبي يدور ببطء عليه جلست امرأة،  
ملامحها غير واضحة في البداية وعندما أكتمل دوران الكرسي...

تجمدت الدماء في عروق صمصام لأنها لم تكن الجدة زهيرة، جالسة  
بكل هدوء تنظر إليه بعينين لا تحملان أي دهشة كأنها كانت تنتظره .

الجدة زهيرة؟ قالها صمصام في حيرة فلم يتوقع أن تكون هنا.

انتصب من على الكرسي ثم احتضنته بحنان مصطنع قائلة:

نعم يا بي إ أنها أنا.

ظل جاماً للحقيقة قبل أن يبتعد عنها قليلاً وينظر إليها بشك:

كيف أتيت إلى هنا؟ ألم تترك في نيمورا، وقلت إنك لن تتركها ؟

(زهيرة)

أتيت لأصلاح ما فعلته سابقاً، جلست وحدي طويلاً، لكن ضميري لم يتركني وحيدة قلت لنفسي أنت من فعلت هذا يا زهيرة، أنت من أبعدت صمصام عن حبيبته، وأنت من فرقت حفيتك عن حبيبها ولم أجد في عقلي سوى فكرة واحدة، يجب أن أصلاح ما ارتكبته فجئت إلى هنا لأحاول تصحيح الأمور.

قاطعهما صفيدير بصوته الساخر وهو يعقد ذراعيه:

كيف حالك يا عجوز؟

نظرت إليه بإستياء ورفعت حاجبها:

لقد أتيت أنت أيضاً؟ ستأتي يوم أجعلك تندم على مناداتي بالعجز.

ضحك صفيدير قليلاً، ثم قال بذكر:

كنت أمنزح معك يا جدتي.

رمقته بنظرة جانبية، وتمكت ببررة شبه مسموعة:

وأنا أيضاً أمنزح، أو لعلّي لا أمنزح.

حولت نظرها إلى سمعان، الذي ظل صامتاً طوال الوقت وتأملته قليلاً قبل أن تسأله:

ومن هذا؟

(صمصام)

ـ إنه صديق تعرفنا عليه في طريقنا.

أرددت بترحيب مختلط بالحذر:

ـ أهلا بك.

اكتفى سمعان بإياءة احترام، فأخذت زهيرة تراقبه باستغراب قبل أن تسأل:

ـ لماذا لم يرد؟

(صفيدر)

ـ لأنه لا يتكلم يا جدة فهو أبكم وأصم.

أشارت برأسها بتفهم، ثم عادت إلى صمصام وسألته بجدية:

ـ لماذا كنتم تفكرون؟ وكيف دخلتم إلى هنا أصلاً؟

(صمصام)

ـ وجدنا نفقاً بالصدفة.

(زهيرة)

نفق أى نفق ؟؟

(صمصام)

— هو نفق صنعه الحوت السابق عشنار ليكون ملادًّا له في حالة الحرب أو الهجوم، كيف لم تعرفي بوجوده وأنت زوجته، يا جدة؟  
ارتبتكت من هذا السؤال، ثم تنهضت بتوتر وأجابت:  
عشnar كان لديه أسراره الخاصة.

حاولت أن تبدل الموضوع سريعاً، فسألتهم:  
لم تخبروني بعد، ماذا تخططون لفعله؟

(صمصام)

سنجد سمراء، ثم نهرب من النفق الذي أتينا منه.  
لمعت عينا زهيرة بخث وارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة قبل أن تهمس بصوت ناعم:  
أجل إنها خطة ذكية اشارت لهم تعالوا معي سأدخلكم غرفة سمراء.

تحرك الثلاثة خلفها بلا تردد، تسيرهم ثقة زائدة بها غير مدركون إلى أين يقودهم الطريق أما هي فكان ذهنهما يغوص في حسابات معقدة، عليها أن تتخلص منهم قبل أن يلمحهم جلמוד، وإلا فإن خطتها ستنهار وينفضح أمرها بالكامل.

مثلت أنها ترى خيالات تقترب فأشارت لهم بسرعة فاختفوا داخل غرفة من الغرف اقفلوا الباب ثم تبادلوا النظرات بقلق وخوف مررت الدقائق حتى افتح الباب قبض صمام على سيفه حتى اتضح أن زهيرة من فتحت الباب:

ـ هيأاً مكروا السير خلفي.

مشوا وراءها حتى بااغتهم ضربات قوية فوق رؤوسهم أفقدتهم الوعي على الفور.

---

على بعد أمتار كانت راجحة في حجرها تتعدد إلى جلמוד، وقفت أمام المرأة تتنين، تمرر أصابعها في شعرها وتبتسم لنفسها.

ثم اقتربت منه وهو مستلقٍ على السرير هامسة بدلال:

ـ لم نجتمع منذ وقتٍ طويل...

ابتسم جلמוד ابتسامة شابها الحذر وقال:

ـ ما الذي غيرك؟ لقد منعت نفسك عنِّي، وكنت تحلفين أنك لن تعودي إلى حتى تنتقمي لمقتل أرمغان فكيف تبدل رأيك الآن؟

ضحكـت بنعومة لكن شيئاً في عينها كان متصلـباً:

ـ سـمـثـ من مـلاـحةـ دـمـ أـيـيـ، فـلـقـدـ حـرـمـيـ الـحـبـ فـتـرـةـ طـوـيـةـ، ثـمـ إـنـيـ أـعـلـمـ منـ قـتـلـهـ، وـسـيـأـتـيـ الـوقـتـ الـذـيـ أـفـتـلـهـ فـيـهـ.

قطـبـ حاجـيـهـ وـقـالـ بـتوـرـ:

ـ ماـذـاـ تـقـصـدـيـنـ ؟ـ

أـجـابـتـ بـهـمـمـةـ:

ـ أـقـصـدـ ماـ اـخـبـرـتـنيـ بـهـ.... إـنـ مـنـ قـتـلـهـ مـقـرـعـونـ.

أـطـلـقـ نـفـسـاـ عـمـيقـاـ، كـأـنـ حـمـلـاـ ثـقـيلـاـ زـالـ عنـ صـدـرـهـ، وـقـتـمـ:

ـ أـجـلـ... أـجـلـ.

ادـنـتـ مـنـهـ لـتـقـبـلـهـ لـكـهـاـ تـرـاجـعـتـ فـجـأـةـ وـجـرـتـ فـيـ الغـرـفـةـ كـأـنـهاـ تـتـلـاعـبـ بـهـ نـهـضـ مـنـ سـرـيرـهـ وـرـكـضـ خـلـفـهـاـ، فـرـكـضـتـ مـنـهـ وـهـيـ تـضـحـكـ بـرـحـ طـفـوليـ، حـتـىـ أـمـسـكـ بـهـاـ أـخـيـراـ لـمـ يـصـبـرـ حـتـىـ عـاقـهـاـ بـحـرـارـةـ.

(رابـحةـ)

ـ ذـاكـ العـنـاقـ ؟ـ هـوـ نـفـسـ شـعـورـيـ حـيـنـ عـاـشـتـنـيـ لأـوـلـ مـرـةـ فـيـ يـوـمـ زـفـافـيـ.

(مـقـرـعـونـ بـجـنـينـ)

ـ حبي لكِ لم يحمد يوماً، ولذا تشعرين بنفس الإحساس.

(راجحة)

ـ حين قلت لي إنك تحبني لم أصدق، لطالما أحببتك لكنني كنت أخفي ذلك تحت قدمي، خوفاً على كرامتي حتى سمعت منك تلك الكلمات، شعرت حينها أنتي أولد من جديد، كنت أخمحك لأنفه الأسباب، وامتنعت عن الطعام في ذلك اليوم لأنني لم أعد أشعر بشيء إلا بك.

كان يشّم شعرها وهو يتّابع:

ـ ما تشعرين به لم يصل درجة حبي لكِ، أبي عشنار غضب مني حين أنجحت سمراء، لأنه أراد ذكرها بirth الحكم من نسله وليس من نسل أخي خلدون ، وأمرني أن أتزوج غيرك... لكنني رفضت، فقربلكِ يساوي ألف امرأة، وابنتي التي أنجبتها منكِ تساوي رجال العالم.

انا اعلم انتي السبب في اختفائها وليس انتِ، فأنا من كونت العدواط واعشلت الفتنة ، ولكن هكذا تربيت كن اقوى تعيش ويعيش شعبك ، سيطر ، دمر ، لا تحمل الضعف على اكتافك.

أمسك بذقنهما برقة، ففوجئ بالدموع تنساب على وجنتيهما:

ـ لماذا تبكي؟

قالت بصوت متهدج:

هذا لن يصفح لك.

(مقرعون)

ماذا تقصدين ؟ ؟ ؟ ؟

بهدوء أخرجت خنجرًا كانت تخفيه بين ثيابها لاحظه في اللحظة الأخيرة فاندفع ليمسك يدها، لكنها كانت أسرع رفعت الخنجر باتجاه صدره، فأمسك معصمها بشدة، ارتجف جسده، ارتباكت ملامحه، لم يكن مستعدًا لهذه اللحظة.

وفي لحظة فوضى... دفعها بعنف دون أن يقصد، وبين الاندفاع والتراجع، انزلق نصل الخنجر من يدها إلى بطئها ، شهقت وهي جسدها إلى الأرض.

حدق فيها جلמוד مذهولاً، وعيناه تملؤها الحسرة ، ركع إلى جوارها وضمّها إلى صدره، والدم يسيل من بين أصابعه:

راجحة... لا... لم أكن أريد...

ارتجف جسدها بين ذراعيه بينما صدرها يعلو ويهبط بأنفاس غير منتظمة . أمسك بيدها المرتخية، وطبع قبلة مرتجلة على أصابعها، ثم قال وهو يكاد لا يصدق:

راجحة كل شيء كان يمكن أن يُغفر، حتى هذا كنت سأغفره فقط لا ترحلني.

فتحت عينيها بصعوبة، تحدق فيه بنظرة موحشة:

أحبتك وكرهتك في اللحظة ذاتها، وإن كنت ستفخر أنا لا.

ابتسمت، ابتسامة واهنة كأنها تودع بها الدنيا، وأضافت:

لا تضيع ابني ارجعوا وعلمها ألا تثق بالرجال كما وثقت اهـا.

ثم غامت عيناهـا، وسقط رأسها على كتفه جالبا السكون.

جلس جلـمود في مكانه يختضـن الجسد الذي بدأ يبرد. وجهـه جـامـد لم يـرـمشـ وـتـوقـفـتـ انـفـاسـهـ وكـانـهـ يـحـاـوـلـ الصـراـخـ ولاـ يـسـتـطـيـعـ.

مرـتـ دقـائقـ أوـ رـبـعاـ سـاعـاتـ لاـ أحدـ يـعـلمـ نـهـضـ بـعـدـ هـاـ وـحملـهاـ بـيـنـ ذـرـاعـيهـ، وـسـارـ هـاـ إـلـىـ الـخـارـجـ.

كـانـتـ الـرـيحـ تـعـويـ بـالـخـارـجـ فـتـحـ بـابـ القـاعـةـ الـكـبـرىـ، ثـمـ اـسـتـدارـ إـلـىـ أـحـدـ الخـادـمـ وـقـالـ بـصـوتـ أـجـشـ:

جـهـرواـ القـبـرـ، سـيـدةـ هـذـاـ القـصـرـ سـتـرـحلـ الـلـيـلـةـ.

حـدـقـ الخـادـمـ فـيـ وجـهـ وـجـسـدـ رـابـحةـ ثـمـ اـشـارـ بـخـصـوـعـ.

لـكـنـ الـأـخـيرـ ظـلـ ثـابـتاـ فـيـ منـتـصـفـ القـاعـةـ بـيـنـ الـرـيحـ تـعـصـفـ بـالـأـبـوابـ وـالـنوـافـذـ،  
تصـرـخـ معـهـ دونـ أـنـ تـدـريـ.

نظر إلى الجسد بين ذراعيه، إلى العينين المنطقتين، إلى الفم الذي اعتاد أن يخاشه  
ويغفر لم يعد يحتمل لم يشعر حين بدأ يصرخ صرخاً لا يشبه الرجال، بل يشبه  
الأطفال حين يضيعون أمّهم في الزحام، صرخة واحدة، ثم صمت بعدها، لكن ذلك  
الصمت لم يكن راحة، بل اختناق.

تمم، بصوت انفلت من صدره كأن صدره قد انكسر:

قتلها جهنلي، وعدم غفرانها...

و قبل أن يفعل أي شيء، دلف أحد الحراس إليه يلهث من شدة الرعب، كأنما رأى  
الموت واقفاً على الأبواب:

سيدي الحوت.

(جلמוד بغضب)

ما بك يا أحمق؟ ألا تراي ما أنا فيه؟

ردّ الحارس بصوت مضطرب:

لكن الأمر جلل هناك جيش ضخم على أبواب السور يتقدمه الحوت الأزرق  
والأسود ماذا نفعل يا سيدي.

الترم جلمود الصمت ولم يرّد فقط أنزل عينيه نحو رابحة ثم ساراً كأنه لم يسمع شيئاً.

وَجَلَّ إِلَى جناحِهِ ثُمَّ وَضَعَهَا بِرْفَقٍ عَلَى سريرِهِ، كَمَا تَوَضَّعَ الْقَدِيسَةُ فِي ضَرِيجِهِ، قَبْلَ جَبِينِهِ، ثُمَّ جَلَسَ بِجوارِهِ وَبَكَى كَمَا لَمْ يَفْعُلْ فِي حَيَاتِهِ، تَشَهَّقُ وَتَشَتَّقُ لَوْرَاهُ أَحَدُ مَا صَدَّقَ أَنَّ هَذَا جَلَمُود... الَّذِي قِيلَ إِنْ قَلْبَهُ مِنْ حَجَرٍ.

اقْتَرَبَ مِنْ أَذْنَهَا كَأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهَا تَسْمَعُهُ:

انْتَظِرِينِي، لَنْ أَتَأْخُرَ عَلَيْكِ.

مسح دمعه بظاهر كفه واستدار بعدها، استدعى قائد جيشه عاشور، فدخل  
الأخير على عجل.

(جلمود)

أَعْدَدَ الْجَيْشَ.

(عاشور)

لَا أَسْتَطِعُ...

(جلمود)

هَلْ جَنِنتَ يَا أَحْمَقَ.

(عاشر)

ـ لا، ولكن نقيل اخذ أكثر من ثلثي الجيش..

(جلمود)

ـ لماذا؟؟

(عاشر)

ـ لا أعلم..

(جلمود)

ـ وكيف سمحت له بأن يأخذ ذلك العدد؟؟

(عاشر)

ـ أنت من أمرت يا سيدي فلقد سمحت له بأخذ ما يريد من الجيش، لكي يحضر الأميرة سمراء.

(جلمود)

ـ أبعث من يبحث عن نقيل وابره ان يرجع بالجيش ، ثم اجمع كل شاب في القبيلة، ولا تترك امرأة تستطيع حمل بندقية أو مسدس إلا وضعها في الصفوف، حتى الأطفال... أدخلهم، بهذه الأرض لن يحيمها إلا من يعيش فوقها.

الخنی عاشر نصف الخنائه ثم وضع قناع الاستنشاق وانطلق ينفذ.

في ساعات، تدفق المقاتلون نحو الساحة، الجيش النظامي تجاوز خمسة آلاف مقاتل، وما جموعه من رجال القبيلة ونسائها وصغارها بلغ خمسة آلاف، المدينة صارت قلعة، وأهلها صاروا ناراً تشي على الأرض، وفي الخارج، كانت البوابة ترتجف تحت ضربات الأعداء.

صوت المطارق يهز الجدران، وال الحديد يصرخ ومع كل ضربة، تقرب البوابة من الانهيار.

صعد جلمود أعلى سور ، يحذق في ساحة الموت بعين لا تعرف الرحمة، انتزع قناع الاستنشاق من وجهه وأطلق حكمه:  
أطلقوا النيران.

---

### (الفصل الثاني والعشرون: اي ليس قاتل)

انجرت الدنيا بالسهام المشتعلة فكانت كالزواحف الجهنمية، البنادق تنفث أنفاسها الأخيرة، المدافع تزأر كالوحوش المريوطة بسلسل، اندلع جدار اللهب فابتلت النيران أجساداً تصرخ ولا تموت، وتذوب ولا تُدفن.

صفوف العدو تراجعت للحظات ثم صمدت بعضهم احترق واقعاً والبعض تهوى في صرخاته.

حمد جلمود وحاول أن يطيل أمد القتال، لكن الذخيرة شحيحة حتى فقدت مع الوقت..

ازدادت ضربات العدو، والبوابة لم تعد تتحمل المزيد.

التفت جلمود إلى عاشور وأوْمأَ له فأمر عاشور:

ـ الآن... ألقوا قدور الحم.

انصبّت القدور من الأعلى كان بعضها يحمل زيتا مغليا والأخر حما منصهرة ، احترق الصنوف الأولى من العدو، وتراجع بعضهم، لكن الغضب كان أقوى من تلك النيران.

في الصفوف الأخيرة، كان ينظر عدنان إلى الدمار الذي يحدث أمامه التفت إلى الحوت الازرق ـ لن نسقط هكذا...

ابتسم "مقرعون" ثم التفت إلى عدنان وقال بصوت خافت:

ـ سأنهي عليهم .

رفع عدنان حاجبه باستغراب، فـأُكمل "مقرعون"

ـ منذ عامان أمرت جرميد أن يبحث لي عن كيميائي... كل ما أردته كان قنابل يدوية من البارود وقد فعل ، حصلت على ما أريد.

(عدنان)

لَكُنْكَ لَمْ تَكُنْ تُرِيدَ لِهَذِهِ الْحَرْبِ أَنْ تَقْعُ، فَكَيْفَ اعْدَتْ لَهَا مِنْذَ زَمْنٍ بَعِيدٍ وَانْتَ  
تَسْعِي لِسَلَامٍ.

(مقرعون)

صَحِيحٌ لَمْ أُرْدِهَا، لَكِنْ جَلْمُودٌ أَجْبَرَنِي، كُنْتَ أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَنْقَلِبُ فِي أَيِّ وَقْتٍ فَأَرْدَتْ  
أَنْ أَحْمِي شَعْبِي .

ثُمَّ أَمْرَ خَاهَةَ بِصَوْتِ أَرْبِكِ الْجَمِيعِ:

أَطْلِقُوا الْبَارُودَ!

تَقدَّمَتِ الْمَجَانِيقُ، وَكَانَتْ مَحْمَلَةً بِقَنَابِلٍ بَارُودِيَّةً بِدَائِيَّةٍ، لَكِنَّهَا قَاتِلَةً.  
فِي لَحْظَاتٍ، انْطَلَقَتْ أَوْلَ دُفْعَةٍ فَارَّجَ السُّورَ بِانْفَجَارٍ هَائلٍ، وَتَنَاثَرَ الغَبارُ وَالْمَحْجَارُ.  
صُعِقَ الْمَدَافِعُونَ، وَتَعَالَتِ الْصَرْخَاتُ، وَبَعْضُهُمْ طُمِرَ تَحْتَ الرَّكَامِ.

اسْتَمِرْ "مَقْرِعُونَ" يَأْمُرُ دُونَ رَحْمَةٍ:

أَطْلِقُوا!

ضَرِبةٌ تَلُو الْأُخْرَى، وَالْمَنَازِلُ تَهَدُمُ، وَالشَّوَارِعُ تَتَشَقَّقُ، وَالْدَمُ يَسَابِقُ الْصَرْخَاتِ.

كان الدمار شاملًا.

وفي وسط هنا كان يردد مقرعون:

أطلقوا... أطلقوا... ولا يتوقف كأنه أصيب بهستيريا الأطلاق.

أسفل المدينة في ذلك النفق العميق كانت الأرض تهتز تحت أقدامهم وقطع من السقف تساقط من الأعلى معلنة عن احتضار الجدران ارتفع الغبار في الجو، وخيم شعور بالخطر القريب.

قال نجم وهو يتثبت بالجدار المرتعش:

ما الذي يحدث.. أثراها نهاية العالم؟؟؟

بدر كان يحذق في الفراغ بنظرة قلقة ثم خلع كمامته وأدار وجهه نحو جنود آل سمعان، كي يروا شفتيه بوضوح ووسط الضوضاء:

لا أعلم ما الذي يجري، لكن الأمر ليس عابراً.

ثم أضاف، ووجهه يزداد صرامة:

لقد مضت أربع ساعات كاملة، هذا يعني أن الوقت قد حان فاصعدوا لا تنتظروا حتى تُدفن هنا.

جرى الجميع بسرعة يصعدون السلالم لأن شيئاً يطاردهم من الأعماق.

وما إن وصلوا إلى الأعلى وجدوا باب الغرفة المؤدية إلى القصر لازال مفتوحا دلفوا من خلاله إلى داخل القصر حتى اصطدموا بالفراغ ، لا أثر لأحد، المكان موحش، السكون فيه يصرخ وحده.

ثم، من خارج القصر انطلق صرائح مفزع...

صوت لا يمكن وصفه، كأنه النواح الأبدي، أو صرخات أرواح تُسحب من أعماق الجحيم

ما هذا \_ قال زهد في رعب، بينما الدخان يتتصاعد من النوافذ، وأصوات التفجيرات تهز الجدران، وأنين الجرحي يتتصاعد مع صرائح المذعورين.

رد بدر بصوت مرتجل:

المدينة ثباد.

التفت الى احد رجال ال سمعان و اشار له:

أين السيد صمّاص؟ والسيد سمعان و صفيير اعرف انه يمكن ان تشم رائحتهم، فلتبحث عنهم .

خلع هذا الرجل حذاءه، بعدها رفع قناعه ثم جثا أرضاً، ووضع قدمه العارية على البلاط، ثم اشار بيضيء فأفههم بدر:

— يقول أنه يشعر بمكانهم كما انه يشم رائحتهم .

قال بدر في مجلة:

اتبعوه.....

انطلق الرجل، يخطو واثقاً وسط الاهتزازات، يتبع ذلك الإحساس الغريب وكان انه وقدميه آذاناً تصغي لما تحت الأرض.

قادهم في المرات، إلى أن توقف أمام غرفة من الغرف ففتح بها بحدار، كانت فارغة لكنها لم تكن غريبة لأنها نفس الغرفة التي احتموا بها قبل ان يعثروا على زهيرة، رائحة أنفاسهم ما زالت عالقة في جدرانها.

أدار رأسه ببطء، ثم خرج منها دون أن يفعل أي حركة ، يتبع الرائحة الخافتة التي تتسلل في المرات ، ومتى نهض بصيرة لا يمتلكها المبصرون.

كان يدور يبصر ساكن، وجسده هادئ، ثم توقف، شم الهواء، رفع رأسه قليلاً، وتقدّم يتبع الرائحة، كأنها خيط دخان لا يراه سواه،

تقدّم نحو أحد الجدران، ومد يده بتؤدة، تحسس الزوايا، ثم أغلق عينيه.

الصمت خيم لحظات بعدها فتح عينيه، وفيها بريق غامض، حينها ابتسامة من وجد شيئاً ضائعاً مدد يده ودفع أحد القوالب الحجرية في الجدار.

فتحرّك الجدار، وافتح عن غرفة سرية، لم يكن أحد يتوقع وجودها.

في الداخل، كان سمعان الأبكم، وصمصام، وصفير ما يزالون مغيّبين، مقيدين بالسلالسل إلى أعمدة حجرية، أسرع الرجال إليهم، أفاقوا مما كانوا فيه، وفكوا قيودهم، واحداً تلو الآخر.

فتح صمصام عينيه، وهو يحدّق في الوجوه حوله:

ماذا حدث؟ وأين سمراء؟

أجاب نجم في دهشة :

يفترض أن نسألكم لا ان تسألونا .

(صفير)

زهيرة، تلك العجوز الشمطاء خدعتنا!!

لكن قبل أن يكمل، هرّة عنيفة ضربت المكان، فاهتزّ الجدار من جديد. سأل صمصام بقلق:

ما هذا؟ هل النيازك عادت تتراشق.

أجا به بدر وهو يضع يده على الحائط:

لا... إنها الحرب ، لقد اندلعت حرب القبائل.

تمدد صهاصم في مكانه، مصعوقاً:

ـ حرب القبائل..... كيف ؟ ؟ ؟ ؟ ؟

قال صفیدر بوجه شاحب:

ـ كنت أشك لكن الأمر تأكّد، أنا واثق أنه الحوت الأزرق.

(صهاصم)

أبي ؟ لا مستحيل لقد أراد السلام، رباني على المحبة والتوحيد بين القبائل.

هزّ صفیدر رأسه، وقال بحزن:

ـ نعم، كان يريد السلام لكنه لم يجده فيين حوله، لذا قرر أن يصنعه بنفسه، بطريقته قرر قتل من اختطفك، وهدم مزرعتك، وأعلن الحرب على كل من رأى فيه تهديداً لأمن شعبه.

ضررت هزة أخرى أعمدة الغرفة، فسقط بعض العبار من السقف، ارتجف قلب صهاصم، ونهض خجاء يلهث:

ـ لا .... لا يمكن عليّ أن أوقفه قبل أن فقد كل شيء.

انطلق راكضاً، صوته يتردد خلفه بين جدران الممرات:

ـ عليّ أن أوقف أبي.

خرج من القصر، وعيناه تجوبان المكان بذهول، كأنهما ترفضان تصديق ما تراه من دمار و جثث، كان يُحرّك رأسه تقىًّا متممًا:

لا... مستحيل ما أراه.

كانت الأشلاء مبعثرة في كل ركن ، نساء، أطفال، شيوخ، مئات من الضحايا قد ددوا على الأرض الباردة، لا يخرجون صوت ولا ترتفع صدوره بنبض.

سار بخطى متعرّثة، كمن يحاول الهروب من الحقيقة، حتى عثرت عيناه على جثة صبي صغير، ملقأة على الأرض.

ارتقى على ركبتيه، واحتضن الجسد الصغير بذراعين مرتختفين، ثم حمله إلى صدره في حزن ، ركض به نحو السور المنعدم، خطواته تجرهاً الدموع والدماء، كان مقرعون يراقبه من بعيد، وما إن رأه، حتى رفع يده وأمر:

أوقفوا إطلاق النار!

وصل صهصام إليه، ووقف أمامه، يحمل الطفل كأنه شاهدٌ حيٌّ على الجريمة، مدّ مقرعون يديه ليحتضنه:

ابني...

لكن صهصام دفعه بقوّة:

لست ابناك، والدي لم يكن قاتلا !!

تجدد مقرعون، فهتف غاضبا:

ماذا تقول لقد فعلت هذا من أجلك، من أجل شعبي! أم تريدنا أن نبقى  
مرعوبين من جلمود؟ الا تذكر، كان خوفنا من الأموات الأحياء أما الآن فقيبلي  
ترتعب من جلمود بدلاً منهم ...

(صمصام)

أي خوف تتحدث عنه؟، كنت تلعن جلمود والآن صرّت مثله ، انظر! انظر  
إلى ما أحمله بين يدي، طفل، ما ذنبه؟ وفي الداخل، مئات مثله، جثث تملأ  
الطرقات، أرواح أزهقت، لأجل ماذا؟ عدوكم كان واحداً، لكنك الآن تحصد شعيبا  
بأملاه!

ز مجر مقرعون:

اصمت أنت لا تفهم!

يل أنت من لم يفهم شيئاً، ولن ادعك تكمل هذه الجريمة...

بلا تردد، صفعه مقرعون بقوة:

ريتتك تكون سلاحي، لم أتوقع أن توجه السلاح نحو... يا حرّاس، أمسكوه!

أمسكه جنديان من كتفيه بقوة، بينما ظل الطفل الصغير بين ذراعيه. شد عليه قبضته أكثر، وكان حضنه للطفل آخر حصن من الجنون.

ارتفع صوت مقرعون مجدداً، قاسياً جافاً كأمر عسكري لا يحتمل التأخير:

أطلقوا النيران!

انفجرت السماء بقناابل البارود من جديد، وكان جهنم قد انشقت وسكتت غضبها.

صرخ صهصام، ووجهه مشقوق بالألم:

توقفوا! لا... لا يا أبي... كفى أرجوك.

لم يكن صراخه رجاء بل احتجاج روح، لحظة من شقوق الانهيار.

بيطء... وبكل حذر، انحنى صهصام، وربت على الطفل قبلة سريعة على جبهته، ثم وضعه برفق على الأرض، كما تُدفن الأمانى دون نعش.

وحيث لم يجد ردّاً، استدار فجأة، وجذب جسده للخلف، فصدم أحد الجنديين برأسه، ثم ركله بقدمه اليمنى، فانفك ذراعه، وفي اللحظة ذاتها دفع الآخر بكنته، فارتخي قبضته عنه، تحرر! ومضى يعدو كالجنون وسط نيرانهم، وسط صرخاتهم، وسط كل شيء، صارخاً:

إن أردت قتل أحد، فاقتلوني أنا أولاً!

تجاوز السور، ووقف في قلب المدينة المحترقة، والسوداد يتصاعد من أطلال  
البيوت. رفع يده نحو والده، عينيه دامعتان:

— اقتلني! اقتلني إن كنت ترى أنني الخطر على سلامك!

ظل مقرعون يجذق فيه لكن تلك الصرخة لم تصب أذنيه فقط، بل طعنته ذرفت  
عيناه دمعة واحدة، ثم اختنق بها ورفع يده عاليًا وكأنه فقد عقله وأمر بإطلاق  
القذائف.

تم صمصام حين سمع أمر الأطلاق:  
لن أسألك يا أبي.

انطلقت قبلة البارود نحو فأغمض عينيه وفتح ذراعيه، لا تحدي ولا حضوع... بل  
انكسار وسلام.

لكن قبل أن تمسه القذيفة... خرجت ميساس من داخله، كأنها طيف انفجر من  
صدره، واصطدمت بالقبلة قبل أن تلمس الأرض، ففجّرتها في السماء.  
ولم تتوقف.

ظللت تتصدى لكل قذيفة، واحدة تلو الأخرى، تنفجر في السماء، لا على الأرض.

حينها تراجع الرماة، مشدوهي الوجوه، كأنهم رأوا الشبح الأزرق ينبعث حيًّا من جسد بشري. وانكمشت أيديهم المترجفة عن أزرعة المناجيق.

ثم صمتوها.

مقرعون... ابتسامة غامضة لم يلحظها أحد.

تذكرة نبوءة ((ندرة))

"سيعود ابنك لكنه لن يكون صحاصام الذي تعرفه... سيعود ليكون الحوت الأزرق".

ولوهلة صدقاً مع انه يعلم انها كاذبة... لكنه سرعان ما عاد يزرم وجهه بالخدر والتهجم.

كان رجال الوريد وأبناء آل سمعان يركضون بين المصاين، يحملون الجرحى، يعالجون من يمكن علاجه، لكن كل عيونهم اتجهت إلى صحاصام.

حتى صفيدير... شهق.

كأن الصورة المعلقة على جدران قرية آل سمعان قد نزلت من مكانها، وعادت في جسد هذا الفتى.

هل هو هيان؟ همس بها لنفسه، مرتجلًا.

(مقرعون)

- أطلقاوا ما بالكم توقفتم؟...لكن لم يتحرك احد ، الأيدي ظلت منخفضة، لم يجرؤ أحد أن يرفعها مجدداً.

اقرب عدنان وهس له:

ما الذي يحدث يا أخي؟ كيف أصبحت بهذا الشر..

رد مقرعون بصوت ابج بالغضب:

ما الذي يحدث؟ حقًا تسألني، جلמוד اخترط ابني، قتل عمالٍ، دمر مزرعتي ثم تسألني ما الذي يحدث؟

رد عدنان بحزن:

أتيث بجنودي لأقف إلى جانب أخي ضد من ظلمه، لا لأشهد هذا الجنون، وأنت ماذا فعلت؟ إن كان قتل عمالك، فأنت أبدت ثلث شعبه، وإن كان دمر مزرعتك، فأنت دمرت مملكته، وإن كان اخترط ابنك، فأنت الآن تحاول قتل ابنك بيديك، يقولون إن المساواة في الظلم عدل، لكنك لم تساو، بل جررت، أتفتلت لأنك لأنك غاضب، ولو كان قد مات الآن فكيف كنت ستكمِّل حياتك؟

ماذا كنت ستقول لأمه؟ لقد تريَّث في قبيلة الماء، لستعلم الرحمة، لكن الآن، ثبتت أنك ابن قبيلة الظلال!

(مقرعون)

— أنت وابني لا تفهماني..

(عدنان)

— بل أفهمك جيداً، وأيضاً صمصام يفهمك، ولكن أنت الذي لا تفهم نفسك، أنت لست هذا الوحش انظر إلى ما فعلت، انظر إلى جهنمان الفتى الصغير، ماذا فعل ليستحق الموت؟

ارتبك مقرعون وحدق في الطفل طويلاً سكت نظراته، وبدأت تخوناه بالدموع حتى سقط على ركبتيه كما يسقط الذنب على ضمير صاحبه بعد فوات الأوان. لم تكن تلك الصرخة التي خرجت من صدره سوى ارتجاف روح أنهكها تأجيل الاعتراف. نظر إلى الدماء، إلى الركام، إلى الأجساد التي تفحمت وطفل لم يغلق عينيه بعد، كأنه لا يزال ينتظر أن يقول له أحد هم: "لا تخف".

لكن مقرعون لم يقلها، لم يقلها أبداً.

كان هو من صمت حين كان ينبغي أن يصرخ.

هو من تردد حين كان يجب أن يمنع القذيفة، أن يصفع نفسه، أن يتراجع... لكنه لم يفعل.

رفع عينيه إلى السماء التي لم تعد ترى سوى دخان، وقال كمن يكلّم الله بعد أن  
أنكر وجوده عمّا كاملاً:

— ماذا حدث لي؟ لكن لا أحد أجابه... لا رب، ولا الذين تحت التراب.

حينها أمر الجميع بالتراجع، ثم مضى نحو سور القبيلة، قاصداً ابنه، رافعاً يديه إشارة  
لوقف كل شيء.

وبينما كان يقترب من فوق سور أمسك جلمود بندقيته وأدار فوهتها نحو  
مقرعون، ثم أطلق رصاصة شقت صدره، وأسقطته أرضاً.

كان صمّاص يراقب المشهد، وفجأة تغيّر وجهه، وركض كالجنون نحو أبيه، وارتدى  
عليه.

قال جلمود بغلٌ: فلتذق ما ذاقه أبوك!

وقبل أن يطلق رصاصة أخرى، اشتعلت النيران حوله، فتراجع سريعاً وفر هارباً.

أما صمّاص، فكان يمسك يد أبيه، ويضعها على صدره فتح مقرعون عينيه بصعوبة  
ليقول بعدها:

— ساحني يا بني...

فأجابه باكيًّا:

ساحني أنت ، أعدك ، سأقتل من آذاك.

هَرَّ مُقْرَعُونَ رَأْسَهُ فِي ضُعْفٍ وَقَالَ:

لَا يَا بْنِي ، لَا تَكُنْ مُثْلِي لَا تَجْعَلْ الْغَضْبَ سَيِّدَكَ.

ثُمَّ تَابَ بِصَوْتٍ مُتَقْطَعٍ:

طَلَبِي الْآخِيرُ أَنْ تَحَافِظَ عَلَى قَبْيلَتِكَ ، وَلَا تَتَرَاجِعَ عَنْ مَدَّ يَدِ السَّلَامِ ...

سَقَطَتْ يَدَاهُ مِنْ يَدِي صَمْصَامَ ، وَمَظَهُرُهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ قَدْ فَارَقَتِ الْجَسَدَ ،  
مَسَحَ دَمَوْعَهُ ، ثُمَّ وَقَفَ وَسَحَبَ السَّيْفَ مِنْ خَمْدَ وَالَّدِهِ ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يَمْلُؤُهُ  
الْغَضْبَ :

سَأُقْتَلُ مِنْ قَتْلِكَ !

رَكَضَ كَالْجُنُونِ ، يَبْحَثُ عَنْ جَلْمُودٍ ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ كَوْحَشَ هَائِنَ ، لَا يَرْجُمُ ، وَإِنَّ  
تَعْثَرْ بِأَحَدٍ مِنْ جَنُودِ قَبْيَلَةِ النَّارِ ، قَتْلَهُ دُونَ تَرْدُدٍ .

لَكِنْ جَلْمُودٌ ، قَدْ هَرَعَ إِلَى قَصْرِهِ بَعْدَمَا تَأْكَدَ مِنَ الْهَزِيَّةِ ، كَانَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْمَرَاتِ  
كَالْمَسْعُورِ :

أَينَ أَنْتِ يَا أَيِّي ؟ عَلَيْنَا أَنْ نَهْرَبُ ..... زَهِيرَةٌ ... أَيِّي ... أَينَ أَنْتِ ؟ !

خَرَجَتْ زَهِيرَةٌ مِنْ مَخْبِئِهَا ، وَجَهَهَا مَذْعُورٌ ، تَتَوَكَّلُ عَلَى عَصَاهَا :

أنا هنا يا بني.

ركض إليها، واحتضنها وهو تبكي.

قالت بتصرع:

أنا خائفة.

فأجابها:

لا تخافي، أنا معك. أصبحت وحيداً، لا أملك في هذه الدنيا سوى أنت، ابني ضاعت، زوجتي رحلت، قبيلتي دُمرت، أنت فقط... ضمّيني أكثر... آخر جيني ما أنا فيه.

ابتسمت زهيرة وهو بين ذراعيها، ثم أخرجت خنجراً من بين طيات ثوبها، وغرسته ببطء في عنقه من الخلف. تكرر مشهد مقتل "أرمغان" ذاته وكأنها رسالة تقول:

مَمَّا فَعَلْتُ، سِيرْتَدِ إِلَيْكَ مَا صَنَعْتَ، فَلَا تَعْطِ الْأَمَانَ.

اتسعت حدقتا عينيه، وتراجع خطوتين إلى الخلف. وضع يده على عنقه فشعر بنفورة من الدماء تخرج منه قبل أن يسقط على ظهره وهو يهمس:

أَنْتِ...؟

## ((الفصل الثالث والعشرون))

(يا قاتلَ المقتولِ لا تغترَ بالنصرِ

فَالذَّهْرُ دَوَارٌ، يَرُدُّ الظُّلْمَ بِالْعَبْرِ

سَيِّلُّ دَوْرُكَ، لَا مَقْرَرٌ وَلَا وَطَرْ

وَتَنْوِيَّ طَعْمَ الموتِ مَنْ قَدْ قَضَى الْأَثْرَ)

أُجابتُ، وَهِيَ تضحكُ بِهِرَارةٍ:

وَقَفَتْ زَهِيرَةً عَلَى رَأْسِ الْجَلْمُودِ وَهُوَ يَحْتَضِرُ:

— نَعَمْ أَنَا وَهُلْ كُنْتَ تَظْنَنُ أَنِّي سَأُتَرْكُكَ دُونَ أَنْ أُثْأِرَ لَابْنِي؟ رَبِّيْتُكَ كَأَنْكَ ابْنِي  
عَطْفَتْ عَلَيْكَ، رَعَيْتُكَ وَأَهْمَلْتُ ابْنِي الْحَقِيقِيِّ، وَفِي الْمُقَابِلِ، قَتَلْتُهُ لِتَرْثِ الْحُكْمِ، هَلْ  
تَظْنَنُ أَنِّي نَسِيْتُ؟

لَا يَا جَلْمُود... كُنْتَ أَخْطُطُ بِصَبْرٍ، وَأَنْتَظِرُ اللَّهِظَةَ الْمُنْاسِبَةَ.

ثُمَّ أَكْمَلْتُ وَهِيَ تَقْتَرِبُ مِنْهُ:

أَنَا مِنْ جَعْلَتِكَ تَقْتَلُ زَوْجَتِكَ، أَخْبَرْتَهَا أَنَّكَ قَتَلْتَ وَالدَّهَا، كَانَتْ مَسْكِينَةً، تَتَبعُ  
عَوَاطِفَهَا. لَمْ تَكُنْ تَسْتَحقِ الْمَوْتَ، لَكِنَّكَ اسْتَحْقَقْتَ الْأَلْمَ فَقْدَانِهَا.

أما الحرب؟ كل ما حدث باسم من؟ باسمي أنا... وباسم نفيل.

نظر إليها جلمود بدهشة وهو يكتم الدماء المتدفق، بالكاد يقدر على التنفس...

همس:

"تفيل...؟"

ابتسمت زهيرة ابتسامة باردة وقالت:

نعم، كان نفيل يعلم منذ البداية أن مقرعون لن يصمت طويلاً خطف ابنه، تدمير مزرعته، والاستهانة بمكانته كحوت، كل ذلك كان كافياً لإشعال حرب لا محالة، لكنه لم يكن يريد حرباً ثراق فيها دماء الأبراء فقط، بل حرباً تُسقطك أنت من الداخل، دون أن تتلطخ يداه بشيء.

سعل جلمود بشدة، فخرج الدم من فمه، وزاد خنجر الخيانة ألمًا على ألم.

أكملت زهيرة بصوت متهدج لكنه خالٍ من الرحمة:

لهذا أتاني نيمورا ذات ليلة ، واتفقنا على حيلة لا تخطر لعقل ثخنطه سمراء، وتنسب الجريمة إلى ابن (الحوت الأزرق) فإذا شاع الخبر، صارت الكلمة العليا لـ نفيل وحينها يأخذ الصالحيات الكاملة لتحرير الجيش، بحججة البحث عن ابنه عمه الخنطفة. وهو ما كان فما إن جاءه خبر اقتراب (الحوت الأزرق) حتى خرج من القبيلة بثلثي الجيش وأعلن أمام الجميع أنه ذاذهب لاستعادة سمراء.

اذادت همساً:

وتركك معزولاً مكسوراً، لتنوّق ما فعلته بنا.

نظر جلמוד إلى الأعلى، إلى سقف القصر، كأنما رأى كل حياته تهواي أمامه ثم تتم بكلمة لم تفهم إلا في داخله \_ قلت لك لن أتأخر يا حبيبتي .. بعدها سقط جسده بلا صوت.

وقفت زهرة بثبات أمام جسده، تسح الخنجر بشوهرها الأبيض وحين استدارت لتغادر اصطدمت بجسد صهصام يقف خلفها.

تسمرت في مكانها وعيناها زائفتان على الخنجر الذي في يدها، و على جثة جلמוד على الأرض.

شعرت بالارتباك وبدأت تتلعم:

أنجدني... جلמוד.... كان... كان يحاول قتلي... لأنّه علم أنتي أساعدك... لترتج  
سمراء!

أنا... أنا فقط دافعت عن هسي.

صهصام بوجه خالي من أي افعال:

لقد سمعت كل شيء قلتية للتو، أنت السبب في كل ما جرى، أبي مات اليوم  
بسبيك كل من مات الآن انت سبب موته

تراجعت خطوة إلى الوراء، مدّت يدها أمامها وهي تتسلّل:

توقف مكانك أنا لم أفعل شيئاً، كنت أهذى فقط، كنت غاضبة، هذا كل  
شيء، أرجوك.

نفحة أصابها السعال أمسكت صدرها، اختناق رئتها، وارتجف جسدها، مدّت  
يدها المرتعشة إلى جانبها، وأمسكت بقناع التنفس، لكن قبل أن تضعه، صفعه  
صحاصام من يدها بعيداً هبّمت عليه تحاول طعنها بالخنجر، لكنه ضرب يدها  
الضعيفة، وانزع السلاح منها بسهولة.

بعد خمس دقائق اشتد السعال عليها وبدأت تتنفس مخاطاً ودماء حتى أن عيونها  
تورمت:

أرجوك أنا لم أرتكب قناع التنفس منذ أكثر من نصف ساعة سأموت.

صحاصام بلا مبالاة:

فلتتموتي على الأقل ستذوقين بعضًا من شعور من ماتوا وهم يُقْتَلُونَ نَفْسًا واحدًا.  
سقطت على الأرض والسعال لا يتوقف، لكنها بين اختناق وآخر، تتمت بكلمات  
متقطعة:

ـ إن... إن مثـ... فلن... فلن تجد سمراء...

تغيرت ملامحه الى الاصباء ولكنه كان يتردد، الغضب يشده من كتفيه، والحب يسحبه من قلبه، نظر إليها وهي تتلوى، تخنق، تنظر له برجاء لا يحمل الندم، بعد لحظات صامتة كأنها دهر، ركض إلى القناع، انحنى ووضعه على وجهها.

شهقت بقوـ ثم أخذت نفسـا عميقـا ثم آخر كأن الحياة تعود لتأخذ مكانـها في صدرها.

(صمـاصـ)

ـ أين هي سمراء؟

انزعـ القناع عن وجهـها قبلـ ان ترـتاح رـئـتها والـشرـ يتـطاـيرـ من عـيـنـيهـ.

ـ شـهـقتـ منـ المـفـاجـأـةـ، وـتـشـبـثـتـ بـثـوبـ صـدـرـهاـ المـرـجـفـ، وـهـيـ تـقـولـ بـضـعـفـ:

ـ سـأـخـبرـكـ، سـأـخـبرـكـ، فـقـطـ أـعـطـنـيـ القـنـاعـ لـبعـضـ دـقـائقـ أـخـرىـ أـرـجـوكـ.

ـ ردـ بـنـبـرةـ صـارـمـةـ، دونـ أـنـ يـطـرفـ لـهـ جـفـنـ:

ـ لـ اـخـبـرـنـيـ أـوـلـاـ.

ـ أـخـذـهـ السـعالـ مـجـدـاـ، صـوـتهاـ يـخـرـجـ مـتـقـطـعاـ، وـبـحـشـرـجـةـ خـافـتـةـ قـالـتـ:

ـ أناـ... عـجـوزـ يـاـ بـنـيـ... لـاـ أـسـتـطـعـ الـهـرـبـ.... وـلـاـ أـمـلـكـ مـكـانـاـ أـذـهـبـ إـلـيـهـ... لـكـ إنـ بـقـيـثـ بـلـاـ قـنـاعـ... سـأـمـوتـ... قـبـلـ أـخـبـرـكـ بـشـيءـ، أـرـجـوكـ، فـقـطـ... القـنـاعـ.

تأمل عينيها المبللتين بالدموع بينما صراع داخلي يعصف به، ثم ببطء مدد يده إليها وأعطها القناع من جديد.

أخذته منه بلهفة، كأنها تمسك بالحياة ذاتها وضغطته على وجهها بسرعة، وأخذت نفسها عميقاً ثم آخر، وثالث. لكن صمام قطع عليها لحظة الراحة وقال بنبرة قاطعة: لن أمنحك المزيد، ومد يده مجدداً وللمرة الثالثة، انتزع القناع من على وجهها بقوه.

شھقت، ثم صرخت:

لا... لا.. أتوسل إليك.

رد دون أن يلتفت:

لقد أخذت وقتك، ولن أصبر أكثر.

بدأت تتقى، وانهارت على الأرض، تتلوى وتصرخ صوتها يرتفع ويتشلاشى مع كل ثانية:

أرجوك... القناع... هي في الكھف.

أي کھف؟؟

کھف تحت جبل الدوس ..... قرية المنبودين... خارج قبيلة النار... أرجوك.

سقطت على وجهها، تسعل بشدة حتى اختنقت، رفعت رأسها بصعوبة وهي تنظر إلى قدميه برجاء يائس:

رئتاي... لن تحمل... اعطني قناعي..

ابتسم ببرود، ثم رمى القناع بعيداً وقال:

ادهبي إليه وخذيه .

زحفت على الأرض، تتشبث بالحياة كمن يفرق مدت يدها نحو القناع، تسعل بشدة، صدرها يعلو ويهدأ كل خطوة كانت عذاباً وكل نفس أقرب للموت، عينها معلقتان بالقناع لأن خلاصها فيه. لكن قبل أن تصل إليه توقف جسدها وبجأة سقطت، واختنق صوتها لموت على بعد شبر واحد من الحياة.

خرج صمّاص من القصر، وخطواته تسحق الأرض من شدة الغضب والحزن كان كل شيء حينها قد هدا، توّقفت المعارك، واستسلمت قبيلة النار تماماً بعد أن انهار قادتها، غابت الأصوات إلا من أنين المجرحى وخrier الرياح التي كانت تمر على ساحة امتلأة بأجساد من الطرفين.

ياشارة من يده، دخل جيش قبيلة الماء والظلال أرض النار لأول مرة، لا كمهاجمين بل كمنقذين. أمر صمّاص في مجله:

ساعدوا الجرحى، ادفوا موتانا، ولا تميّزوا بينهم وبين موتاهم، كلهم الآن في ذمة الغيب.

في تلك اللحظة كان صفير لا يزال يُسعف الجرحى، يتنقل بينهم برفقة أصدقائه، اقترب منه صهصام وصوته يحمل ما هو أكثر من الكلام:

— خذني إلى جبل المبودين، الآن.

— الآن؟ قالها صفير متراجعاً.

— نعم لا وقت لدينا.

رافعهم سمعان، بينما ظل الحوت الأسود خلفهم، يحمل جثة مقرعون بكل وقار، وأدخلها إلى قصر جلمود، كما يليق بملك سقط في أرض معركة.

حين خرج صهصام من بوابة السور، أطلق سمعان صفيرًا حاداً، صفيرًا لا تفهمه سوى نملات البرير. على الجانب الآخر كانت نائلة قد رأت كيف تتحرك النملات فجأة ومن دون تردد، امتطت واحدة منها، وسارت بها نحو مصدر الصوت.

وحين وصلت إلى حيث يقف الثلاثة، ورأتهم بوضوح اختفت دموعها وقفزت من على ظهر نملتها وركضت دون تفكير، ثم أرتمت في حضن صفير:

— كنت أظن أنتي لن أراك مجدداً سمعت التفجيرات وقلبي انخلع بعدها.

(صفيدر)

— لقد وعدتك أنتي سأعود، وأنا لا أخلف وعدي.

وضع يده على خدتها، ثم لامس جبينه بجبيتها، وهس:

— أنا لن أتركك لكن بقي شيء آخر سأذهب مع سيدتي، نحضر سمراء ثم نعود.

أومأت برأسها، ودموعها تحجب عن وجهها النبيل كل ملامحه. ركب الثلاثة  
الثلاث، واتجهوا صوب جبل المنبوزين.

عند أسفل الجبل بدأوا في البحث بين الصخور والمرات، حتى عثروا على فوهة  
كهف خفية خلف شجرة ملتوية الجذع، تقدم صحماصم أولاً وسلامه مشدود بين  
يديه، تبعه صفيدر وسمعان دون تردد.

الداخل كان أشبه بالجحيم الكهف رطب مظلم، ثمَّرَّل فيه رائحة الموت ترانيها  
بصوت خفي. في العمق، وجدوا سمراء مكبَّلة، جسدها محترئ من الخوف، وعيناها  
جامدتان خلفهم حيث كانت المرأة التي تعمل مع فقيل تطعم أولئك الموقِّي الأحياء  
داخل القفص.

تسدل صحماصم فيها كانت المرأة منسجمة في طقوسها الخفية، وانقضت عليها بفترة،  
وسدَّ إليها عدة طعنات في ظهرها، طعنة تلو الأخرى حتى انهار جسدها أمام  
عينيه.

وقف الثلاثة لحظة أمام مشهد الأفواص التي امتلأت بجثث متحركة، بالكاد تملك  
ملامح بشر. ولكن لم يكن هناك وقت للدهشة حرر صمصام سمراء، وأزال عنها  
القناع، واحتضنها سريعاً. انهارت بين يديه، تصيح من قلبها:

- صمصام !! صمصام !! ضمّها إلى صدره بقوّة وقال:

- أنا هنا لا تخافي لقد انتهى كل شيء، أنا هنا.

لأنها كانت ترتجف، وتنظر إلى السقف كأنها تتوقع سقوطه عليها:

- نفیل حاول أن يطعمني لهم..... أين كنت؟ لماذا غبت عنّي؟

انفجرت باكيّة، تصرخ كطفولة خائفة:

- سيقتلاني أو سيأكلني أو يجعلهم يأكلونني قال إنه سيقيني حيّة ليُرث بي الحكم  
بعد أن يقتل أبي، وبعد أن يتزوجني... قال إنه سيطعنني لهم!

كان صمصام يغلي لكنه كتم غضبه، ورفع وجهها نحو عينيها وقال بعنف مزوج  
بالحب:

- كفى انظري في عيني ألا تتفقين بي؟ ألا تتفقين بجي؟

نظرت إليه وفي تلك اللحظة، عيناها دخلتا عميّاً بعيداً في روحه، وكأنها تسألان  
وتجيبان في آن واحد أغمضت عينيها، وجمعت شتات نفسها ثم قالت وهي تبكي:

- أثق... خذني من هنا.

لم تكن تعلم أن صدمة الكهف لم تكن سوى البداية، وأن فاجعتها الحقيقية في انتظارها خارج الجبل، خرج صهاصم بها من الكهف، يتقدمه صفيدر وسمعان، وكانت الشمس الباردة قد بدأت تميل إلى المغيب، ترسل خيوطها الباهتة التي لا تحمل الدفء على أجساد القتلى الممددة على الأرض وكأنها تنشر عليهم الوداع الأخير.

وحين اقتربوا من قبيلة النار رأت الدخان المتتصاعد، وسمعت أصوات البكاء من بعيد هرعت تسأل:

- أين أبي؟ أين أبي؟

نظر صهاصم إلى الأرض ولم يقل شيئاً، فقط شدّ على يدها فلم تحتاج أكثر من هذا، شهقة واحدة خرجة من قلبها ثم جلست على الأرض تبكي بحرقة، تصرخ أسماءهم، تتشبث بالتراب، تنظر للسماء كأنها تطلب تفسيراً، مات أبوها وتلث شعيبها انقرض هذه لم تكن مجرد خسارة، هذه كانت نهاية عالمها.

ورغم كل هذا وقفت نعم وقفت. سمراء كانت حفيدة ملوك النار، ووريثة الحوت الأحمر فكان لا بد أن تهض، لا من أجل نفسها، بل من أجل من يقي.

سمعت أن نفيل قد هرب وأنه قاد ثلثي الجيش بحججه البحث عنها.

فأمرت القائد عاشر بمطاردته، وإعادة الجيش فوراً، عاشر فعل ما أمر به وأعاد القوات، ولكن نفيل لم يكن بينهم ، لأنه لما علم أن خطته فشلت، وأنها قد هربت من الكهف، ايقن أن كل شيء قد انكشف فقرر تاركا الجنود، قبل ان يصل عاشر

سماء وصمصام قررا أن لا يغلق هذا الفصل الا على السلام،

صمصام قال بصوت مرتفع وهو يشير للمكان:

- هنا سنبني مقبرة لا لهؤلاء فقط، بل لكل من مات وهو يظن أنه يدافع عن حق، بينما الحقيقة كانت تخفي عنه. وسماها مقبرة الغافلين تذكيراً بأن من سبقوهم من الحكم قد غفلوا عن شعبهم، فدفعوا الجميع للهن ، لم يكتفوا بذلك، بل قرروا أن يبدأوا من جديد.

أصبحت سماء رسمياً الحوت الأحمر الجديد وصمصام الحوت الأزرق، وقف إلى جانبها لا كقائدٍ خحسب بل كزوج.

بعد فترة طويلة من الزمن تزوجها أمام الجميع في احتفال لم يكن فيه زينة ولا ذهب، بل نار وماء كل قبيلة مثلت عنصرها وتقاليدها فكانت العروس تمشي على الجمر المنطفع، والعربيس يغتسل بماء النهر المتعفن وكلّ يقسم على الولاء لا للحكم، بل للعدل.

أما صفيدير فتروج نائلة بعد أيام من السكون، وصارت شرپكته وصوتها كان من أوائل الأصوات التي دعت لفكرة لم يجرؤ أحد على النطق بها سابقاً: قبيلة واحدة.

فكرة جنونية؟ ربما... لكنهم اليوم أقرب لها من أي وقت حتى قرية المنبودين سمح لهم بالعودة إلى أرضهم القديمة بدموع فرح لم يعرفوها منذ زمن، فقد غفرت لهم سمراء ما فعله والدها، واحتضنهم أرض النار من جديد.

صمصام أيضاً أرسل إلى قرية آل سمعان دعوة صريحة للانضمام إلى القبيلة الجديدة، تلك التي لم تسم بعد.

بعد اتحاد قبائل النار والظل والماء، ورفض قبيلة الهواء الانضمام، اجتمع شيوخ القبائل وقادة الحيتان للبحث عن خطوة ترسخ هذا الاتحاد. وبعد تفكير عميق ولدت الفكرة الأولى في ذهن صفيدير وزوجته نائلة، وهي بناء مدينة واحدة تجمعهم كشعب موحد. لكن طول النقاش كشف أن البناء من الصفر يتطلب سنوات من العمل الشاق، في وقت تصرف فيه الجهود إلى الصيد والبحث عن الطعام وسط شح الموارد، مما جعل الفكرة تتغير.

عندما طرح صمّاص الموت الأزرق فكرة بديلة وهي إعمار مدينة من المدن المهجورة منذ قرون. لاقت الفكرة إعجاب عدنان وسمراء، إذ بدت أكثر واقعية وأقل استنزافاً للجهد. وبعد نقاش الحيتان ، تقرر المضي في المخطة ووقع الاختيار على مدينة كباقي المدن المسيحية التي اجتاحها الزومبي ، مبنيةها متهالكة تخطّبها النباتات البرية، وشوارعها مكّدسة بالركام تسكنها وحوش الليل مثل عناكب الصداح، نمل البرير، زواحف العكوز، وثعابين البرورو.

بدأت عملية التطهير الكبرى، واستمرت ثلاث سنوات قاتل فيها المحاربون جنباً إلى جنب، يحرقون جحافل الزومبي، ويقتلعون النباتات المتسلقة، ويدمرون أوّكار الوحوش. لم يكن الطريق سهلاً؛ فقد قُتل منهم محاربون أشداء، ومات رجال ونساء في المعارك، لكن الجميع أدرك أن التضحية تستحق من أجل بناء مستقبل آمن. في مواجهة النمل البري المفترس، كانت فرقـة "آل سمعان" المدرية هي رأس الحرية. بتكتيكاتهم الحاسمة وخبرتهم في التعامل مع أسراب النمل المتواحـش، استطاعوا القضاء على جحافل النمل التي كانت تعيق التقدـم وتغزو الشـوارع، مما هـد الطريق لاستكمـال التطهـير.

وـمع تقدـم العمل، أقامـوا حول المـدينة أـسواراً حـجرية سمـيكـة، وأـبوابـاً حـديـدية تـغلـقـ يـاحـكامـ، حتـى صـارت حصـتاً منـيـعاً لا يـخـترـقـ، وأـغلـقتـ كلـ المـادـخلـ إـلا نقاطـ الحـراـسةـ. دـاخـلـ الـأـسـوارـ، أـعـيـدـ بنـاءـ مـزـرـعـةـ المرـجـ ولكنـ بشـكـلـ اوـسـعـ لـتـكـونـ مـزارـعـ

متعددة وزعت مساحات واسعة للمزارع الداخلية، وزرّع فيها القمح والشعير والعدس والأعشاب الطبية، كما جُلبت بذور أشجار فاكهة نادرة.

خفرت الآبار العميقة لتوفير المياه العذبة، وتقىيت البرك القدية لتكون مخزوناً احتياطياً للشرب والري. أما الخطر الأكبر، فكان الهواء المسموم الذي يخنق الأنفاس، ما دفعهم إلى الاستغناء نهائياً عن أقنعتهم القدية، واستبدلها بالقناع الزجاجي الموحد: زجاج شفاف صافٍ بإطار نحاسي وفلاتر تنقى الهواء وتسمح بالتواصل الواضح. صار هذا القناع رمزاً لاتحادهم وفتراً لمقاتليهم.

أما الحكم في المدينة، فصار شوري بين ثلاثة من قادة الحيتان، يمثل كل واحد منهم إحدى القبائل الثلاث، ليكون القرار جماعياً والسلطة موزعة بالتساوي، ويحكمهم عهد لا يفرق بينهم نسب أو دم، بل هدف واحد حماية الحصن الأخضر من كل خطر يقترب من أسواره وهكذا، تأسست مدينة النهضة الجديدة

بداً وكأن السلام أخيراً استقر في ربوع الأرض التي مرت بها الحروب. شيدت "دار الحيتان"، وساد حكم سمراء وصمصام، وازدهرت الأرض في ظلال الوحدة، لكن ما بدا هدوءاً، لم يكن إلا سكوناً يسبق العاصفة.

في قلب المجلس الأعلى، حيث كان صمصام يترأس اجتماعاً مع قادة القبائل، دخل فارس مسرعاً، يلهث، وعيناه مليئتان بالذهول:

وَجَدْنَاهُ... وَجَدْنَا فَقِيلَ!

سُكِّنَتِ الأنفاس، وَتَحْمِدُتِ النَّظَرَاتِ.

رَفَعَتِ سَمَرَاءَ عَيْنِيهَا بِثِباتٍ وَقَالَتْ: - أَينَ؟

أَجَابَ: - فِي أَطْرَافِ الْوَادِيِّ الْأَسْوَدِ... بَيْنِ جَمَاعَةِ الْبَدُوِّ الْمُتَشَرِّدِينَ يَجْمِعُهُمْ،  
يُشَحِّنُهُمْ بِالْحَقْدِ، وَيُعِدُّهُمْ بِالْعُودَةِ... بِالْإِنْتِقامِ..

هَذَا لَمْ يَكُنْ سُوَى الْبَدَايَةِ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ انْكَشَفَ شَرَّاً أُخْرَى فِي أَقْصَى الْجَنُوبِ،  
فِي قَبْلَةِ الْهَوَاءِ، حِيثُ لَا يَصِلُ صَوْتُ السَّلَامِ وَلَا عَبْقُ الْاِتْفَاقَاتِ، جَلَسَتْ كَارْمَنْ،  
الْحَوْتُ الْأَيْضِ، عَلَى كَرْسِيهَا تَطَلُّ مِنْ نَافِذَتِهَا عَلَى الْمَدِيِّ الْمَلْبُدِ بِالْغَيْوَمِ لَمْ تَنْضُمْ  
لِلْإِلَاتِحَادِ، وَلَمْ تَعْرِفْ بِهِ رَغْمَ أَنْ سَنْتَيْنِ مَرَّتَا عَلَيْهِ.

دَخَلَتْ خَادِمَتِهَا "شَعلَونَة" وَانْحَنَتْ حَتَّى لَامَسَ رَأْسَهَا الْأَرْضَ:

ـِينَ بْنَ بَنْدرَ.

رَدَّتْ كَارْمَنْ بِثِباتٍ: - ـِينَ بْنَ بَنْدرَ. تَكَلَّمِي.

قَالَتْ شَعلَونَةُ بِنْبِرَةٍ يُشَوِّهُهَا الْأَقْعَالُ وَالسَّعَادَةُ: - بَعْدَ بَحْثٍ وَتَقْيِيبٍ طَالَ سَنَوَاتٍ،  
وَجَدْنَاهُ... وَجَدْنَاهُ...

ـِما هُوَ؟

— مخزن الأسلحة الذي أخبرتنا به.

شهقت كارمن، وارتجمف جسدها من الإثارة: — حقاً؟

— نعم يا مولاتي مخزن كامل أسلحة ذخائر صواريخ، قنابل... كل شيء.

نهضت كارمن، عيناها تلمعان كبريق الحديد في النار: — كنث أعلم... كنث أعلم أنها كانت هناك، أرأيت يا أمي؟ لقد بدأ حلمي يتحقق.

قالت شعلونة والدموع في عينيها: — روحها معنا يا مولاتي... كانت دائماً تؤمن بك.

لكن لحظات النشوة لم تكتمل... إذ دخلت خادمة أخرى مسرعة:

— مولاتي، هناك امرأة عجوز بالخارج، تصرّ على مقابلتك.

أشارت كارمن بكسيل: — أدخلوها.

وما هي إلا لحظات، حتى دخلت امرأة بثوب ممزق ووجه غطّاه الغبار... لكنها رغم كل شيء، كانت مألوفة.

قالت شعلونة بذهول: — إنها... إنها ندرة!

ابتسمت كارمن بسخرية، والتفت إلى شعلونة وقالت: — أنظري يا عزيزتي... خالي العرافه... التي هجرتنا إلى قبيلة الماء، وخدعوهم برؤاها الزائفه... ها هي الآن، تعود جائعة، هاربة... بعدما انتهى طعامها وكشف خداعها.

اقتربت ندرة وهي تبتسم وقالت بلسان يقطر السم :\_ لا تردين معرفة جميع  
اسرار قبيلة الماء؟؟؟؟؟

---

(تأتي الليالي وتذهب...)

لا لأنها سريعة، بل لأنها غادرة.

والقلب ليس بيئاً، بل غرفة تحبس فيها الحبّة، تُخاطَطُ داخلها المكائد كأنها غرز الإبرة  
في نسيج ملعون، وتنسج الشروق كأنها ستائر لرؤى لا يليق بها النور.

لكن رغم السواد، لا يمنع الحال إن نطق به الجنون، ولا يمنعه مأمور إن خرج من  
قلب محروق.)

في إحدى الليالي الشاعرية، كان صاحب مع زوجته سمراء في غرفتها يتودد إليها  
بهدوء.

قالت له وهي تبتسم بخجل:

هل أنا أحلم؟ هل هذا أنت، زوجي، وفي غرفتي؟

فأجابها بلطف:

لا... لا تخلين لأن ما نعيشه الآن أجمل من أي حلم.

وضع يده على وجهها واقترب منها ليطبع قبلة على شفتيها، لكن فجأة، ابتعدت سمراء وقالت وهي تلتفت حولها:

هل هي هنا؟

ابتسم صمصم وقال:

لا ...

اقربت لشقيقه، ثم تراجعت مرة أخرى وقالت بشك:

أنا لا أثق بها.

ردّ بهدوء:

لا تخافي تعالى فقط لنكملي ما بدأناه.

قاطعه ظهور ميساس المفاجع من داخله. قالت بسخرية:

اخبر تلك الحمقاء الا تذكر اسمي كثيرا.. فقد تمرض من الحقد.

ردّ صمصم:

اهديني يا حبيبي ...

سمعت سمراء تلك الكلمة، فتجمدت نظراتها:

إلى أين تنظر؟! كنت أعلم أنها هنا، لكن أن تناديهما بـ(حبيبي) وتغازلها أمامي؟ أنا ذاهبه.

وقفت ميساس خلفه، وضعت يدها على كتفه، وأخرجت لسانها لسمراء بتحدي وقالت:

اترکها تغادر يا عزيزي، وتعال لتتضي الليلة معي.

النفت إليها صمصام متعجبًا وقال:

ألم تقولي إن حبك خالي من الشهوات؟!

صرخت سمراء بغيرة:

ما الذي تقوله لك هذه الجنية؟! لقد وافقت على زواجكما لأنني كنت أعلم أنه لن تكون هناك علاقة بينكما، فقط لأجل ما قدمته لك من مساعدات.

ضحك ميساس بصوت خافت وقالت:

أخبر تلك العاجزة، أنتي تزوجتك قبلها.

هنا صرخ صمصام بصوت مرتفع:

- يكفي .... خرج من الغرفة كمن يفتر من ساحة معركة خاسرة، وجهه يشتعل بالغضب، وصدره يضجّ بكلمات لا تجرؤ على الخروج كلها... ثم، وصوته يقطر

سخريّة :

زواج امرأتين؟ حتى وإن كانت إحداهما جنية... من يُطيق هذا العبث؟!

كانت خطواته كوقع مطر ثقيل على أرض يابسة... وهو يسير في المقر ، لفت نظره خيط ضوء واهن، يتسلل من تحت باب غرفة محجورة... غرفة نسيت أنفاسها الحياة منذ زمن.

توقف، حدق في ذلك النور كان فيه شيئاً يخاطبه، مدّ يده ببطء، وفتح الباب... صوت المفصلات القديمة صرخ في وجهه وعندما افتتحت وجد أنّ الضوء أقوى تحت السرير اقترب ثم جثا على ركبتيه ، مدّ يده تحت السرير، حتى لامست أصابعه خشبًا بارداً، متآكلًا من الزمن.

سحب الصندوق الخشبي الذي غطّاه التراب يبحث بين المحتويات عن مصدر النور إلى أن اصطدمت بشيء واحد... صندوق جوناثان.

مجرد لمسه له كان كافياً. جسده كله ارتجف.

كانت البقعة البيضاء التي فوق الصندوق اتسعت قليلاً عن ذي قبل على حساب السواد الذي لا يزال يطفى على أغله.

أغمض عينيه، وعاد إليه صوت نائلة وهي تقرأ ورقة جوناثان:  
"إذا غلب البياض... ظهر الترايق."

.....  
يتبع